

شيخ الإسلام
أحمد بن عبدكريم بن تيمية

فَاعِلَةٌ فِي الْمَحَبَّةِ

تحقيق وتعليق
للشيخ محمد راسخ



الشيخ

مكتبة التراث الإسلامي
11 صفية زغارول الشاهقة ت 2002828

فَاعِدَةٌ فِي الْمَحَبَّةِ

شيخ الإسلام
أحمد بن عبد الحليم بن تيمية

تحقيق وتعليق
دكتور محمد رساوي

مكتبة التراث الإسلامي

١٤ صفة زغول القاهرة ت ٢٥٥٢٨٢٨

حقوق الطبع والنشر محفوظة
للمنشر

مكتبة التراث الإسلامي

القاهرة
عبدالله عجاج

٣٥٥٣٨٣٨ ن

فَاعِلَةٌ فِي الْمَحَبَّةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً طيباً مباركاً فيه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمد عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد ، رأيت في أثناء وجودي في دمشق عام ١٩٧٥ / ١٩٥٥ وأثناء بحثي
عن مخطوطات ابن تيمية في المكتبة الظاهرية رسالة بعنوان « قاعدة الحجة »
فصورتها واحتفظت بها في مكتبي .

وكانت هذه القاعدة قد صورت قبل ذلك ضمن مصورات المخطوطات
بالجامعة العربية وذكرت في فهرست هذه المخطوطات^(١) .

وهذه المخطوطة نسخة وحيدة نادرة لا توجد منها نسخة أخرى ولم يسبق
نشرها من قبل ، وهي نسخة كثيرة الأخطاء والتحريف ، ولعل هذا كان من
أسباب إخراج أكثر العلماء عن تحقيقها ونشرها .

والمخطوطة رقمها في المكتبة الظاهرية ١٢٩ تصوف ، وهي تقع ضمن
مجموعة في ٥٧ ورقة من ص ١٤٥ إلى ص ١٩٩ ، ومسطرة صفحاتها حوالى
٢٣ سطراً وفي كل سطر حوالى ١٣ كلمة وخطها نسخ معتاد قليل النقط وهو
خط واضح ولكن الناسخ — كما قدمت — قليل العلم كثير الخطأ والتحريف .

والصفحة الأولى من المصورة كتب في أعلاها في وسط الصفحة : « فصل في
الحب والبغض لأبي العباس أحمد بن تيمية » وكتب في أعلى الصفحة جهة اليسار
كلمة « الأول » وتحتها رقم الصفحة ١٤٥ .

وتبدأ المخطوطة بالعبارات التالية : « بسم الله الرحمن الرحيم على الله توكلى ،
الحمد لله نحمده ونستعينه .. إلخ » وبعد ذلك : « أما بعد فهذه قاعدة عظيمة في

الحبة وما يتعلق بها من جمع الإمام العلامة ... بن تيمية رضى الله عنه وأرضاه . قال رضى الله عنه : فصل في الحب والبغض والحمود من ذلك والمذموم وأصل كل فعل وحركة في العالم من الحب والإرادة ... إلخ » .

وتنتهى الصفحة الأخيرة في المخطوطة بالعبارات التالية : « ... وأنها دالة على الإله الحق من هذا الوجه وأنه لو كان فيهما آله إلا الله لفسدنا ، وهو غير الوجه الذى دلت منه على ربوبيته . وقد بسطنا الكلام على ذلك في مواضع متعددة إذ هو أجل العلم الإلهي وأشرفه ، وإنما كان المقصود هنا التنبيه على أن الإرادة نوعان كالعلم ، والله أعلم » .

وليس في المصورة عندي ذكر للناسخ أو تاريخ النسخ ، ولكن جاء في فهرس الجامعة العربية أن تاريخ النسخ هو القرن التاسع وأن مقياس صفحات المخطوطة هو ٢٨ × ١٨ سم وأن عدد أوراق المخطوطة ٥٧ ورقة .

وذكر ابن عبد الهادي القاعدة في « العقود الدرية » فقال^(١) : « وقاعدة كبيرة في محبة الله للعبد ومحبة العبد لله » وهناك قاعدة أخرى هي : « وقاعدة في وجوب تقديم محبة الله تعالى ورسوله على النفس والمال والأهل »^(٢) وعنده أيضاً « وقاعدة في أمراض القلوب وشفائها »^(٣) .

ونحن نعلم أن ابن تيمية له قاعدة « أمراض القلوب وشفائها »^(٣) وفصل « في مرض القلوب وشفائها » أيضاً^(٤) وهذا غير رسالته « التحفة العراقية في الأعمال القلبية »^(٥) . وهذه جميعاً غير قاعدتنا في الحبة .

محمد رشاد محمد رفيق سالم

(١) ص ٣٩ .

(٢) ص ٦٦ .

(٣) ص ٤١ .

(٤) ص ٢١ .

(٥) ص ٢٤ .

فصل في الحب والبغض

بسم الله الرحمن الرحيم ، على الله توكلى .

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، ونشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وحببيه وخليله ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا .
أما بعد ، فهذه قاعدة عظيمة في المحبة وما يتعلق بها ، من جمع الإمام العلامة ، شيخ الإسلام ، بركة الأنام ، بقية السلف الكرام ، أبى العباس أحمد ، بن الشيخ شهاب الدين عبد الحلیم ، بن الشيخ مجد الدين أبى البركات عبد السلام ، ابن تيمية ، رضى الله عنه وأرضاه .

قال رضى الله عنه : فصل في الحب والبغض ، والمحمود من ذلك والمذموم ، وأصل كل فعل وحركة في العالم من الحب والإرادة ، فهو أصل كل فعل ومبدؤه . كما أن البغض والكراهة مانع وصاد^(١) لكل ما انعقد بسببه ومادته ، فهو أصل كل ترك ، إذا فُسرَّ الترك بالأمر الوجودى^(٢) ، كما يفسره بذلك أكثر أهل النظر .

وإذا عُنى بالترك مجرد عدم الفعل ، فعدم الفعل تارة يكون لعدم مقتضيه من المحبة والإرادة ولوازمهما ، وقد يكون لوجود مانعه من البغض والكراهة وغيرهما .

(١) فى الأصل : وضاد .

(٢) فى الأصل : الوجود .

فأما وجود الفعل فلا يكون إلا عن محبة وإرادة ، حتى دفعه للأمر التي يكرهها ويبغضها ، هو لما في ذلك من المحبوب أو اللذة يجدها بالدفع ، فيقال : شفى صدره وقلبه ، والشفاء والعافية بمحبوب .

والمحبة والإرادة تكون ^(١) إما بواسطة وإما بغير واسطة ، مثل فعله للأشياء التي يكرهها ، كشرب الدواء والمكروه ، وفعل الأشياء المخالفة لهواه وصبره ، ونحو ذلك .

فإن هذه الأمور ، وإن كانت مكروهة من بعض الوجوه ، فإنما يفعل أيضا لمحبة وإرادة ، وإن لم تكن المحبة لنفسها ، بل المحبة لملازمها ، فإنه يجب العافية والصحة المستلزمة لإرادة شرب الدواء ، ويجب رحمة الله ونجاته من عذابه المستلزم لإرادة ترك ما يهواه ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ [سورة النازعات : ٤٠] ، فلا يترك الحى ما / يحبه ويهواه إلا لما يحبه ويهواه ، لكن يترك أضعفهما محبة لأقواهما محبة ، كما يفعل ما يكرهه لما محبته أقوى من كراهة ذلك ، وكما يترك ما يحبه لما كراهته أقوى من محبة ذلك .

ظ ١٤٥

ولهذا كانت المحبة والإرادة أصلا للبغض والكراهة وعلة لها ، ولازما مستلزما ^(٢) لها من غير علة .

وفعل البغض في العالم إنما هو لمنافاة المحبوب ، ولولا وجود المحبوب لم يكن البغض ، بخلاف الحب للشيء ، فإنه قد يكون لنفسه ، لا لأجل منافاته للبغض ^(٣) ، وبغض الإنسان وغضبه مما يضاد وجود محبوبه ، ومانع ومستلزم لا يكره عليه ، ونجد قوة البغض للنافى أشد وأحوط .

(١) في الأصل : يكون .

(٢) كلمة « مستلزما » ليست واضحة في الأصل المخطوط ، وكنا استظهرتها .

(٣) في الأصل : للبغض .

ولهذا كان رأس الإيمان الحب في الله والبغض في الله ، وكان من أحب الله ، وأبغض الله ، وأعطى الله ، ومنع الله ، فقد استكمل الإيمان .

فالمحبة والإرادة أصل في وجود البغض والكراهة ، والأصل في زوال البغض المكروه ، فلا يوجد البغض إلا لمحبة ، ولا يزول البغض إلا لمحبة .

فالمحبة أصل كل أمر موجود ، وأصل دفع كل ما يطلب الوجود ، ودفع ما يطلب الوجود أمر موجود ، لكنه مانع من وجود ضده ، فهو أصل كل موجود من بغض ومانع ولوازمهما .

وهذا القدر الذى ذكرناه من [أن]^(١) المحبة والإرادة أصل كل حركة في العالم ، فقد بينّا في القواعد وغيرها أن هذا يندرج فيه كل حركة وعمل . فإن ما في الأجسام من حركة طبيعية فإنما أصلها السكون ، فإنه إذا خرجت عن مستقرها^(٢) كانت بطبيعتها تطلب مستقرها ، وما فيها^(٣) من حركة قسرية فأصلها من القاسر القاهر ، فلم تبق حركة اختيارية إلا عن الإرادة .

والحركات : إما إرادية ، وإما طبيعية ، وإما قسرية . لأن الفاعل المتحرك إن كان له شعور بها فهي الإرادية ، وإن لم يكن له شعور فإن كانت على وفق طبع المتحرك فهي الطبيعية ، وإن كانت على خلاف ذلك فهي القسرية .

وبينّا أن ما في السموات والأرض ، وما بينهما من حركة الأفلاك والشمس والقمر والنجوم ، وحركة الرياح والسحاب والمطر والنبات وغير ذلك ، فإنما هو بملائكة الله تعالى الموكلة بالسموات والأرض ، الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون .

(١) زدت « أن » ليستقيم الكلام .

(٢) في الأصل : خرج عن مستقره .

(٣) في الأصل : وما فيه .

/ كما قال تعالى : ﴿ فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا ﴾ [سورة النازعات : ٥] ،
 ﴿ فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا ﴾ [سورة الذاريات : ٤] ، وكما دل الكتاب والسنة على أصناف
 الملائكة ، وتوكلهم بأصناف المخلوقات .

ولفظ « المَلَك » يشعر بأنه رسول منفذ لأمر غيره ، فليس لهم من الأمر
 شيء ، بل كم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن
 الله لمن يشاء ويرضى ، ﴿ وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا
 وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا . رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ
 وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [سورة مريم : ٦٤ ، ٦٥] .

وإذا كان كذلك فجميع تلك المحبات والإرادات ، والأفعال والحركات ،
 هي عبادة لله رب الأرض والسموات ، كما قد بيناه في غير هذا الموضوع .

وإذا كان كذلك فأصل المحبة المحمودة التي أمر الله بها ، وخلق خلقه
 لأجلها ، هي ما في عبادته وحده لا شريك له ، إذ العبادة متضمنة (١) لغاية الحب
 بغاية الذل .

المحبة التي أمر
 الله بها هي
 عبادته وحده
 لا شريك له

والمحبة لما كانت جنساً لأنواع (٢) متفاوتة في القدر والوصف كان أغلب
 ما يذكر منها في حق الله ما يختص به ويليق به ، مثل العبادة والإنابة ونحوهما ؛ فإن
 العبادة لا تصلح إلا لله وحده ، وكذلك الإنابة .

وقد تُذكر المحبة المطلقة (٣) لكن تقع فيها الشركة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ

(١) في الأصل : يتضمن .

(٢) في الأصل : أنواع .

(٣) في الأصل : المطلق .

النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا
لِلَّهِ [سورة البقرة : ١٦٥] .

ولهذا كان هذا الحب أعظم الأقسام المذمومة في المحبة ، كما أن حب الله
أعظم الأنواع المحمودة ، بل عبادة الله وحده لا شريك له هي أصل السعادة
ورأسها ، التي لا ينجو أحد من العذاب إلا بها ، وعبادة إله آخر من دونه هو
أصل الشقاء ورأسه ، الذي لا يبقى في العذاب إلا أهله .

فأهل التوحيد الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لا شريك له ، لا يبقى منهم
في العذاب أحد . والذين اتخذوا من دونه أندادا يحبونهم كحبه ، وعبدوا غيره ، هم
أهل الشرك ، الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [سورة
النساء : ٤٨] (١) .

وجماع القرآن هو الأمر بتلك المحبة ولوازمها ، والنهي عن هذه المحبات
ولوازمها (٢) ، وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين ، وذكر قصص أهل النوعين .
وأصل دعوة جميع المرسلين ، صلى (٣) الله عليهم وسلم ، قولهم :
﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٩] ، وعلى ذلك قاتل من
قاتل منهم المشركين ، كما قال خاتم الرسل ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى
يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فإذا قالوها عصموا مني
دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » (٤) . / قال الله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ

ظ ١٤٦

(١) لفظ الجلالة غير موجود في الآية في الأصل المخطوط .

(٢) في الأصل : وتلازمها .

(٣) في الأصل : وصلى .

(٤) مضمي الحديث من قبل ١٥/١ (ت ١) .

مَنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴿

[سورة الشورى : ١٣] .

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه في الصحيحين عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان » وفي رواية في الصحيح : « لا يجد طعم الإيمان إلا من كان فيه ثلاث : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله ، كما يكره أن يلقى في النار » (١) .

وفي الصحيح عن أنس أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » (٢) .

وفي صحيح البخارى أن عمر قال : يا رسول الله : والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسى ، فقال : « لا يا عمر ، حتى أكون أحب إليك من

(١) جاء الحديث بلفظ : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان » عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى : البخارى ٨/١ (كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان) ، ٩/١ (كتاب الإيمان ، باب من كره أن يعود فى الكفر) ، ٢٠/٩ (كتاب الإكراه ، باب من اختار الضرب) ؛ مسلم ٦٦/١ (كتاب الإيمان ، باب بيان خصال ...) ؛ سنن ابن ماجه ١٣٣٨/٢ - ١٣٣٩ (كتاب الفتن ، باب الصبر على البلاء) .

وجاء الحديث بلفظ : « لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وحتى أن يقذف فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله ، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » عن أنس رضى الله عنه فى : البخارى ١٤/٨ (كتاب الأدب ، باب الحب فى الله) .

(٢) ورد الحديث عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى : البخارى ٨/١ (كتاب الإيمان ، باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان) ؛ مسلم ٦٧/١ (كتاب الإيمان ، باب وجوب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من الأهل) ؛ المسند (ط . الحلبي) ١٧٧/٣ ، ٢٠٧ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ؛ سنن ابن ماجه ٢٦/١ (المقدمة ، باب فى الإيمان) .

نفسك . قال : فوالذى بعثك بالحق لأنت أحب إلى من نفسى . قال : « الآن يا عمر » (١) .

ولهذا ورد فى فضل هذه الكلمة : « شهادة أن لا إله إلا الله » من الدلائل ما يضيق هذا الموضوع عن ذكره ، وهى أفضل الكلام ، وما فيها من العلم والمحبة أفضل العلوم والمحبات ، كالحديث الذى فى السنن : « أفضل الذكر لا إله إلا الله » (٢) .

والآية المتضمنة لها أعظم آية فى القرآن ، كما فى صحيح مسلم أن النبى ﷺ قال لأبى بن كعب : « يا أبا المنذر : أتدرى أى آية فى كتاب الله أعظم ؟ قال : ﴿ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٥] قال : فضرب بيده صدرى ، وقال : لِيَهْنِكَ العلم أبا المنذر » (٣) .

وإذا كانت كل حركة فأصلها الحب والإرادة من محبوب مراد لنفسه (٤) ،

(١) الحديث عن عبد الله بن هشام رضى الله عنه فى : البخارى ١٢٩/٨ (كتاب الإيمان ، باب كيف كانت يمين النبى ﷺ) ولفظ الحديث : لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك الحديث .

(٢) الحديث عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى : سنن ابن ماجه ١٢٤٩/٢ (كتاب الأدب ، باب فضل الحامدين) ؛ سنن الترمذى ١٣٠/٥ (كتاب الدعوات ، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة) ونصه فيه : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث موسى بن إبراهيم . وقد روى على بن المدينى وغير واحد عن موسى بن إبراهيم هذا الحديث » وذكر الألبانى الحديث فى « صحيح الجامع الصغير » ٣٦٢/١ وحسنه .

(٣) الحديث بألفاظ مختلفة عن أبى بن كعب رضى الله عنه فى : مسلم ٥٥٦/١ (كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي) ؛ وفى المسند عنه (ط . الحلبي) ١٤٢/٥ وعن صحابى لم يذكر اسمه ٥٨/٥ .

(٤) فى الأصل : بنفسه .

لا يُحب لغيره ، إذ لو كان كل شيء محبوباً لغيره لزم الدور أو التسلسل . والشيء قد يُحب من وجه دون وجه ، وليس شيء يحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده ، ولا تصلح (١) الإلهية إلا له ، ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا .

والإلهية المذكورة في كتاب الله هي العبادة والتأله ، ومن لوازم ذلك أن يكون هو الرب الخالق . وأما ما يظنه طوائف من أهل الكلام أن الألوهية هي نفس الربوبية ، وأن ما ذكر في القرآن من نفى إله آخر ، والأمثال المضروبة البيّنة (٢) فالمقصود به نفى رب يشركه في خلق العالم ، كما هو عادتهم في كتب الكلام - / فهذا قصور وتقصير منهم في فهم القرآن ، وما فيه من الحجج والأمثال أتوا فيه من جهة أن مبلغ علمهم هو ما سلكوه من الطريقة الكلامية ، فاعتقدوا أن المقصودين واحد (٣) ، وليس كذلك ، بل القرآن ينفي أن يعبد غير الله ، أو أن يتخذها إلهاً (٤) فيحبه ويخضع له محبة الإله وخضوعه ، كما بيّنت (٥) ذلك عامة آيات القرآن ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] . ولهذا قال الخليل : ﴿ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٦] .

ص ١٤٧

ومن المعلوم أن كل حيّ فله إرادة وعمل بحسبه ، وكل متحرك فأصل حركته المحبة والإرادة ، ولا صلاح للموجودات (٦) إلا أن يكون كمال محبتها وحركتها لله تعالى ، كما لا وجود لها إلا أن يبدعها الله .

(١) في الأصل : ولا يصلح .

(٢) البيّنة : الكلمة في الأصل غير واضحة ، وكذا استظهرتها .

(٣) في الأصل : واجلد ، وهو تحريف .

(٤) في الأصل : أو أن يتخذها الله ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبتته .

(٥) كلمة « بيّنت » غير واضحة في الأصل ، وكذا استظهرتها .

(٦) في الأصل : الموجودات .

ولهذا قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٢] ، ولم يقل : لعدمنا ، إذ هو قادر على أن يبقيا على وجهه الفساد ، لكن لا يمكن أن تكون صالحة إلا أن يُعبد الله وحده لا شريك له ، فإن صلاح الحي إنما هو صلاح مقصوده ومراده ، وصلاح الأعمال والحركات بصلاح إرادتها ونياتها .
ولهذا كان من أجمع الكلام وأبلغه قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » (١) ، وهذا يعم كل عمل وكل نية .

فكل عمل في العالم هو بحسب نية صاحبه ، وليس للعامل (٢) إلا ما نواه (٣) وقصده وأحبه وأراده بعمله ، ليس في ذلك تخصيص ولا تقييد ، كما يظنه طوائف من الناس ، حيث يحسبون أن النية المراد به النية الشرعية المأمور بها ، فيحتاجون أن يحصروا (٤) الأعمال بالأعمال الشرعية ، فإن النية موجودة لكل متحرك ، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « أصدق الأسماء الحارث وهمام » (٥) ، فالحارث هو العامل (٦) الكاسب ، والهمام هو القاصد المريد ، وكل إنسان متحرك بإرادته حارث همام .

(١) الحديث عن عمر بن الخطاب في البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه .

(٢) في الأصل : وليس للعمل . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٣) في الأصل : إلا ما هو نواه ولعل الصواب ما أثبتته .

(٤) في الأصل : أن يحصوا . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٥) جاء الحديث مطولا عن أبى وهب الجشمى رضى الله عنه فى : سنن أبى داود ٣٩٤/٤ (كتاب الأدب ، باب فى تغيير الأسماء) ونصه فيه : « تسموا بأسماء الأنبياء ، وأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدقها حارث وهمام ، وأقبحها حرب ، ومرة » والحديث عنه أيضا فى المسند ٣٤٥/٤ . وجاء حديث آخر نصه : « أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فى سنن أبى داود فى الموضوع السابق وهو فى مسلم وسنن الترمذى وابن ماجه والنسائى والدارمى .

(٦) فى الأصل : العمل .

كما بينا أن المحبة والإرادة أصل كل عمل ، فكل عمل في العالم فعن إرادة
ومحبة صدر .

ولهذا كانت المحبة والإرادة منقسمة إلى محبوب لله وغير محبوب ، كما أن
العمل والحركة منقسم (١) كذلك .

وإذا كان كذلك فالمحبة لها آثار وتوابع - سواء كانت صالحة محمودة نافعة
/ أو كانت غير ذلك - لها وجد وحلاوة وذوق ووصول وصدود ، ولها سرور وحزن
ظ ١٤٧ . وبكاء .

والمحبة المحمودة هي المحبة النافعة ، وهي التي تجلب لصاحبها ما ينفعه ، وهو
السعادة . والضارة هي التي تجلب لصاحبها ما يضره ، وهو الشقاء .

ومعلوم أن الحى العالم لا يختار أن يحب ما يضره ، لكن [يكون] (٢) ذلك
عن جهل وظلم ، فإن النفس قد تهوى ما يضرها ولا ينفعها ، وذلك ظلم منها لها ،
وقد تكون جاهلة بحالها به ، بأن تهوى الشيء وتجه - بلا علم منها بما في محبته من
المنفعة والمضرة - وتتبع هواها ، وهذا حال من اتبع هواه بغير علم .

وقد يكون عن اعتقاد فاسد ، وهو حال من أتبع الظن وما تهوى نفسه ،
وكل ذلك من أمور الجاهلية ، وإن كان كل من جهلها وظلمها لا يكاد يخلو عن
شبهة يشتهب بها الحق ، وشهوه هي في الأصل محمودة إذا وضعت في محلها ،
كحال الذى يحب لقاء قريبه (٣) ، فإن هذا محمود ، وهو (٤) أصل صلة الرحم
التي هي شجنة من الرحمن .

(١) في الأصل : كما هو العمل بالحركة منقسمة .

(٢) زدت « يكون » ليستقيم الكلام .

(٣) في الأصل المصور كأنها : ربه ، ولعل الصواب ما أثبتته .

(٤) في الأصل : وهي .

لكن إذا اتبع هواه ، حتى خرج عن العدل بين ذوى القربى وغيرهم ، كان هذا ظلماً ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ [سورة النساء : ١٣٥] .

وكذلك الذى يجب الطعام والشراب والنساء فإن هذا محمود ، وبه يصلح حال بنى آدم ، ولولا ذلك لما استقامت نفس الأنساب ، ولا وُجدت الذرية ، ولكن يجب العدل والقصد فى ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ [سورة الأعراف : ٣١] ، وكما قال تعالى : ﴿ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ٦ ، ٧] .

فإذا تجاوز حد العدل ، وهو المشروع ، صار ظلماً (١) عادياً ، بحسب ظلمه وعدوانه .

وقد ذكرنا / فى مواضع [أن] (٢) المشروع ، والنافع ، والصالح ، والعدل ، والحق ، والحسن : أسماء متكافئة ، مسمّاهما واحد بالذات ، وإن تنوعت صفاته ، بمنزلة أسماء الله الحسنى ، فأسمائه تعالى ، وأسماء كتابه ، ودينه ، ونيبه ، مسمّى كل صنف من ذلك واحد وإن تنوعت صفاته . فكل عمل صالح هو نافع لصاحبه وبالعكس ، وكل نافع صالح فهو مشروع وبالعكس ، وكل ما كان صالحاً مشروعاً فهو حق وعدل وبالعكس .

(١) فى الأصل : ضالماً .

(٢) زدت « أن » ليستقيم الكلام .

ولكن الناس قد يدركون أحد النعتين فيستدلون به على وجود الآخر (١) ، مثل أن يعلم أن الله أمر بهذا الفعل وشرعه ، فيعلم من هذا وجوب (٢) كونه طاعة لله ورسوله ، وذلك الفعل بعينه يجب أن يكون عملاً صالحاً ، وهو النافع ، وأن يكون حقاً وعدلاً ، وهذا استدلال بالنص . وقد يعلم كون الشيء صالحاً أو عدلاً أو حسناً ، ثم يستدل بذلك على كونه مشروعاً ، وهو الاستدلال بالاستصلاح والاستحسان والقياس على كونه مشروعاً .

وهذه الطريقة فيها خطر عظيم ، والغلط فيها كثير ، لخفاء صفات الأعمال وأحوالها عنها ، وأن العالم بذلك ، كما ينبغي ، ليس هو إلا رسول الله ﷺ . فالاستدلال بالمصالح ، التي قد يقال لها المصالح المرسلة (٣) ، هو الذى يرى الشيء مصلحة وليس فى الشرع ما ينفيه ، فيستدل بالمصلحة على أنه من الشريعة .

والاستحسان : أن يرى الشيء حسناً فيستدل بحسنه على أنه من الشرع . والعدل : أن يرى للشيء نظيراً وشبيهاً (٤) ، فيستدل على حكمه بحكم نظيره وشبيهه ، وليس هذا موضع الكلام فى ذلك .

لكن أعلم الناس من كان رأيه واستصلاحه واستحسانه وقياسه موافقاً للنصوص ، كما قال مجاهد : أفضل العبادة رأى الحسن ، وهو اتباع السنة . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ [سورة سبأ : ٦] .

(١) فى الأصل كأن العبارة : على الذات وجود الآخر . ورأيت أن ما أثبتته يستقيم به الكلام .
 (٢) فى الأصل : وجب .
 (٣) فى الأصل : أراد الناسخ أن يكتب « المشتركة » ثم عدل عن ذلك وكتب فوقها « المرسلة » .
 (٤) فى الأصل : نظير وشبيه ، وهو خطأ .

ولهذا كان السلف يسمون أهل الآراء المخالفة للسنة / والشريعة في مسائل الاعتقاد الخيرية ، ومسائل الأحكام العملية : أهل الأهواء (١) ، لأن الرأى المخالف للسنة جهل لا علم ، فصاحبه ممن اتبع هواه بغير علم .

ولهذا يذكر الله في القرآن من يتبع هواه بغير علم ، ويذم من يتبع هواه (٢) بغير هدى من الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ [سورة القصص : ٥٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ١١٩] .

وكل من اتبع هواه [اتبعه] (٣) بغير علم ، إذ لا علم بذلك إلا بهدى الله ، الذى بعث الله به رسله ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [سورة طه : ١٢٣ ، ١٢٤] ولهذا ذم الله الهوى في مواضع من كتابه .

واتباع الهوى يكون في الحب والبغض ، كقوله تعالى : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [سورة ص : ٢٦] ، فهنا يكون اتباع الهوى هو ما يخالف الحق في الحكم . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ

(١) في الأصل : العملية يسمونها أهل الأهواء .

(٢) في الأصل : وذم لمن يتبع هواه ... إلخ . وأرجو أن يكون ما أثبتته هو الصواب .

(٣) زدت كلمة « اتبعه » لتستقيم العبارة .

أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿ [سورة النساء: ١٣٥] . فهنا يكون اتباع الهوى فيما يخالف القسط من الشهادة وغيرها . والحق هو العدل ، واتباع الهوى في خلاف ذلك هو من الظلم .

وقد نهى رسول الله ﷺ عن اتباع أهواء الخلق . وقال تعالى : ﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿ [سورة البقرة: ١٢٠] ، فناه عن اتباع أهواء الذين أوتوا الكتاب بعد ما جاءه من العلم .

وكذلك / قال تعالى في الآية الأخرى (١) : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ [سورة البقرة: ١٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ [سورة المائدة: ٤٩] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرِبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٠] .

فقد ناه عن اتباع أهواء المشركين واتباع أهواء أهل الكتاب ، وحذره أن يفتنوه عما أنزل الله إليه من الحق ، وذلك يتضمن النهي عن اتباع أهواء أحد في خلاف شريعته وسنته ، وكذا (٢) أهل الأهواء من هذه الأمة .

(١) في الأصل : أخرى .

(٢) في الأصل : وهو ، وفوقها كتب : كذا . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبتته .

وقد بين ذلك في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة المجاثية : ١٩] . فقد أمره في هذه الآية باتِّباع الشريعة التي جعله عليها ، ونهاه عن اتِّباع ما يخالفها ، وهي أهواء الذين لا يعلمون .

ولهذا كان كل من خرج عن الشريعة والسنة من أهل (١) الأهواء ، كما سَمَّاهم السلف .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [سورة المؤمنون : ٧١] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [سورة المائدة : ٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَّرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بغيرِ عِلْمٍ ﴾ [سورة الأنعام : ١١٩] .

وقال تعالى : / ﴿ قَالُوا لَوْلَا أوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۗ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بغيرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ [سورة القصص : ٤٨ - ٥٠] .

(١) في الأصل : والسنة كان من أهل

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَآذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًىٰ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [سورة محمد : ١٦ ، ١٧] .

فذكر الذين أوتوا العلم ، وهم الذين يعلمون أن ما أنزل إليه (١) من ربه الحق ، ويفقهون ما جاء به ، وذكر المطبوع على قلوبهم فلا يفقهون إلا قليلا ، الذين اتبعوا أهواءهم : يسألونهم (٢) ماذا قال الرسول آنفا ، وهذه حال من لم يفقه الكتاب والسنة ، بل يستشكل ذلك فلا يفقهه ، أو قرأه متعاضا متناقضا ، وهي صفة المنافقين .

ثم ذكر صفة المؤمنين فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ ﴾ [سورة محمد : ١٧] زيادة الهدى ، وهو ضد الطبع على قلوب أولئك ، وآتاهم تقواهم ، وهو ضد اتباع أولئك الأهواء .

فصاحب التقوى ضد صاحب الأهواء ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [سورة النازعات : ٤٠] ، وقال تعالى : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ [سورة الفتح : ٢٦] .

ولما كانت كل حركة وعمل في العالم فأصلها المحبة والإرادة ، وكل محبة وإرادة لا يكون أصلها محبة الله وإرادة وجهه فهي باطلة فاسدة ، كان كل عمل

(١) أى إلى النبي ﷺ .

(٢) فى الأصل : يسألونهم .

لا يُراد به وجهه باطلا ، فأعمال الثقلين - الجن والإنس - منقسمة : منهم من يعبد الله ومنهم [من] (١) لا يعبده ، بل قد يجعل معه إلهها آخر . وأما الملائكة فهم عابدون لله .

وجميع الحركات الخارجة عن مقدر بنى آدم والجن والبهائم فهي من عمل الملائكة ، وتحريكها لما (٢) في السماء والأرض وما بينهما ، / فجميع تلك الحركات والأعمال عبادات لله متضمنة لمحبه وإرادته وقصده ، وجميع المخلوقات عابدة لخالقها إلا ما كان من مردة الثقلين ، وليست عبادتها إياه قبولها لتديرو (٣) وتصريفه وخلقه ، فإن هذا عام لجميع المخلوقات ، حتى كفَّار بنى آدم ، فلا يخرج أحد عن مشيئته وتديرو ، وذلك بكلمات الله التي كان النبي ﷺ يستعيز بها ، فيقول : « أعوذ بكلمات الله التامات ، التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر » (٤) ، وهذا من عموم ربوبيته وملكه .

وهذا الوجه هو الذى أدركه كثير من أهل النظر والكلام ، حتى فسروا ما فى القرآن والحديث من عبادة الأشياء وسجودها وتسيبها بذلك ، وهم غالطون فى (٥) هذا التخصيص شرعا وعقلا أيضا .

فإن المعقول الذى لهم يعرفهم أن كل شىء وكل متحرك ، وإن كان له مبدأ ، فلا بد له من غاية ومنتهى - كما يقولون : له علتان : فاعلية وغائية . والذى

(١) زدت « من » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : مما .

(٣) فى الأصل : التديرو .

(٤) مضى الحديث فى المجموعة الأولى ص : ١٠ (ت ١) وأوردته كاملا هناك فارجع إليه .

(٥) فى الأصل : وفى .

ذكره وإنما هو من جهة العلة الفاعلية ، وبعض^(١) المخلوقين كذلك يجعلونه [من جهة] العلة الغائية^(٢) ، وهذا غلط .

فلا يصلح أن يكون شيء من المخلوقات علة فاعلية ولا غائية ، إذ لا يستقل مخلوق بأن يكون علة تامة قط ، ولهذا لم يصدر عن مخلوق واحد شيء قط ، ولا يصدر شيء في الآثار إلا عن اثنين من المخلوقات ، كما قد بينا هذا في غير هذا الموضوع .

وكذلك لا يصلح شيء من المخلوقات أن يكون علة غائية تامة ، إذ ليس في شيء من المخلوقات كمال مقصود حتى من الأحياء^(٣) . فالمخلوقات بأسرها يجتمع^(٤) فيها هذان^(٥) النقصان : أحدهما : أنه لا يصلح شيء منها أن تكون علة تامة ؛ لا فاعلية ولا غائية . والثاني : أن ما كان فيها علة فله علة ، سواء كان علة فاعلية أو غائية .

فالله سبحانه رب كل شيء ومليكه ، وهو رب العالمين ، لا رب لشيء من الأشياء إلا هو ، وهو إله كل شيء ، وهو في السماء / إله ، وفي الأرض إله ، وهو الله في السموات وفي الأرض ، لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، وما من إله إلا الله ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

ظ ١٥٠

فعبادة المخلوقات وتسبيحها هو من جهة إلهيته سبحانه وتعالى ، وهو الغاية المقصودة منها ولها .

(١) في الأصل : بعض .

(٢) في الأصل : يجعلون العلة الغائية ، ولعل ما أثبتته يستقيم به الكلام .

(٣) في الأصل : من الأحياء مراد .

(٤) في الأصل : يجمع .

(٥) في الأصل : هذا .

وأما في الشرع فإن الله فصل بين هذا وبين هذا ، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [سورة الحج : ١٨] (١) .

فهذا السجود الذي فصل بين كثير من الناس الذي يفعلونه ، وكثير من الناس [الذين لا يفعلونه طوعاً] (٢) ، وهم الذين حق عليهم (٣) العذاب ، ليس هو ما يشترك فيه جميع الناس من خلق الله وربوبية الله تعالى إياهم وتديبيرهم .

وكذلك فصل بين الصنفين في قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيَّرِ دِينَ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ وَلَهُ أُسْلِمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [سورة آل عمران :

• [٨٣

وكذلك في قوله : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ [سورة الرعد : ١٥] .

وهو سبحانه ذكر في الآية الأخرى (٤) سجود المخلوقات إلا الكثير من الناس ، لأنه ذكر الطوع فقط ، كما ذكر في التي قبلها أديان الناس فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [سورة الحج : ١٧] ، فتضمنت هذه الآية حال المخلوقات إلا الجن ، فإنهم لم يذكروا باللفظ الخاص ،

(١) سقطت في الأصل بعض ألفاظ الآية الكريمة .

(٢) زدت عبارة « الذين لا يفعلونه طوعاً » ليستقيم الكلام .

(٣) في الأصل : عليه .

(٤) أي آية ١٨ من سورة الحج التي ذكرها ابن تيمية قبل سطور قليلة .

لكنهم يندرجون في الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين ، فإنهم كما قالوا :
﴿ مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا ﴾ [سورة الجن : ١١] .

وقد ذكر طائفة من أهل العربية أنهم يدخلون في لفظ الناس أيضا .

/ وقال سبحانه : ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّسُؤُوا ظِلَالُهُ عَنِ
الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ . وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [سورة النحل : ٤٨ - ٥٠] .

ص ١٥١

وفي الصحيحين حديث أبي ذر في سجود الشمس تحت العرش إذا
غابت (١) .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ
صَافَاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [سورة النور : ٤١] .

وقال تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾
[سورة الحديد : ١] ، ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴾ [سورة الحشر : ١] ، ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ

(١) ذكرت في مجموعة الرسائل ٣٦/١ الحديث الذي يشمل هذا المعنى وهو في : البخارى
١٢٥/٩ (كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء) ؛ مسلم ١٣٨/١ (كتاب الأيمان ، باب بيان
الزمن الذى لا يقبل فيه الإيمان) ولفظ الحديث في البخارى هو : « عن أبى ذر قال : دخلت المسجد
ورسول الله ﷺ جالس ، فلما غربت الشمس قال : يا أبأ ذر هل تدرى أين تذهب هذه ؟ قال : قلت : الله
ورسوله أعلم ، قال : فإنها تذهب تستأذن فى السجود فيؤذن لها ، وكأنها قد قيل لها ارجعى من حيث
جئت فتطلع من مغربها . ثم قرأ : (ذَلِكَ مُسْتَقَرُّ لَهَا) فى قراءة عبد الله . وقد أورد ابن تيمية الحديث فى
الموضع المشار إليه مع اختلاف فى الألفاظ . وانظر الدر المنثور ٢٦٣/٥ .

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ [سورة الصف : ١] ، ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿ [سورة الجمعة : ١] ، ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ [سورة التغابن : ١] ، ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴿ [سورة الإسراء : ٤٤] .

قال تعالى : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا هُمْ يَسْتَحْسِرُونَ . يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿ [سورة الأنبياء : ١٩ ، ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿ [سورة الأعراف : ٢٠٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ . فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿ [سورة فصلت : ٣٧ ، ٣٨] .

وقال تعالى : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿ [سورة النساء : ١٧٢] ، ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿ [سورة النساء : ١٧٥] .

* وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

إِلَّا آتَى الرَّحْمَنُ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿ [سورة مريم : ٨٨ - ٩٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ . وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِك نَجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٦ - ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ السَّحَابَ الثَّقَالَ . وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمَحَالِ ﴾ [سورة الرعد : ١٢ ، ١٣] .

وقالت الملائكة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإشْرَاقِ . وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَابٌ ﴾ [سورة ص : ١٨ ، ١٩] .

فأما كثير من الناس ، وأهل الطبع المتفلسفة وغيرهم ، فيعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، ويأخذون^(١) بظاهر من القول ؛ يرون ظاهر الحركات والأعمال التي للموجودات ، ويرون بعض أسبابها القريبة ، وبعض حكمها وغاياتها القريبة : أن ذلك هو العلة لها : فاعلا وغاية ، كما يذكرونه في تشرح الإنسان وأعضائه وحركاته

أهل الطبع المتفلسفة
لا يشهدون الحكمة
الغائية من مخلوقات

(١) في الأصل : ويشترون ، ولعل الصواب ما أثبتته .

الباطنة والظاهرة ، وما يذكرونه من القوى التي في الأجسام ، التي هي تكون بها الحركة ، وما يذكرونه من كل شيء .

ومن ذلك ذكرهم ^(١) الطبيعة التي في الإنسان ، والقوة الجاذبة ، والهاضمة الغذائية ، والدافعة ، والمولدة وغير ذلك ، وأن الرئة تُرَوِّح على القلب لفرط حرارته ، وأن الدماغ أبرد من القلب ^(٢) ، إلى غير ذلك من الأسباب / والحكم التي فيها من شهود ما في مخلوقات الله من الأسباب والحكم ما هو عبرة لأولى الأبصار .

لكن يقع الغلط من إضافة هذه الآثار العظيمة إلى مجرد قوة في جسم ، ولا يشهدون الحكمة الغائية من هذه المخلوقات ، وأن ذلك هو عبادة ربه سبحانه وتعالى .

وقد يعارضهم ^(٣) كلهم طوائف من أهل الكلام ، فينكرون طبائع ^(٤) الموجدات وما فيها من القوى والأسباب ، ويدفعون ما أرى الله عباده من آياته في الآفاق وفي أنفسهم ، مما شهد به في كتابه من أنه خلق هذا بهذا ، كقوله ﴿ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٧] ، وقوله : ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [سورة الجاثية : ٥] .

أهل الكلام ينكرون
طبائع الموجدات
وما فيها من القوى
والأسباب

وكلا الطائفتين قد لا يعلمون ما فيها من الحكمة التي هي عبادة ربه ، وهذا هو المقصود الذي بعث الله به الرسل ، وأنزل به الكتب ، بل إنما يتنازعون في

(١) في الأصل : وذكرهم ، وهو تحريف .

(٢) بعد كلمة « القلب » توجد عبارة غير واضحة في الأصل كأنها : « لكن والحركات عليه تعديلا له ولواجه » والكلام يستقيم بلونها .

(٣) في الأصل : يعاوطهم ، وهو تحريف .

(٤) في الأصل : طباع .

فاعل هذه الأمور ، وما يتعلق بتوحيد الربوبية ، كما قدّمناه . وأما شهادة غاية هذه الأمور ، وما يتعلق بتوحيد الإلهية ، فقد لا يهتدون له . ولهذا كان في طرقهم من الضلالات والجهالات ما هو مخالف لصحيح المنقول وصریح المعقول .

لكن أهل العلم في إضافة جميع الحوادث إلى خلق الله ومشيتته وربوبيته أصح عقلا ودينا ، ومن أدخل في ذلك كل شيء ، حتى أفعال الحيوان ، فهو المصيب الموافق للسنة والعقل ، وهم متكلمة أهل الإثبات الذين يقرّرون أن الله خالق كل شيء وربّه ومليكه .

بخلاف القدرية الذين أخرجوا عن ذلك أفعال الحيوان ، وبخلاف أهل الطبع والفلسفة الذين يخرجون عن ذلك عامة الكائنات من العلل المولّدات ، وكلاهما باطل ، كما بيّن في غير هذا الموضوع .

ولهذا تجد هؤلاء إذا تكلموا في الحركات التي بين السماء والأرض ، مثل حركة الرياح والسحاب والمطر وحدث المطر ، من الهواء ^(١) الذي بين السماء والأرض تارة ، / ومن البخار المتصاعد من الأرض تارة ، كما ذكر ذلك أيضا غير واحد من السلف ، وهو حق مشهود بالأبصار ، كما يُخلق الولد في بطن أمه من المنى ، وكما يُخلق الشجر من الحب والنوى ، فشهدوا بعض الأسباب المرئية ، وجعلوا أكثر الأسباب ، وأعرضوا عن الخالق المسبب لذلك كله ، وعمّا جاء في ذلك من عبادته وتسيّحه والسجود له ، الذي هو غاية حكمته .

فإن خلق الله سبحانه للسحاب بما فيه من المطر من هذا البحر وبحار الأرض ، كخلقه للحيوان والنبات والمعدن من هذه الأمور .

(١) في الأصل : الهوى .

ومعلوم أن المنى جسم صغير مشابه لهذا الذى فى الحيوان من الأعضاء المكسوة والمتنوعة فى أقدارها وصفاتها وحكمها وغاياتها ، هل يقول عاقل : إن هذا مضاف إلى عرض وصفة ؟ حال فى جسم صغير ؟ أو يضاف هذا إلى ذلك الجسم الصغير ؟ هذا من أفسد الأمور فى بديهة العقل .

ومعلوم أنه لا نسبة إلى خلق هذا من هذا ، وإلى ما يصنعه بنو آدم من الصور التى يصنعونها من المداد ، مثل الكتابة بالمداد ، ونسيج الثياب من الغزل ، وصنعة الأطعمة والبنيان من موادها (١) ، وهم مع ذلك لم يخلقوا المواد ولا يفنونها (٢) ، وإنما غايتهم حركة خاصة تعين على تلك الصورة ، ثم لو أضاف مضيف هذه الكتابة إلى المداد لكان الناس جميعا يستجهلونهم ويستحمقونهم . فالذى يضيف خلق الحيوان والنبات إلى مادتها ، أو ما فى مادتها من الطبع ، أليس هو أحمق وأجهل وأظلم وأكفر !؟

وكذلك خلق السحاب والمطر من الهواء والبخار ، هو كذلك إضافة الزلزلة إلى احتقان البخار ، وإضافة حركة الرعد إلى مجرد اصطكاك أجرام السحاب ، إلى غير ذلك من الأسباب التى ضلوا فيها ضللا مبينا ، حيث جعلوها هى العلة التامة فاعلا ، ولم يعرفوا (٣) الغاية ، فجهلوا الوضعين . ونازعهم طوائف من الناس فيما يوجد من الأسباب والقوى التى فى الطبع ، وذلك أيضا جهل .

وإذا كانت المحبة والإرادة أصل كل عمل وحركة . وأعظمها فى الحق محبة الله / وإرادته بعبادته وحده لا شريك له ، وأعظمها فى الباطل أن يتخذ الناس من

(١) فى الأصل : من سوادها ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : ينفونها ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل . ولم يعرف .

دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، ويجعلون له عدلا وشريكا - عُلِمَ أن المحبة والإرادة أصل كل دين ، سواء كان ديننا صالحا أو ديننا فاسدا ، فإن الدين هو من الأعمال الباطنة والظاهرة ، والمحبة والإرادة أصل ذلك كله ، والدين هو الطاعة والعبادة والخُلُق ، فهو الطاعة الدائمة اللازمة التي قد صارت عادة وخُلُقًا ، بخلاف الطاعة مرة واحدة ، ولهذا فُسِّرَ الدين بالعادة والخُلُق ، ويفسر الخلق بالدين أيضا ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقِي عَظِيمٌ ﴾ [سورة القلم : ٤] (١) ، قال ابن عباس : على دين عظيم ، وذكره عنه سفيان بن عيينة ، وأخذه الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة وبذلك فسراه (٢) .

المحبة والإرادة
أصل كل دين

معاني كلمة
« الدين »

وكذلك يفسر بالعادة ، كما قال الشاعر :

أهَذَا دِينُهُ أَبْدَأُ وَدِينِي ؟ (٣) .

ومنه « الدِّينُ » . يقال : هذا ديدنه ، أى عاداته (٤) اللازمة (٥) ، فإن « ديدن » من دَانَ ، بمنزلة صلصل من : صَلَّ ، وَكَبَّكَبَ من كَبَّ ، هو تضعيف له ، والمضعف قد يكون مشدداً ، وقد يكون حرفَ لينٍ ، وهم يعاقبون في كلامهم

(١) في الأصل : إنك ...

(٢) سبق الكلام على تفسير هذه الآية في هذه المجموعة (ص : ٥٦) .

(٣) في « لسان العرب » أن هذا الكلام للمُتَّقِبِ العبدى يذكر ناقته وتام البيت :

تَقُولُ إِذَا ذَرَأْتُهَا وَضِيئِي
أَهَذَا دِينُهُ أَبْدَأُ وَدِينِي ؟

والبيت في ديوان المثقب القصيدة رقم ٧٦ في « المفضليات » (تحقيق الشيخ أحمد شاکر رحمه الله ، والأستاذ عبد السلام هارون ، ط . دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٢/١٣٧١) .

(٤) في الأصل : عبادته ، وهو تحريف .

(٥) في « اللسان » : « والدين : العادة والشأن ، تقول العرب : ما زال ذلك ديني وذيتني أى

عادتي » .

كثيرا بين الحرف المشدّد وحرف المثل^(١) ، كما يُقال : تَقْضِي البَازِي وتَقْضُضْ ،
ويُقال : تَسْرَر وتَسْرِي^(٢) .

ودان : يكون من الأعلى القاهر ، ويكون من المطيع . يُقال : دِنْتُهُ فدان ،
أى : قهرتُهُ فذلٌّ . كما قال :

هُوَ دَانَ الرَّيَابَ^(٣) إِذْ كَرِهَهُ الدَّيْنَنَ ، دِرَاكًا بَعَزَةَ وَصِيَالَ^(٤)

ويُقال فى الأعلى^(٥) : « كما تدين تدان » . وأما دين المطيع فيستعمل متعديا
ودائما ولازما ، يقال : دنت الله ، ودنت لله . ويقال : فلان لا يدين الله ديننا ، ولا يدين
الله ، لأن فيه معنى الطاعة والعبادة ومعنى الذل . فإذا قيل : دان الله فهو قولك : أطاع
الله ، وأحبه ، وإذا قيل : دان الله ، فهو كقولك : ذلُّ الله ، وخشع لله .

وقد ذكرت أن اسم العبادة يتناول غاية الحب بغاية الذل ، وهكذا الدين

(١) كلمة « المثل » غير منقوطة فى الأصل ، وكتب فوقها كلمة « كذا » .

(٢) فى الأصل : تسورّ وتسرى ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : الذباب ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : فأضحوا بعزة وصيال . وفى « لسان العرب » مادة « دين » : قال الأعشى يمدح

رجلا :

هُوَ دَانَ الرَّيَابَ ، إِذْ كَرِهَهَا الدَّيْنَنَ دِرَاكًا بَعَزَةَ وَصِيَالَ
ثم دانت بعدُ الرَّيَابُ ، وكانت كعذاب عُقُوبَةَ الأَقْوَالِ

قال : هو دانَ الرباب يعنى أذلها ، ثم قال دانت بعدُ الربابُ ، أى ذلت له وأطاعته ، والدين لله من
هذا إنما هو طاعته والتعبّد له . ودانهُ ديننا أى أذله واستعبده . يقال : دِنْتُهُ فدانٍ .

والبيت فى « ديوان الأعشى » ، ص ١٢ ، القصيدة الأولى ، تحقيق رودلف جاير ، ط . فيينا ،
١٩٢٧ . وجاء فى رواية للبيت : بعزة وصيال .

(٥) فى الأعلى : كذا بالأصل ، ولعل الصواب : فى المثل .

الذى يدين به الناس فى الباطن والظاهر لابد فيه من الحب والخضوع ، بخلاف طاعتهم للملوك ونحوهم ، فإنها قد تكون خضوعاً ظاهراً فقط .

والله سبحانه وتعالى سَمَّى يوم القيامة يوم الدين ، كما قال : ﴿ مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [سورة الفاتحة : ٤] ، وهو كما روى عن ابن عباس وغيره من السلف : « يوم يدين الله العباد بأعمالهم إن خيراً فخييراً ، وإن شراً فشرّاً » (١) . وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم .

فهذا من قال : هو يوم الحساب ويوم الجزاء ، فقد ذكر بعض صفات الدين ، قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالَّذِينَ . وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ . إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ . يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ . وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ . ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ . يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ [سورة الانفطار : ٩ - ١٩] .

/ وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ . تُرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [سورة الواقعة : ٨٦ ، ٨٧] ، أى : مقهورين ، ومدبرين ، ومجزين (٢) .

ظ ١٥٣

(١) فى الأصل : إن خيراً فخييراً ، وإن شراً فشر . وهذا الأثر فى تفسير الطبرى (ط . المعارف) ١٥٦/١ : ... عن عبد الله بن عباس : (يوم الدين) ، قال : يوم حساب الخلائق ، وهو يوم القيامة ، يدينهم بأعمالهم ، إن خيراً فخييراً ، وإن شراً فشرّاً ، إلا من عفا عنه ، فالأمر أمره . ثم قال : (ألا له الخلق والأمر) [سورة الأعراف : ٥٤] .

(٢) يقول ابن الجوزى فى تفسيره « زاد المسير » ١٥٥/٨ - ١٥٦ : « قوله تعالى : (غير مدنين) فيه خمسة أقوال . أحدها : محاسين ، رواه الضحاك عن ابن عباس وبه قال الحسن وابن جبير وعطاء وعكرمة . والثانى : موقنين ، قاله مجاهد . والثالث : مبعوثين ، قاله قتادة . والرابع : مجزين . ومنه يقال : دنته ، وكأ تدين تدان ، قاله أبو عبيدة . والخامس : مملوكين أذلاء ، من قولك : دنت له بالطاعة ، قاله ابن قتيبة . »

لا بد لكل طائفة
من بنى آدم من
دين يجمعهم

وإذا كان كل عمل عن محبة وإرادة ، والترك يكون عن بغض وكراهة - وكل أحد همًّا حارث له حب وبغض ، لا يخلو الحى عنهما (١) ، وعمله يتبع حبه وبغضه ، ثم قد يكون ذلك في أمور هي له عادة وخلق ، وقد يكون في أمور عارضة لازمة - عُلِمَ أن [كل] (٢) طائفة من بنى آدم لا بد لهم من دين يجمعهم ، إذ لا غنى لبعضهم عن بعض ، وأحدهم لا يستقل بجلب (٣) منفعته ودفع مضرتة ، فلا بد من إجتماعهم ، وإذا اجتمعوا فلا بد أن يشتركوا في اجتلاب ما ينفعهم كلهم ، مثل طلب نزول المطر ، وذلك محبتهم له ، وفي دفع ما يضرهم مثل عدوهم ، وذلك بغضهم له ، فصار ولا بد أن يشتركوا في محبة شيء عام ، وبغض شيء عام ، وهذا هو دينهم المشترك العام .

وأما اختصاص كل منهم بمحبة ما يأكله ويشربه وينكحه ، وطلب ما يستره (٤) باللباس ، فهذا يشتركون في نوعه لا في شخصه . بل كل منهم يحب نظير ما يحبه الآخر لا عينه ، بل كل منهم لا ينتفع في أكله وشربه ونكاحه ولباسه بعين ما ينتفع به الآخر ، بل بنظيره .

وهكذا هي الأمور السماوية في الحقيقة ، فإن عين المطر الذى ينزل في أرض هذا ، ليس هو عين الذى ينزل في أرض هذا ، ولكن نظيره ، ولا عين (٥) الهواء البارد الذى يصيب جسد أحدهم ، قد لا يكون نفس عين الهواء البارد الذى يصيب جسد الآخر ، بل نظيره .

(١) فى الأصل : عنها .

(٢) زدت « كل » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : جلب .

(٤) فى الأصل : ما يضره ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : ولا من .

لكن الأمور السماوية تقع مشتركة عامة ، ولهذا تعلق حبههم وبغضهم بها عامة مشتركة . بخلاف الأمور التي تعلق بأفعالهم كالطعام واللباس . فقد تقع مختصة وقد تقع مشتركة (١) .

وإذا كان كذلك فالأمور التي يحتاجون إليها يحتاجون أن يوجوبها على أنفسهم ، والأمور التي تضرهم يحتاجون أن يحرموها على نفوسهم ، وذلك دينهم ، وذلك لا يكون إلا باتفاقهم على ذلك ، وهو التعاقد والتعاقد .

الدين هو التعاقد
والتعاقد

ولهذا جاء في الحديث « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » (٢) .

فهذا هو من الدين المشترك بين جميع بنى آدم : من التزام واجبات ومحرمات ، وهو الوفاء والعهد ، وهذا قد يكون باطلا فاسدا ، إذا كان فيه مضرة لهم راجحة على منفعتهم ، وقد يكون دين حق إذا كانت منفعة خاصة أو راجحة .

كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ ﴾ [سورة الكافرون : ١ - ٦] .

وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ [سورة يوسف : ٧٦] (٣) .

(١) في الأصل : فقد يقع مختصا وقد يقع مشتركا .

(٢) الحديث عن أنس بن مالك رضى الله عنه في مسند أحمد (ط . الحلبي) ١٣٥/٣ وأوله : « ... عن أنس بن مالك قال : ما خاطبنا نبي الله ﷺ إلا قال : لا إيمان لمن لا أمانة له » وهو أيضا فيه . ٢٥١ ، ٢١٠ ، ١٥٤/٣ .

(٣) يقول ابن الجوزى في « زاد المسير » ٢٦١/٤ : « في المراد بالدين ها هنا قولان : أحدهما : أنه السلطان ، فالمعنى في سلطان الملك ، رواه العوفى عن ابن عباس . والثاني : أنه القضاء ، فالمعنى في قضاء الملك ، لأن قضاء الملك أن من سرق إنما يُضرب ويُعزَّم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . وانظر تفسير الطبرى للآية (ط . المعارف) ١٨٨/١٦ - ١٩٠ .

/ وقال تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ [سورة التوبة : ٢٩] .

الدين الحق هو
طاعة الله وعبادته

والدين الحق هو طاعة الله وعبادته ، كما بينا أن الدين هو الطاعة المعتادة التي صارت مُخلقا ، وبذلك (١) يكون المطاع محبوباً مراداً (٢) ، إذ أصل ذلك المحبة والإرادة .

ولا يستحق أحد أن يُعبد ويطاع على الإطلاق إلا الله وحده لا شريك [له] (٣) ، ورسله وأولو الأمر أُطيعوا لأنهم يأمرون بطاعة الله ، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه : « من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن أطاع أميري فقد أطاعني ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن عصى أميري فقد عصاني » (٤) .

وأما العبادة فلله وحده ليس فيها واسطة ، فلا يعبد العبد إلا الله وحده ، كما قد بينا ذلك في مواضع ، وبيننا أن كل عمل لا يكون غايته إرادة الله وعبادته فهو عمل فاسد غير صالح ، باطل غير حق ، أى لا ينفع صاحبه .

(١) في الأصل : وذلك .

(٢) في الأصل : محبوب مراد ، وهو خطأ .

(٣) له : ساقطة من الأصل .

(٤) جاء الحديث مختصراً ومطولاً مع اختلاف في الألفاظ عن أنى هريرة رضى الله عنه في : البخارى ٦١/٩ (كتاب الأحكام ، باب قول الله تعالى : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) ؛ مسلم ١٤٦٥/٣ ، ١٤٦٦ (كتاب الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية) ؛ سنن النسائي ١٣٨/٧ (كتاب البيعة ، باب الترغيب في طاعة الإمام) ، ٢٤٣/٨ (كتاب الاستعاذة ، باب الاستعاذة من فتنه المحيا) ؛ سنن ابن ماجة ٤/١ (المقدمة ، باب اتباع سنة رسول الله ﷺ) ، ٩٥٤/٢ (كتاب الجهاد ، باب طاعة الإمام) ؛ المسند (ط . المعارف) ٥٢/١٣ ، ١٧٣ - ١٧٤ ، ٧٦/١٤ ، ٣٩/١٦ ، ٤٠ - ١٧/١٧ ، ٩٥/١٨ (ط . الحلبي) ٤٦٧/٢ ، ٤٧١ ، ٥١١ .

وقد قال سبحانه : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ [سورة البينة : ٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٩٣] .

وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [سورة التوبة : ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ١٦١] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ [سورة التوبة : ١٢٢] .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين » (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ

(١) الحديث عن ابن عباس وأبي هريرة ومعاوية بن أبي سفيان رضى الله عنهم في : البخارى ٢١/١ (كتاب العلم ، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين) ، ٨٤/٤ (كتاب الخمس ، باب قول الله تعالى فإن لله خمس) ، ١٠١/٩ (كتاب الاعتصام ، باب قول النبي ﷺ لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق) ؛ مسلم ٧١٨/٢ ، ٧١٩ (كتاب الزكاة ، باب النهي عن المسألة) ؛ سنن الترمذى ١٣٧/٤ (كتاب العلم ، باب إذا أراد الله بعبد خيرا فقهه في الدين) وقال الترمذى : « وفي الباب عن عمرو وأبي هريرة ومعاوية » ؛ سنن ابن ماجه ٨٠/١ (المقدمة ، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم) ؛ سنن الداريمى ٢٩٧/٢ (كتاب الرقاق ، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين) ؛ المسند (ط . المعارف) ٢٨٢/٤ ، ١٨٠/١٢ (ط . الحلبي) ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ٢٨٢ .

أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ [سورة

البقرة : ٢١٧] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي

اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ الآية [سورة المائدة : ٥٤] .

وهو الدين الحق الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له ، وطاعته وطاعة

رسوله هو الإسلام العام الذي لا يقبل الله ديناً غيره .

كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [سورة آل عمران : ١٩] ، وقال

تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ

الْحَاسِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ٨٥] .

/ وقال تعالى : ﴿ أَفَعَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ

ظ ١٥٤

وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ٨٣] .

وقال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا

إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ

كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ [سورة الشورى : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي

شَيْءٍ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٩] .

فإذا كان لابد لكل آدمي من اجتماع ، ولابد في كل إجتماع من طاعة

ودين ، وكل دين وطاعة لا يكون لله فهو باطل - فكل دين سوى الإسلام فهو باطل . كل دين سوى الإسلام باطل

وأيضاً فلا بد لكل حي من محبوب ، هو منتهى محبته وإرادته ، وإليه تكون

حركة باطنه وظاهره ، وذلك هو إلهه ، ولا يصلح ذلك إلا لله وحده لا شريك

له ، فكل ما سوى الإسلام فهو باطل .

والمتفرقون أيضا فيه ، الذين أخذ كل منهم ببعضه وترك بعضه ، وافتقرت أهواؤهم ، قد برىء الله ورسوله منهم .

ولابد في كل دين وطاعة ومحبة من شيئين : أحدهما : الدين المحبوب لابد في كل دين من شيئين : العقيدة والشريعة أو المعبود والعبادة . المطاع . وهو المقصود المراد .

والثاني : نفس صورة العمل التي تُطاع^(١) ويُعبد بها ، وهو السبيل والطريق والشريعة والمنهاج والوسيلة .

كما قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى : ﴿ لَيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [سورة هود : ٧] قال : أخلصه وأصوبه . قالوا : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل ، [حتى يكون خالصا صوابا]^(٢) ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة .

فهكذا كان الدين يجمع هذين الأمرين : المعبود ، والعبادة . والمعبود إله واحد ، والعبادة طاعته وطاعة رسوله ﷺ ، فهذا هو دين الله الذي ارتضاه ، كما قال تعالى : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [سورة المائدة : ٣] ، وهو دين المؤمنين من الأولين والآخرين ، وهو الدين الذي لا يقبل الله من أحد غيره ، لأنه دين فاسد باطل ، كمن عبد من لا تصلح عبادته ، أو عبد بما لا يصلح أن يعبد به .

ثم مع اشتراك الأولين والآخرين في هذا الدين فيتنازعون في كل منهما ، فإن الله سبحانه له الأسماء الحسنى ، وله المثل الأعلى ، فقد تعرف هذه الأمة من أسمائه تنوع الناس في المعبود وفي العبادة

(١) في الأصل : يطاع .

(٢) ما بين المعقوفتين من كلام الفضيل بن عياض ، وسبق ورود هذا الكلام في المجموعة الأولى ،

وصفاته ما لا تعرف به الأمة الأخرى ، فهم مشتركون في عبادة نفسه ، وإن تنوعوا فيما عرفوه وعبدوه به من أسمائه وصفاته .

وقد رفع الله بعضهم فوق / بعض درجات ، فهذا تنوعهم في المعبود (١) ، ص ١٥٥ وكذلك حالهم في معرفة اليوم الآخر .

وأما تنوعهم في العبادة والطاعة من الأقوال والأفعال ؛ فإنهم متنوعون في ذلك أيضا .

وقد قال تعالى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [سورة المائدة : ٤٨] .
وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الجنائية : ١٨] .

وقال تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُبَازِرِعَنَّكَ فِي الْأَمْرِ ﴾ [سورة الحج : ٦٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ [سورة الحج : ٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيُهَا ﴾ [سورة البقرة : ١٤٨] .

وهذان الأصلان قد جاءت شريعتنا فيهما (٢) بأنواع : فجاءت في أسماء الله وصفاته بأنواع ، وجاءت في صفات العبادات بأنواع . والأصل الأول ينضم إليه اليوم الآخر وما جاء في نعته من الأسماء والصفات والوعد والوعيد .

(١) كتب في أعلى هذه الصفحة إلى اليسار : « الثاني » .

(٢) في الأصل : فيها .

وهذه الأصول الثلاثة : وهى الإيمان بالله ، وباليوم الآخر ، والعمل الصالح ، هى الموجبة ^(١) للسعادة فى كل ملة . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٦٢] .
والشرع ^(٢) ما جاءت به الرسل ، وهو الأصل الرابع .

فإن هذه الأصول الأربعة متلازمة ، والتفرق فى ذلك بالأمر فى بعضه ، والنهى عن بعض ، هو من التفرق والاختلاف الذى ذمه الكتاب والسنة من المختلفين .

ذم الله التفرق
والاختلاف فى
الكتاب والسنة

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اِخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [سورة البقرة : ١٧٦] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ [سورة آل عمران : ١٠٥] .

ولهذا غضب النبى ﷺ لما اختلفوا فى القراءة ، وقال : « كلاهما محسن » ^(٣) .

(١) فى الأصل : هو الموجب .

(٢) فى الأصل : والنوع .

(٣) الحديث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى موضعين فى : البخارى ١٢٠/٣ (كتاب الخصومات ، باب ما يذكر فى الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود) ، ١٧٥/٤ (كتاب الأنبياء ، الباب الأخير : حدثنا أبو إيمان ...) ونصه فى الموضوع الأخير : « ... عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : =

وقال : « إن القرآن نزل على سبعة أحرف فأقرؤوا منه ما تيسر » (١) .
وكذلك غضب لما تنازعا في القدر ، وأخذوا يعارضون بين الآيات معارضة
تفضى إلى الإيمان ببعض دون بعض .

وهذا التفرق والاختلاف يوجب الشرك ، وينافي حقيقة التوحيد الذى هو
إخلاص الدين كله [لله] (٢) ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾
[سورة الروم : ٣٠] ، ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا
كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [سورة الروم : ٣١ ، ٣٢] .

ظ ١٥٥

فإقامة وجهة الدين حنيفا ، وعبادة الله وحده لا شريك له - وذلك يجمع
الإيمان بكل ما أمر الله به وأخبر به - أن يكون الدين كله لله .

= سمعت رجلا قرأ وسمعت النبي ﷺ يقرأ خلفها ، فجئت به النبي ﷺ فأخبرته ، فعرفت في وجهه
الكراهية ، وقال : كلا كما محسن ، ولا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا .

والحديث عن ابن مسعود رضى الله عنه فى : المسند (ط . المعارف) ٣٢٤/٥ - ٣٢٥ ، ٥/٦ ،
٥ - ٦ ، ١٥٥ ، ١٦٩ . وجاء الحديث عن أبى بن كعب رضى الله عنه (وفيه بيان أنه كان هو الرجل
الآخر) فى رواية أنه كان هناك قارىء ثالث (فى المسند ١٢٤/٥ فى عدة روايات .

(١) هذا جزء من حديث طويل عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى : البخارى ١٢٢/٣
(كتاب الخصومات ، باب كلام الخصوم بعضهم فى بعض) ، ١٨٤/٦ - ١٨٥ (كتاب فضائل
القرآن ، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف) ، ١٧/٩ - ١٨ (كتاب المرتدين ، باب ما جاء فى
المتأولين) ، ١٥٨/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : فأقرؤوا ما تيسر من القرآن) ؛ مسلم
٥٦٠/١ (كتاب صلاة المسافرين ، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف) ؛ سنن الترمذى ٢٦٣/٤ -
٢٦٤ (كتاب القراءات ، باب ما جاء أن القرآن أنزل على سبعة أحرف) ؛ سنن أبى داود ١٠١/٢ -
١٠٢ (كتاب الوتر ، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف) ؛ سنن النسائى ١١٦/٢ - ١١٧ (كتاب
افتتاح الصلاة ، باب جامع ما جاء فى القرآن) ؛ المسند (ط . المعارف) ٢٢٤/١ ، ٢٧٤ - ٢٧٥ ،
٢٨٣ - ٢٨٤ . وأول الحديث (البخارى ١٢٢/٣) : « سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه
يقول : سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها فجئت به رسول الله
ﷺ فقلت : إني سمعت هذا يقرأ على غير ما أقرأتها . فقال لى : أرسله . ثم قال : اقرأ الحديث .
(٢) زدت « لله » ليستقيم الكلام .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ
وَكَانُوا شِيْعًا ﴾ ، وذلك أنه إذا كان الدين كله لله حصل الإيمان والطاعة لكل
ما أنزله وأرسل به رسله ، وهذا يجمع كل حق ، ويُجمع عليه كل حق .

وإذا لم يكن كذلك فلا بد أن يكون لكل قول ما يمتازون به ، مثل معظّم
مُطَاع ، أو معبود لم يأمر الله بعبادته وطاعته ، ومثل قول ودين ابتدعوه لم يأذن الله
به ، ولم يشعه ، فيكون كل من الفريقين مشركا من هذا الوجه .

وأيضا ففى قلوب بنى آدم محبة وإرادة لما يتألهونه ويعبدونه ، وذلك هو قوام
قلوبهم وصلاح نفوسهم ، كما أن فيهم محبة وإرادة لما يطعمونه وينكحونه ، وبذلك
تصلح حياتهم ، ويدوم شملهم . وحاجتهم إلى التآله أعظم من حاجتهم إلى
الغذاء ، فإن الغذاء إذا فقد يفسد الجسم ، ويفقد التآله تفسد النفس ، ولن
يصلحهم إلا تآله الله وعبادته وحده لا شريك له ، وهى الفطرة التى فطروا عليها ،
كما قال النبى ﷺ فى الحديث المتفق عليه : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه
يهودانه وينصرانه ويمجسانه » (١) .

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبى ﷺ فيما يروى عن ربه
أنه قال : « إننى خلقت عبادى حنفاء فاجتالهم الشياطين (٢) ، وحرمت عليهم
ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا » (٣) .

لكن أكثر الشرك فى بنى آدم بإيجاد إله آخر مع الله ، ودان بذلك كثير
منهم فى أنواع كثيرة .

(١) جزء من حديث عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) فى الأصل : الشيطان ، وهو تحريف .

(٣) مسلم فى كتاب الجنة وصفه نعيمها باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار .

فصار كل طائفة من بنى آدم لابد لهم من دين لهذين الأمرين : حاجة نفوسهم إلى الإله الذى هو محبوب مطلوب لذاته ولأنه ينفع ويضر ، ولحاجتهم إلى التزام ما يجوبونه من الحاجات ويدفعونه من المضرات .

وهم مشركون فى المحبة للأمر المنزلة : أعيانها وأنواعها ، فهم مشركون فى محبة الإله الذى يعبدونه وتعظيمه ، ومحبة من يبلغ عنه ما يختص به ، ومحبة أوامره ونواهيه . مشركون / فى محبة (١) غير ذلك ، ومشركون أيضا فى محبة جنس (٢) ما التزموه من الواجبات والمحرمات العامة ، التى هى جلب المنفعة لهم جميعا ، ودفع المضرة عنهم جميعا .

فهذه المحبة هى المحبة الدينية ، كحب الدين الذى هم عليه : حقا كان أو باطلا ، وكذلك محبة ما يعين على ذلك ويوصل إليه لأجل ذلك ، فهى (٣) أيضا محبة دينية .

وليس المقصود بالدين الحق مجرد المصلحة الدنيوية من إقامة العدل بين الناس فى الأمور الدنيوية ، كما يقوله طوائف من المتفلسفة فى مقصود النواميس والنبوات : أن المراد بها مجرد وضع ما يحتاج إليه معاشهم فى الدنيا من القانون العدل الذى ينتظم به معاشهم ، لكن هذا قد يكون المقصود فى أديان من لم يؤمن بالله ورسوله من أتباع الملوك المتفلسفة ونحوهم ، مثل : قوم نوح ، ونمرود ، وجنكيزخان (٤) وغيرهم (٥) .

(١) فى الأصل : فى محبته .

(٢) فى الأصل : حسن ، ولعل الصواب ما أثبتته .

(٣) فى الأصل : هى .

(٤) فى الأصل : جنكيسخان ، وأشار إلى الهامش حيث كتب « جنكيز خان » وفوقها كلمة

« صوابه » .

(٥) فى الأصل : وغيرها .

فإن كل طائفة من بنى آدم محتاجون إلى التزام واجبات ، وترك محرمات ، يقوم بها معاشهم وحياتهم الدنيوية . وربما جعلوا مع ذلك ما به يستولون به على غيرهم من الأصناف ويقهرونه ، كفعل الملوك الظالمين مثل جنكيزخان (١) .

فإذا لم يكن مقصود الدين والناموس الموضوع إلا جلب المنفعة في الحياة الدنيا ، ودفع المضرة فيها ، فليس لهؤلاء في الآخرة من خلاق ، ثم إن كان مع ذلك جعلوه ليستولوا به على غيرهم من بنى آدم ويقهرونها ، كفعل فرعون وجنكيزخان (١) ونحوهما ، فهؤلاء من أعظم الناس عذابا في الآخرة .

كما قال تعالى : ﴿ تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نُبَأٍ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة القصص : ٣ ،

ظ ١٥٦

. [٤

وقد قص الله سبحانه قصة فرعون في غير موضع من القرآن ، وكان هو وقومه على دين لهم من دين الملوك ، كما قال تعالى في قصة يوسف : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [سورة يوسف : ٧٦] وهذا الملك كان فرعون يوسف ، وكان قبل فرعون موسى . وفرعون اسم لمن يملك مصر من القبط (٢) ، وهو اسم جنس كقيصر وكسرى والنجاشي ونحو ذلك .

وهؤلاء المتفلسفة الصابئة المبتدعة من المشائين ، ومن سلك مسلكهم من المنتسبين إلى الملل في المسلمين واليهود والنصارى ، يجعلون الشرائع والنواميس

(١) في الأصل : جنكيسخان .

(٢) في « لسان العرب » : « والقبط : جيل بمصر ، وقيل : هم أهل مصر وبنتكها » .

والديانات من هذا الجنس ^(١) ، لوضع قانون تتم به مصلحة الحياة الدنيا ، ولهذا لا يأمر بها بالتوحيد ، وهو عبادة الله وحده ، ولا بالعمل للدار الآخرة ، ولا ينهون فيها عن الشرك ، بل يأمر بها بالعدل والصدق والوفاء بالعهد ، ونحو ذلك من الأمور التي لا تتم مصلحة الحياة الدنيا إلا بها ^(٢) ، ويشرعون التأله للمخلصين والمشركون .

وقد تكلمت على أقسام الديانات في غير هذا الموضع ، وبينت الطبيعي ، والمُلِّي ، والشرعي . وإنما جاء ذكر هذا هنا مطردا .

ولهذا يقيمون النواميس بأنواع من الحيل والسحر والطلسمات ^(٣) ، كما وضعوه في كتب ذلك ، ويقولون في بعض الطيلسم : هذا يصلح لوضع النواميس ، كما ^(٤) تواصلت القرامطة والباطنية ، وكما كان يفعله سحرة فرعون وغيرهم - وآثارهم موجودة بذلك إلى اليوم - وكما يفعله المشركون من الترك والهند في بلادهم .

(١) في الأصل : الجيش ، وهو تحريف .

(٢) في الأصل : ابياً ، وهو تحريف .

(٣) في « شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل » لشهاب الدين الخفاجي : مادة « طلسم » : « طلسم : لفظ يوناني لم يعربه من يوثق به ، وكونه مقلوبا من مسلط وهم لا يعتد به . وفي « السر المكتوم » : هو عبارة عن علم بأحوال تمزيج القوى الفعالة السماوية بالقوى المنفعلة الأرضية لأجل التحكمن من إظهار ما يخالف العادة والمنع مما يوافقها . انتهى » وانظر الصفدية ٦٦/١ . وفي « دستور العلماء » لعبد النبي بن عبد الرسول الأحمديكري (ط . حيدر آباد) ٢٧٨/٢ : « الطلسم علم يتعرف منه كيفية تمزيج القوى العالية الفعالة بالساقطة المنفعلة ليحدث عنها أمر غريب في عالم الكون والفساد . واختلف في معنى الطلسم . والمشهور أقوال ثلاثة : الأول : أن الطل بمعنى الأثر فالعنى أثر اسم . الثاني : أنه لفظ يوناني معناه : عقد لا ينحل . الثالث : أنه كناية عن مسلط . وعلم الطلسمات أسرع تناولا من علم السحر وأقرب مسلكا ، وللسكاكي في هذا الفن كتاب جليل القدر عظيم الخطر » .

(٤) في الأصل : وكما .

والمتفلسفة الصابغة تجعل ذلك جنسا لما بُعثت به الرسل من الآيات ،
ويجعلون موسى والسحرة والذين عارضوه من جنس واحد .

وهؤلاء كما قال تعالى فيهم : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] هم مقرون بأن منفعة ذلك لا تكون في الآخرة ، وإنما يرجون منفعته في الدنيا ، وإن كان فيه بلوغ بعض الأعراس من رئاسة أو شهوة (١) .

فهو كما قال الله تعالى : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] إذ ما فيه من المصرة يربو (٢) على ما فيه من الخير (٣) . قال الله تعالى : ﴿ وَكَلِمَاتُ اللَّهِ أَكْرَمُ مِنْ شَيْءٍ مِمَّا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٣] ، ولهذا كان ما نبى عنه من هذا الجنس إنما هو / لكون الضرر فيه أغلب من المنفعة ، فأما ما ينفع الناس فلم ينه الله عنه .

ولهذا لما عرض على النبي ﷺ الرق (٤) قال : « من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل » (٥) وقال : « لا بأس بالرق ما لم يكن فيه شرك » (٦) .

ص ١٥٧

(١) توجد في أعلى الصفحة كلمات كتب بعضها فوق بعض غير واضحة وكأنها : « لدى غير الله شر كبير كله » .

(٢) في الأصل : يزكى ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٣) في الأصل : الحط ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٤) في الأصل : الرقا .

(٥) ورد الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه في موضعين في : مسلم ١٧٢٦/٤ (كتاب

السلام ، باب استحباب الرقية من العين ...) . وجاء الحديث أيضا عنه في المسند (ط . الحلبي) ٣٠٢/٣ ، ٣٣٤ ، ٣٨٢ ، ٣٩٣ .

(٦) في الأصل : شر ، وهو تحريف . والحديث عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه في :

مسلم ١٧٢٧/٤ (كتاب السلام ، باب لا بأس بالرق ما لم يكن فيه شرك) ؛ سنن أبي داود ١٥/٤ (كتاب الطب ، باب ما جاء في الرق) .

وذكر البخارى فى صحيحه فى استخراج السحر عن قتادة قال : « قلت لسعيد بن المسيب : رجل به طب أو يُؤخَذُ عن امرأته : أَيَحُلُّ عنه أو يُنَشَّرُ ؟ قال : لا بأس به ، إنما يريدون به الإصلاح ، فأما ما ينفع الناس فلم يُنَّه عنه (١) .

فصل

وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل ، وهو (٢) أصل الأعمال الحب أصل كل عمل الدينية وغيرها ، وأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله ، كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله ، فالتصديق بالحببة هو (٣) أصل الإيمان ، وهو قول وعمل ، كما قد بيَّن فى غير هذا الموضع .

ومعلوم أن قوة (٤) المحبة لكل محبوب يتفاوت الناس فيها تفاوتاً عظيماً ،

(١) جاء هذا الأثر فى : البخارى ١٣٧/٧ (كتاب الطب ، باب هل يستخرج السحر) . وقال ابن حجر فى : فتح البارى ٢٣٣/١٠ : « عن قتادة عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يرى بأساً إذا كان بالرجل سحر أن يمشى إلى من يطلق عنه ، فقال : هو صلاح . قال قتادة : وكان الحسن يكره ذلك يقول : لا يعلم ذلك إلا ساحر . قال : فقال سعيد بن المسيب : إنما نهى الله عمَّا يضر ولم ينه عمَّا ينفع . وقد أخرج أبو داود فى « المراسيل » عن الحسن رفعه : « النشرة من عمل الشيطان » ووصله أحمد وأبو داود بسند حسن عن جابر . قال ابن الجوزى : « النشرة حل السحر عن المسحور ، ولا يكاد يقلر عليه إلا من يعرف السحر . وقد سئل أحمد عن يطلق السحر عن المسحور ، فقال : لا بأس به قوله : (به طب) بكسر الطاء أى سحر ، وقد تقدم توجيهه . قوله : (أو يؤخَذُ) بفتح الواو مهموز وتشديد الحاء المعجمة وبهذا معجمة : أى يحبس عن امرأته ولا يصل إلى جماعها . والأخفة بضم الهزرة : هى الكلام الذى يقوله الساحر . وقيل : خرزة يرق عليها ، أو هى الرقعة نفسها . قوله : (أو يُحَلُّ عنه) بضم أوله وفتح المهملة . قوله : (أو يُنَشَّرُ) بتشديد المعجمة من النشرة بالضم ، وهى ضرب من العلاج يعالج به من يظن أن به سحراً أو مساً من الجن ، قيل لها ذلك لأنه يكشف بها عنه ما خالطه من الداء .

(٢) فى الأصل : وهى .

(٣) فى الأصل : هى .

(٤) كلمة « قوة » غير واضحة فى الأصل ، وكلنا استظهرتها .

ويتفاوت حال الشخص الواحد في محبة (١) الشيء الواحد ، بحيث يقوى الحب تارة ويضعف تارة ، بل قد يتبدل أقوى [الحب] (٢) بأقوى البغض وبالعكس .

قال تعالى : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ إلى قوله : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ﴾ [سورة المنتحة : ١ - ٤] ، وإبراهيم هو إمام الحنفاء الذين يحبهم الله ويحبونه ، وهو خليل الله .

وقال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الشعراء : ٧٥ - ٧٧] .

وقال تعالى أيضا : ﴿ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٦] وقال بعد ذلك : ﴿ إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٩] .

وقد قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] .

ولا ريب أن محبة المؤمنين لربهم أعظم المحبات ، وكذلك محبة الله لهم هي محبة عظيمة جدا ، كما في صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « يقول الله تعالى : من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة ، وما تقرب إلى عبدى

(١) فى الأصل : المحبة .

(٢) فى الأصل : أقوى ، وفوقها : كذا . ورأيت أن إثبات كلمة « الحب » يستقيم به الكلام .

بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى (١) يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى ، ولئن سألتنى لأعطينه ، ولئن (٢) استعاذنى لأعيذته ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولا بد له منه » (٣) .

وقد تأول الجهمية - ومن اتبعهم من أهل الكلام - محبة الله لعبده على أنها الإحسان إليه ، فتكون من الأفعال .

تأويل طوائف من
المسلمين للمحبة
تأويلات خاطئة

وطائفة أخرى من الصفاتية قالوا : هى إرادة / الإحسان . وربما قال كلا من القولين بعض المنتسبين إلى السنة من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم .
وسلف الأمة وأئمة السنة على إقرار المحبة على ما هى عليه .

وكذلك محبة العبد لربه يفسرها كثير من هؤلاء بأنها إرادة العبادة له ، وإرادة التقرب إليه ، لا يشبتون أن العبد يحب الله .

وسلف الأمة ، وأئمة السنة ، ومشايخ المعرفة ، وعامة أهل الإيمان : متفقون على خلاف قول هؤلاء المعطلة لأصل الدين ، بل هم متفقون على أنه لا يكون شيء من أنواع المحبة أعظم من محبة العبد ربه .

كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] ، وقال

(١) فى الأصل : الذى .

(٢) فى الأصل : ولا .

(٣) مضى هذا الحديث من قبل فى هذه المجموعة (ص ٢٧ الصفات ١٠٧ شرح) .

تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [سورة المائدة : ٥٤] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرَضُّونَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ [سورة التوبة : ٢٤] ، فلم يرض [إلا] ^(١) بأن يكون الله ورسوله أحب إليهم من الأهلين والأموال ، حتى يكون الجهاد في سبيل الله الذى هو من كمال الإيمان .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [سورة الحجرات : ١٥] . ولهذا وصف الله المحبِّين له الذين يحبهم هو بالجهاد ، فقال تعالى : ﴿ مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ [سورة المائدة : ٥٤] .

وأما تنازع الناس في لفظ « العشق » فمن الناس من أهل التصوف والكلام وغيرهم من أطلق هذا اللفظ في حق الله ، كما روى عبد الواحد بن زيد ^(٢) فيما يؤثره عن [أحد أنبياء] الله ^(٣) أنه قال : « عشقنى وعشقتة » .

تنازع الناس في لفظ « العشق »

(١) زدت « إلا » ليستقيم الكلام .

(٢) عبد الواحد بن زيد البصرى صوفى وواعظ لحق الحسن البصرى وغيره ، متروك الحديث ، وقال البخارى : عبد الواحد صاحب الحسن تركوه ، وقال الجوزجاني : سبى المذهب ليس من معادن الصدق . توفى سنة ١٧٧ . انظر ترجمته وأقواله في : العبر ٢٧٠/١ ؛ شذرات الذهب ٢٨٧/١ ؛ ميزان الاعتدال ٦٧٢/٢ - ٦٧٣ ؛ لسان الميزان ٨٠/٤ - ٨١ ؛ حلية الأولياء ١٥٥/٦ - ١٦٥ ؛ الطبقات الكبرى ٣٩/١ - ٤٠ .

(٣) في الأصل : يبارره (غير منقوطة) عن الله . ولعل الصواب ما أثبتته . وانظر كلام ابن تيمية بعد قليل (ص ٢٤٠) .

وقال هؤلاء : العشق هو المحبة الكاملة التامة ، وأولى الناس بذلك هو الله ، فإنه هو الذى يجب أن يُحب أكمل محبة ، وكذلك هو يجب عبده محبة كاملة .
ولو قيل : إن العشق هو منتهى المحبة أو أقصاها ، أو نحو ذلك ، فهذا المعنى حق من العبد ، فإنه يجب ربه منتهى المحبة وأقصاها ، والله يجب عبده ، مثل إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم تسليما ، أقصى محبة تكون لعباده ومنتهاهما ، وهما خليلا الله .

كما ثبت فى الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله قد اتخذنى خليلا ، كما اتخذ إبراهيم خليلا » (١) . وقال : « لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لآخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الله » (٢) .

وذهب طوائف من أهل العلم والدين إلى إنكار ذلك فى حق الله . ولا ريب أن هذا اللفظ ليس مأثوراً عن أئمة السلف .

والذين أنكروه لهم من جهة اللفظ / مأخذان ، ومن جهة المعنى مأخذان :
ص ١٥٨

منكرو لفظ العشق لهم

من جهة اللفظ مأخذان

ومن جهة المعنى مأخذان

المأخذ الأول من جهة اللفظ

أما من جهة اللفظ : فإن هذا اللفظ ليس مأثوراً عن السلف . وباب الأسماء والصفات يتبع فيها الألفاظ الشرعية ، فلا نطلق [إلا] (٣) ما يرد به الأثر .

(١) ورد هذا الحديث مطولاً عن جندب رضى الله عنه فى مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب النهى عن بناء المساجد على القبور .
(٢) جاءت العبارات الأولى من هذا الحديث إلى قوله : « لآخذت أبا بكر خليلا » جزءاً من أحاديث كثيرة عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم . ولكن الحديث بهذا النص جاء عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى : مسلم ٤/ ١٨٥٥ (كتاب فضائل الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، باب من فضائل أبى بكر الصديق رضى الله عنه) .

(٣) زدت « إلا » ليستقيم الكلام .

والأولون يستدلون بمثل قول عبد الواحد بن زيد ونحوه .

وهؤلاء يقولون : هذا من الإسرائيليات التي لا يجوز الاعتماد عليها في شرعنا ، فإن ثبوت مثل هذا الكلام عن الله لا يُعلم إلا من جهة نبينا ﷺ ، وذلك غير ماثور عنه . ونحن لا نصدِّق بما ينقل عن الأنبياء المتقدمين ، إلا أن يكون عندنا ما يصدِّقه ، كما لا نكذِّب إلا بما نعلم أنه كذب . وقد قال النبي ﷺ : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدِّقوهم ولا تكذِّبوهم ، فإما أن يحدثكم بباطل فتصدِّقوه ، وإما يحدثكم بحق فتكذِّبوه » ^(١) . وهذا الوجه يقتضى الامتناع من الإطلاق ، إلا [عند] ^(٢) الجزم بتحريمه في جميع الشرائع .

المأخذ الثاني : أن المعروف من استعمال هذا اللفظ في اللغة إنما هو في محبة جنس النكاح ، مثل حب الإنسان الآدمي مثله ممن يستمتع به من امرأة

المأخذ الثاني

(١) جاء هذا الحديث بألفاظ مقاربة عن أبي ثملة الأنصاري رضى الله عنه ونصه في : سنن أبي داود ١٤٣٣/٣ (كتاب العلم ، باب رواية حديث أهل الكتاب) : « أخبرني ابن أبي ثملة الأنصاري عن أبيه أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ وعنده رجل من اليهود مرَّ بمجنازة ، فقال : يا محمد ، هل تتكلم هذه الجنازة ؟ فقال النبي ﷺ : « الله أعلم » فقال اليهودي : إنها تتكلم . فقال رسول الله ﷺ : « ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدِّقوهم ولا تكذِّبوهم ، وقولوا : آمنا بالله ورسله ، فإن كان باطلا لم تصدِّقوه ، وإن كان حقا لم تكذِّبوه » . وهو في : المسند (ط . الخليلي) ١٣٦/٤ ، موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان لعلى بن أبي بكر الهيثمي (تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة ، ط . السلفية) ص ٥٨ . وضعف الألباني الحديث في « ضعيف الجامع الصغير وزيادته » ٩١/٥ وقال السيوطي : حم (المسند) ، د (سنن أبي داود) ، حب (صحيح ابن حبان) حق (سنن البيهقي) عن أبي ثملة الأنصاري . على أن حديثنا صحيحا مقاربا جاء عن أبي هريرة رضى الله عنه ونصه في : البخاري ١٨١/٣ (كتاب الشهادات ، باب لا يُسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها) : « وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذِّبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل الآية » . وجاء هذا الحديث في مواضع أخرى في : البخاري ٢٠/٦ - ٢١ (كتاب التفسير ، سورة البقرة ، باب قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا) ، ١١١/٩ (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول النبي ﷺ لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء) ، ١٥٧/٩ (كتاب التوحيد ، باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب العرية) .

(٢) زدت « عند » ليستقيم الكلام .

أو صبي . فلا يكاد يُستعمل هذا اللفظ في محبة الإنسان لولده وأقاربه ووطنه وماله ودينه وغير ذلك ، ولا في محبته لآدمي لغير صورته : مثل محبة الآدمي لعلمه ، ودينه ، وشجاعته ، وكرمه ، وإحسانه ، ونحو ذلك . بل المشهور من لفظ « العشق » هو محبة النكاح ومقدماته ، فالعاشق يريد الاستمتاع بالنظر إلى المعشوق ، وسماع كلامه أو مباشرته بالقبلة والحس والمعانقة أو الوطء ^(١) ، وإن ^(٢) كان كثير من العشاق لا يختار الوطء ، بل يحب [تقبيل ومعانقة] موطوءته ^(٣) ، فهو يحب مقدمات الوطء . ولم يكن اشتغل بالوسيلة عن المقصود .

ثم لفظ « العشق » قد يُستعمل في غير ذلك ، إما على سبيل التواطؤ ^(٤) ، فيكون حقيقة في القدر المشترك ، وإما على سبيل المجاز .

لكن استعماله في محبة الله إما أن يُفهم أو يُوهم المعنى الفاسد ، وهو أن الله يُحب ويُحِب ، كما تحب صور الآدميين التي نستمتع بمعاشرتها ووطنها ، وكما ^(٥) تحب الحور العين التي في الجنة .

وهذا المعنى من أعظم الكفر ، وإن كان قد بلغ إلى هذا الكفر الاتحادية ، الذين يقولون : « إنه عين الموجودات » ^(٦) ، ويقولون : « ما نكح سوى نفسه ، وهو الناكح والمنكوح » ^(٧) .

(١) في الأصل : الوطى .

(٢) في الأصل : إن .

(٣) في الأصل : بل يحب رطوبته ، وكتب فوقها « كذا » . ولعل ما أثبتته يستقيم به الكلام .

(٤) في الأصل : التواطى .

(٥) في الأصل : كما .

(٦) انظر ما سبق في المجموعة الأولى ، ص ١٠٤ - ١٠٥ ، ٢٠٤ .

(٧) انظر ما سبق ١/١٦٥ .

وكذلك الذين يقولون بالخلول العام ، / والذين يقولون بالاتحاد في صور معينة (١) ، أو بخلوله فيها (٢) ، كما يقوله الغالية من النصارى والرافضة وغالية النسك ، فإن هؤلاء يصفونه بما يوصف به البشر من النكاح ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، هو الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

ومن هؤلاء من يعشق الصور الجميلة ، ويزعم أنه يتجلى فيها (٣) ، وأنه إنما يحب مظاهر جماله . وقد بسطنا الكلام في كفرهم وضلالهم (٤) في غير هذا الموضوع . فمن زعم أن الله يحب أو يعشق وأشار إلى هذا المعنى ، فهو أعظم كفرا من اليهود والنصارى .

وأما المأخذ المعنوي : فهو أن العشق : هل هو فساد في الحب والإرادة ، أو فساد في الإدراك والمعرفة ؟ قيل : إن العشق هو الإفراط في الحب حتى يزيد على القصد الواجب ، فإذا أفرط كان مذموما فاسدا ، مفسدا للقلب والجسم ، كما قال تعالى : ﴿ فَيَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٢] ، فمن صار [مُفْرِطاً صار مريضا] (٥) ، كالإفراط في الغضب والإفراط في الفرح وفي الحزن .

المأخذ المعنوي
قيل إن العشق
فساد في الحب
والإرادة

وهذا الإفراط قد يكون في محبة الإنسان لصورته ، وقد يكون في محبته لغير ذلك ، كالإفراط في حب الأهل والمال ، والإفراط في الأكل والشرب وسائر أحوال

(١) في أعلى هذه الصفحة إلى اليسار كتب عبارة كأنها « أصحاب الإمام كذلك التقرب » .

(٢) في الأصل : أو ما كوله فيها ، وهو تحريف . وأحسب أن الصواب ما أثبتته .

(٣) في الأصل : أنه يتلجى ، وهو تحريف . والمقصود أنهم يقولون إن الله تعالى يتجلى في الصور

الجميلة .

(٤) في الأصل : وطلالهم .

(٥) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .

الإِنسان ، وهذا المعنى ممتنع في حق الله من الجهتين ، فإن الله لا يُحِبُّ محبة زيادة على العدل . ومحبة عباده المؤمنين له ليس لها حد تنتهى إليه ، حتى تكون الزيادة إفراطا وإسرافا ومجازة للقصد . بل الواجب أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه منه كما يكره أن يلقى في النار » وفي رواية في الصحيح « لا يجد عبد / حلاوة الإيمان حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » إلى آخره (١) ، وقال : « والذي نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » (٢) .

ص ١٥٩

وفي الصحيح أن عمر قال له : يا رسول الله والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسى ، فقال : « لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك » ، قال : فلأنت أحب إلى من نفسى ، قال : « الآن يا عمر » (٣) .

وقد تقدم دلالة القرآن على هذا الأصل بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرَضُّونَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ [سورة التوبة : ٢٤] .

وقيل إن العشق
فساد في الإدراك
والتخيل والمعرفة

وقيل : إن العشق هو فساد في الإدراك والتخيل والمعرفة ؛ فإن العاشق يخيل

- (١) مضى هذا الحديث من قبل في هذه القاعدة ، ص (١٢) .
- (٢) مضى هذا الحديث من قبل في هذه القاعدة ، ص (١٢) .
- (٣) مضى هذا الحديث من قبل في هذه القاعدة ، ص (١٢) .

له المعشوق على خلاف ما هو به حتى يصيبه ما يصيبه من داء العشق ، ولو أدركه على الوجه الصحيح لم يبلغ إلى حد العشق ، وإن حصل له محبة وعلاقة .

ولهذا يقول الأطباء : العشق مرض وسواسي شبيه بالمالنخوليا ، فيجعلونه من الأمراض الدماغية التي تفسد التخيل كما يفسده المالنخوليا .

وإذا كان الأمر كذلك امتنع في حق الله من الجانين . فإن الله بكل شيء عليم . وهو سميع بصير ، مقدّس منزّه عن نقص أو خلل في سمعه وبصره وعلمه . والمحبون (١) له عبادة المؤمنون الذين آمنوا به وعرفوه بما تعرّف به إليهم من أسمائه وآياته ، وما قذفه في قلوبهم من أنوار معرفته ، فليست محبتهم إياه عن اعتقاد فاسد .

لكن قد يقال : إن كثيرا (٢) ممن يكون فيه نوع محبة لله ، قد يكون معها اعتقاد فاسد ، إذ الحب يستتبع الشعور ، لا يستلزم صريح المعرفة ، لا سيما من كان من عقلاء الجانين ، الذين عندهم محبة لله وتآله ، وفيهم فساد عقل ، فهؤلاء قد يصيب أحدهم ما يصيب العشاق في حق الله ، ومعهم حب شديد ، ونوع من الاعتقاد والفساد .

وكثيرا (٣) ما يعترى أهل المحبة من السكر والفناء ، أعظم ما يصيب السكران بالخمير ، والسكران بالصور ، كما قال تعالى في قوم لوط : ﴿ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [سورة الحجر : ٧٢] ، فالحب له سكر أعظم من سكر الشراب ، كما قيل :

(١) في الأصل : والمحبوب . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبتته .

(٢) في الأصل : كثير ، وهو خطأ .

(٣) في الأصل : وكثير .

سُكْرَانٍ : سكر هوىً وسكر مدامة ومتى إفاقة من به سكران

ومعلوم أنه في حال السكر والفناء تنقص المعرفة والتمييز ، ويضطرب العقل والعلم ، / فيحصل في ضمن ذلك من الاعتقادات والتخيلات الفاسدة ، ما هو من جنس العشق الذى فيه فساد الاعتقاد .

وهؤلاء محمودون على ما معهم من محبة الله والأعمال الصالحة والإيمان به ، وأما ما معهم من اعتقاد فاسد وعمل فاسد لم يشرعه الله ورسوله ، فلا يُحمدون على ذلك . لكن إن كانوا مغلوبين على ذلك ، بغير تفريط (١) منهم ولا عدوان ، كانوا معذورين ، وإن كان ذلك لتفريطهم فيما أمروا به ، وتعديهم حدود الله ، فهم مذنبون في ذلك ، مثل ما يصيب كثيرا ممن يهيج حبه عند (٢) سماع المكاء والتصديّة والأشعار الغزلية ، فتتولد لهم أنواع من الاعتقادات والإزادات التى فيها الحق والباطل ، وقد يغلب هذا تارة وهذا تارة .

فباب محبة الله ضل فيه فريقان من الناس : فريق من أهل النظر والكلام والمنتسبين إلى العلم ، جحدوها وكذبوا بحقيقتها .

وفريق من أهل التبعّد والتصوف والزهد ، أدخلوا فيها من الاعتقادات والإزادات الفاسدة ما ضاهوا (٣) بها المشركين .

فالأولون يشبهون المستكبرين . وهؤلاء يشبهون المشركين .

ولهذا يكون الأول في أشباه اليهود ، ويكون الثانى في أشباه النصارى .

وقد أمرنا الله تعالى أن نقول : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمَسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ .

(١) فى الأصل : تفرط .

(٢) فى الأصل : عن .

(٣) فى الأصل : طاهو ، وهو تحريف .

فصل

ومن المعلوم أن كل محبة وبغضة فإنه يتبعها لذة وألم ، ففي نيل المحبوب لذة ، وفراقه يكون فيه ألم ، وفي نيل المكروه ألم ، وفي العافية منه تكون فيه لذة . فاللذة تكون (١) بعد إدراك المشتى (٢) ، والمحبة تدعو (٣) إلى إدراكه .

كل محبة وبغضة
يتبعها لذة وألم

فالحجة : العلة الفاعلة لإدراك الملائم المحبوب المشتى . واللذة والسرور هي

الغاية .

واللذات الموجودة في الدنيا ثلاثة أجناس : فجنس بالجسد تارة : كالأكل والنكاح ونحوهما مما يكون بإحساس الجسد ، فإن [أنواع] (٤) المأكول والملبوس يباشرها الجسد .

اللذات ثلاثة أجناس
الأول : اللذة
الحسية

و [جنس] يكون (٥) مما يتخيله ويتوهمه بنفسه ونفس غيره ، كالمدح له ، والتعظيم له ، والطاعة له . / فإن ذلك لذيد محبوب له ، كما أن فوات الأكل والشرب يؤلمه ، وأكل ما يضره يؤلمه . وكذلك فوات الكرامة - بحيث لا يكون له قدر عند أحد ولا منزلة - يؤلمه ، كما يؤلمه ترك الأكل والشرب . ويؤلمه الذم والإهانة ، كما يؤلمه الأكل والشرب الذى يضره .

الثاني : اللذة الرومية
ص ١٦٠

فالمأكل والمنكوح هي أجساد تُنال بالجسد ، يتلذذ بوجودها ، ويتألم بفقدائها ولحصول ما يضر منها (٦) . وأما الكرامة فهي في النفوس إذا كانت النفوس

(١) في الأصل : يكون .

(٢) في الأصل : المنتهى ، وهو تحريف .

(٣) في الأصل : يدعوا .

(٤) زدت « أنواع » ليستقيم الكلام .

(٥) في الأصل : ويكون .

(٦) في الأصل : ما يصير منها .

ملائمة له وموافقة له ، بأن يعتقد فيه ما يسره ويوافق به المحبة والتعظيم ، كان ذلك مما يوجب لذته ، ولذته بإدراكه ذلك الملائم من الناس ، ومدحهم المظهر لاعتقادهم ، ومن طاعتهم وموافقتهم المظهرة لمحبتهم ^(١) وتعظيمهم .

والجنس الثالث أن يكون ما يعلمه بقلبه وروحه ويعقله كذلك ^(٢) ، الثالث : اللذة العقلية كالتناذ ^(٣) بذكر الله ، ومعرفته ، ومعرفة الحق ، وتألمه بالجهل : إما البسيط ^(٤) ، وهو عدم الكلام والذكر ، وإما المركب وهو اعتقاد الباطل ، كما يتألم الجسد بعدم غذائه ^(٥) تارة ، وبالتغذى بالمضار أخرى .

كذلك النفس تتألم بعدم غذائها ^(٦) ، وهو ^(٧) موافقة الناس وإكرامهم تارة ، وبالتغذى ^(٨) بالضد ، وهو ^(٩) مخالفتهم وإهانتهم . فكذلك القلب يتألم بعدم غذائه ، وهو العلم ^(١٠) الحق وذكر الله تارة ، والتغذى بالضد ، وهو ذكر الباطل واعتقاده أخرى .

قال النبي ﷺ : « إن كل أحد يحب أن تؤتى مآذبه ، وإن مآذبه الله هي القرآن » ^(١١) .

(١) في الأصل : المظهر ومحبتهم .

(٢) في الأصل : بذلك .

(٣) في الأصل : كالتناذ .

(٤) في الأصل : البسيطة .

(٥) في الأصل : غذاه .

(٦) في الأصل : عذابها .

(٧) في الأصل : وهي .

(٨) في الأصل : وبالتغذى .

(٩) في الأصل : وهي .

(١٠) في الأصل : المعلم .

(١١) لم أجد حديثاً بهذه الألفاظ ، ولكنني وجدت أثراً عن عبد الله بن مسعود في : سنن الدارمي =

وهذه اللذات الثلاث : اللذات الحسية ، والوهمية ، والعقلية . وقد علمت أن كل ما خلقه الله في الحي من قوى الإدراك والحركة فإنما خلقه لحكمة ، وفي ذلك من جلب المنفعة للحي ، ودفع المضرة عنه ، ما هو من عظيم نعم الله عليه . والله سبحانه بعث الرسل لتكميل الفطرة وتقريرها ، لا بتحويلها وتغييرها ، وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، والله شرع من الدين ما فيه استعمال هذه القوى على وجه العدل والاعتدال ، الذى فيه صلاح الدنيا والآخرة .

ومن المعلوم أن قوى الحركة في الجسد ، التى هى حركات طبيعية ، متى لم تكن ^(١) على وجه الاعتدال ، وإلا فسد الجسد . وكذلك قوى الإدراك والحركة التى فيه وفي النفس متى لم تكن ^(٢) على وجه الاعتدال ، وإلا فسد الجسد . والحركة الطبيعية ليس فيها حس ولا إرادة ، وهذه / لا تكون عن حركة إرادية كما تقدم ، لكن لا يكون ذلك في نفس المتحرك بطبعه ^(٣) ، كحركة الغذاء قبل أن يصرفه الخارج من السبيلين وغير ذلك .

ظ ١٦٠

= ٤٣٣/٢ (كتاب فضائل القرآن ، باب فضل من قرأ القرآن) ونصه : « عن ابن مسعود قال : ليس من مؤدب إلا وهو يجب أن يؤتى أدبه ، وإن أدب الله القرآن » . وجاءت آثار أخرى عن ابن مسعود منها ما ذكره الدارمى في الموضوع السابق : كان عبد الله يقول : « إن هذا القرآن مأدبة الله ، فمن دخل فيه فهو آمن » . ومنها أثر آخر عنه في سنن الدارمى ٤٢٩/٢ أوله : « إن هذا القرآن مأدبة الله فخذوا منه ما استطعتم » ومنها جزء من أثر طويل جاء في مجمع الزوائد للهيثمى ١٦٤/٧ أوله : وعن عبد الله - يعنى ابن مسعود - قال : « إن هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبة الله ما استطعتم » ، وفي نفس المكان أورد الهيثمى أثرا ثانيا أوله : « وعن أبى الأحوص قال : قال ابن مسعود : هذا القرآن مأدبة الله ، فمن استطاع أن يتعلم منه شيئا فليفعل » .

(١) في الأصل : يكن .

(٢) في الأصل : في من لم يكن .

(٣) في الأصل : بطبيعية .

والله سبحانه قد شرع من هذه اللذات ما فيه صلاح حال الإنسان في الدنيا^(١)، وجعل اللذة التامة بذلك في الدار الآخرة، كما أخبر الله بذلك على ألسن رسله بأنها هي دار القرار، وإليها تنتهي حركة العباد.

شرع الله من اللذات ما فيه صلاح حال الإنسان وجعل اللذة التامة في الآخرة

واللذة هي الغاية من الحركات الإرادية، فتكون الغاية من اللذات عند الغاية من الحركات، ولا يخالف ما يوجد في الوسيلة والطريق، فإن الموجود فيها من اللذات بقدر ما يعين على الوصول إلى المقصود التام، وكل لذة، وإن جلت، هي في نفسها مقصودة لنفسها، إذ المقصود لنفسه هو اللذة. لكن من اللذات ما يكون عوناً على ما هو أكثر منه أيضاً، فيكون مقصوداً لنفسه بقدره، ويكون مقصوداً لغيره بقدر ذلك الغير، وهذا من تمام نعمة الله على عباده، وكل ما يتنعمون به، إذا استعملوه على وجه العدل الذي شرعه، أوصلهم به إلى ما هو أعظم نعمة منه.

ولذات الجنة أيضاً تتضاعف وتتزايد كما يشاء الله تعالى، فإن الله يقول، كما ذكره النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(٢) وقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [سورة السجدة: ١٧].

(١) في الأصل: قد شرع الدنيا من ... في الدنيا. ولعل الصواب ما أثبتته.
 (٢) الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه في صحيح البخارى ١٤٤/٩ (كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى «يريدون أن يبدلوا كلام الله»)، ١١٨/٤ (كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة)، ١١٦/٦ (كتاب تفسير القرآن، باب تفسير سورة تنزيل السجدة). وأول الحديث في هذا الموضع الأخير: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادى.... والحديث في: مسلم ٢١٧٤/٤ (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها) في أربعة مواضع؛ سنن الترمذى ٢٦/٥ (كتاب التفسير، باب تفسير سورة السجدة)؛ سنن ابن ماجة ١٤٤٧/٢ (كتاب الزهد، باب صفة الجنة)؛ سنن الدارمى ٣٣٥/٢ (كتاب الرقائق، باب ما أعد الله لعباده الصالحين)؛ المسند (ط. المعارف) ٤٦/١٧، ١٠٤/١٩.

ولهذا بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين : مبشرين بنعمة الله التامة في جنته لمن أطاعهم ، فاتبع الذكر الذي أنزل عليهم ، واستعمل (١) القسط الذي بعثوا به . ومنذرين بتعظيمهم عقاب الله لمن أعرض عن ذلك وعصاهم فكان من الظالمين .

قال تعالى : ﴿ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [سورة طه : ١٢٣ ، ١٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٣٨ ، ٣٩] .

وقد غلطت المتفلسفة من الصابئة والمشركين ونحوهم ، ومن هذا حذوهم ممن صنّف في أصناف هذه اللذات ، كالرازي (٢) وغيره في أمر هذه اللذات في الدنيا والآخرة ، حتى جرّهم ذلك الغلط إلى الدين الفاسد في الدنيا بالاعتقادات الفاسدة ، والعبادات والزهاديات الفاسدة ، وإلى التكذيب بحقيقة ما أخبر الله به على الألسن رسله من وعده ووعيده ، / فصاروا تاركين لما ينفعهم من لذات الدنيا ، معرضين عما خلقوا له من لذات الآخرة ، ومعتاضين عن ذلك بأخذ ما يضرهم مما يظنون أنه لذة في الدنيا ، أو موصل للذة في الدنيا ، وهم في ذلك : ﴿ إن

غلط المتفلسفة

ومن اتبعهم في أمر هذه اللذات

ص ١٦١

(١) في الأصل : واستعمال .

(٢) لفخر الدين الرازي كتاب « أقسام اللذات » ومنه نسخة خطية في برلين وأخرى في أفغانستان . انظر : محمد صالح الزرکان : فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية ، ص ٧٨ - ٧٩ ، ط . دار الفكر ، بيروت .

يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴿ [سورة النجم : ٢٣] ، فجهلوا المقاصد والوسائل ، فكانوا ضالين يقصدون ما ينفعهم ويلذهم ، وهم لا يعرفون عين مقصودهم ولا الطريق إليه ، وصار عامتهم غواة منهمكين في اللذات التي تضرهم .

والنصارى ضارعوهم في بعض ذلك حين كذبوا بكثير مما وعدوا به في ضل الأنصارى كذلك في أمر اللذات الآخرة من اللذات ، وضلوا بما ابتدعوه من العبادات ، فكانوا ضالين ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [سورة المائدة : ٧٧] ، ولهذا يغلب على عوامهم الغي واتباع شهوات الغي ، إذ لم يحرموا عليهم شيئا من المطاعم والمشارب .

وأما اليهود فهم أعلم بالمقصود وطريقه ، لكنهم غواة قساة ، مغضوب عليهم .

ويتبين ذلك بأصلين : أحدهما أنهم ^(١) اعتقدوا أن اللذات الحسية والوهمية ليست لذات في الحقيقة ، وإنما هي دفع آلام ، وربما حسنا العبارة ^(٢) فقالوا : ليس المقصود بها التمتع ، وإنما المقصود بها دفع الألم ، بخلاف اللذات العقلية الروحانية ، فإنها هي اللذات فقط ، وهي المقصودة ^(٣) لذاتها فقط ، وعن هذا يدفعون أن تكون للنفس بعد مفارقة الدنيا لذات حسية ، أو وهمية ، وإنما يكون لها لذات روحانية فقط .

(١) الكلام فيما يلي على الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام .

(٢) في الأصل : العارة .

(٣) في الأصل : المقصود .

ثم إن من دخل مع أهل الملل منهم وافق (١) المؤمنين بإظهاره للإقرار بما جاءت به الرسل ، وقال : إن ما (٢) أخبرت به الرسل من الوعد والوعيد إنما هو أمثال مضروبة لتفهم العامة المعاد الروحاني ، وما فيه من اللذة والألم الروحانيين ، وربما يغرب بعضهم فأثبت اللذات الخيالية ، بناءً على أن النفوس يمكن أن يحصل لها من إشراق الأفلاك [عليها] (٣) ما يحصل لها به من اللذة ما هو من أعظم اللذات الخيالية ، التي قد يقولون : هي أعظم من الحسية .

الأصل الثاني : / أن اللذات العقلية التي أقرُّوا بها لم تحصل لهم ، ولم يعرفوا الطريق إليها ، بل ظنوا أن ذلك إنما [هو] (٤) إدراك الوجود المطلق بأنواعه وأحكامه ، وطلبوا اللذة العقلية في الدنيا بما هو من هذا النمط من الأمور العقلية ، وتكلموا في الإلهيات بكلام حقه قليل وباطله كثير ، فكانوا طالبين للذة العقلية التي أثبتوها بالأغذية الفاسدة التي تضر وتؤلم ، أكثر من طلبها بالأغذية النافعة ، بل كانوا فاقدين لغذائها الذي لا صلاح لها إلا به ، وهو إخلاص الدين لله ، بعبادته (٥) وحده لا شريك له ، فإن هذا هو خاصة النفس التي خلقت له ، لا تصلح [إلا] (٦) به ، ولا تفسد (٧) فساداً مطلقاً مع وجوده قط ، بل من بات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة .

ظ ١٦١

كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال من وجوه متعددة - من

- (١) في الأصل : باسو (بدون نقط) ولعل الصواب ما أثبتته . والكلام هنا على الفلاسفة .
- (٢) في الأصل : وقال بما . ولعل الصواب ما أثبتته .
- (٣) في الأصل : يمكن أن يجعل لها من احترام الأفلاك ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبتته .
- (٤) زدت « هو » ليستقيم الكلام .
- (٥) في الأصل : بعباده .
- (٦) زدت « إلا » ليستقيم الكلام .
- (٧) في الأصل : يفسد .

حديث عثمان بن عفان ، وأبي ذر ، ومعاذ بن جبل ، وأبي هريرة وعثمان بن مالك ، وعبادة بن الصامت ، وغيرهم - : ولا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد ، بل يخرج من النار من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان أو مثقال شعيرة من إيمان أو مثقال ذرة من إيمان (١) .

وقد تكلمت على رسالة المبدأ والمعاد التي صنفها أبو علي بن سينا (٢) ، وزعم أن فيها من الأسرار المخزونة من فلسفتهم بما يناسب هذا مما ليس هذا موضعه ، وبينت ما دخل عليهم من الجهل والكفر في ذلك من وجوه بيّنة من لغاتهم ومعارفهم التي يفقهون بها ، ويعلمون صحة ما عليه أهل الإيمان بالله ورسوله ، وبطلان ما هم عليه مما يخالف ذلك من الحقيقة ، وإن زعموا أنهم موافقون لأهل الإيمان .

نعم هم مؤمنون ببعض ، وكافرون ببعض ، كما قد بيّنت أيضاً مراتب ما معهم ومع غيرهم من الكفر والإيمان في غير هذا الموضع ، وذكرت ما كفروا به مما خالفوا به الرسل ، وما آمنوا به مما وافقوهم [فيه] (٣) .

(١) جاءت أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ فيها تصديق لما ذكره ابن تيمية هنا . انظر مثلاً قوله ﷺ من حديث أنس بن مالك : « فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه ... فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه ... » في : البخارى ١٣٠/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى وجوه يومئذ ناضرة) وهو بمعناه في مسلم ١٦٩/١ - ١٧٠ (كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية) . وانظر قوله ﷺ من حديث آخر لأنس بن مالك : « فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها ... » في : مسلم ١٨٣/١ (كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها) . وانظر : المسند (ط . المعارف) ٢٤٣/٤ ، (ط . الحلبي) ١٧/٣ ، ٩٤ - ٩٥ ، ١١٦ ، سنن ابن ماجه ٢٣/١ ، ١٤٤٣/٢ .

(٢) وهى « الرسالة الأضحوية في أمر المعاد » حققها الدكتور سليمان دنيا ، ط . دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٤٩/١٣٦٨ وقد تكلم عليها ابن تيمية في « درء تعارض العقل والنقل » انظر ج ١ ص ٩ ، ج ٥ ص ١٠ - ١٧ ، ص ٥٠ .

(٣) زدت « فيه » ليستقيم الكلام .

فإن الله أمرنا بالعدل ، وأمرنا / أن نعدل بين الأمم ، كما قال تعالى لرسوله : ﴿ وَأَمْرٌ لِأَعْدَلٍ بَيْنَكُمْ ﴾ [سورة الشورى : ١٥] ، وقال تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [سورة الحديد : ٢٥] .

فصل

وإذا كان أصل الإيمان العملي هو حب الله تعالى ورسوله ﷺ ، وحب الله أصل التوحيد العملي ، وهو أصل التأليه ، الذى هو عبادة الله وحده لا شريك له ، فإن العبادة أصلها أكمل أنواع المحبة ، مع أكمل أنواع الخضوع ، وهذا هو الإسلام .

حب الله أصل
التوحيد العملي

وأعظم الذنوب عند الله الشرك به ، وهو سبحانه لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، والشرك : منه جليل ودقيق ، وخفى وجلى .

كما فى الحديث : « الشرك فى هذه الأمة أخفى من ديب التمل . فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله : إذا كان أخفى من ديب التمل فكيف نصنع به ؟ أو كما قال ، فقال : ألا أعلمك كلمة إذا قلتها نجوت من قليله وكثيره ؟ قل : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما [لا] (١) أعلم » (٢) .

(١) لا : ساقطة من الأصل ، وزدتها لأنها من ألفاظ الحديث .

(٢) لم أجد حديثاً عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه بهذا المعنى ولكنى وجدت فى مسند الإمام أحمد ٤/٤٠٣ (ط . الحلبي) حديثاً آخر عن أبى موسى الأشعري رضى الله عنه ونصه : « عن أبى على رجل من بنى كاهل قال : خطبنا أبو موسى الأشعري فقال : يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من ديب التمل . فقام إليه عبد الله بن حزن وقيس بن المضارب فقالا : والله لتخرجن مما قلت أو لتأتين عمر =

فمعلوم أن أصل الإشراك العملي بالله الإشراك في المحبة ، قال تعالى : أصل الإشراك العمل بالله الإشراك في المحبة ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] ، فأخبر أن من الناس من يشرك بالله ، فيتخذ أندادا يحبونهم كما يحبون الله ، وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبا لله من هؤلاء ، والمؤمنون أشد حبا لله من هؤلاء لأناداهم والله ، فإن هؤلاء أشركوا بالله في المحبة ، فجعل المحبة مشتركة بينه وبين الأنداد ، والمؤمنون أخلصوا دينهم لله الذي أصله المحبة لله ، فلم يجعلوا لله عدلا في المحبة ، بل كان الله ورسوله أحب إليهم (١) مما سواهما ، ومحبة الرسول هي من محبة الله ، وكذلك كل حب في الله ، وهو الحب لله .

المؤمنون يحبون الله
ويغضون الله

كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان » (٢) وفي رواية في الصحيح « لا يجد حلاوة الإيمان إلا من كان فيه ثلاث خصال : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يلقى في النار » (٣) .

ولهذا / في الحديث : « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى الله ، ومنع الله ،

ظ ١٦٢

= مأذون لنا أو غير مأذون . قال : بل أخرج مما قلت . خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : « يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من ديب الليل » . فقال له من شاء الله أن يقول : وكيف نتقيه وهو أخفى من ديب الليل يا رسول الله ؟ قال : « قولوا : اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلم » .

(١) في الأصل : إليه .

(٢) مضى الحديث من قبل (ص : ١٩٨ ، ٢٤٣) .

(٣) مضى الحديث من قبل (ص : ١٩٨ ، ٢٤٣) .

فقد استكمل الإيمان» (١) وفي الأثر: ما تحاب رجالان في الله إلا كان أفضلهما أشدهما حبا لصاحبه. لأن هذه المحبة من محبة الله، وكل من كانت محبته لله أشد كان أفضل.

وخير الخلق محمد رسول الله ﷺ، وخير البرية بعده إبراهيم، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح، وكل منهما خليل الله.

والخُلَّةُ تتضمن كمال المحبة ونهايتها، ولهذا لم يصلح لله شريك في الخلَّة، بل قال ﷺ في الحديث الصحيح: «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله» (٢) وفي لفظ: «أنا أبرأ إلى كل خليل من خلته» (٣).

فمحببة ما يحبه الله الله من الأعيان والأعمال من تمام محبة الله، وهو الحب في الله والله، وإن كان كثير من الناس يغلط في معرفة كثير من ذلك أو وجوده، فيظن في أنواع من المحبة أنها محبة لله، ولا تكون لله، ويظن وجود المحبة لله في أمور، ولا تكون المحبة لله موجودة، بل قد يعتقد وجود المحبة لله وتكون معدومة، وقد يعتقد في بعض الحب أنه لله، ولا يكون لله، كما يعتقد وجود العلم أو العبادة

(١) الحديث عن أبي أمامة رضى الله عنه في: سنن أبي داود ٣٠٤/٤ (كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه) وهو - بالفاظ مقاربة - عن سهل بن معاذ الجهني عن أبيه في سنن الترمذى ٧٨/٤ (كتاب صفة القيامة، باب منه) وقال الترمذى: هذا حديث منكر حسن. وهو في المسند عنه (ط. الحلبي) ٤٣٨/٣، ٤٤٠. وصححه الألبانى في «صحيح الجامع الصغير» ٢٢٩/٥ وقال: «د (سنن أبي داود) والضياء عن أبي أمامة».

(٢) مضى هذا الحديث من قبل (ص: ٢٣٩).

(٣) الحديث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه في: سنن ابن ماجه ٣٦/١ (المقدمة، باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ) ونصه: قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أبرأ إلى كل خليل من خلته، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، إن صاحبكم خليل الله». قال وكيع: يعنى نفسه.

أو غير ذلك من الصفات في بعض الأشخاص والأحوال ، ولا يكون ثابتا ، وقد يعتقد في كثير من الأعمال أنه معمول لله ، ولا يكون لله .

فمحببة ما يحبه الله من الأعمال الباطنة والظاهرة ، وهي الواجبات والمستحبات : إذا أحببت لله كان ذلك من محبة الله ، ولهذا يوجب ذلك محبة الله لعبده .

وكما في الحديث الصحيح عن الله تعالى : « من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ^(١) ، وبصره الذي يبصر به ^(١) ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، / وبى يمشي ، ولئن سألتني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولا بد له منه » ^(٢) .

ص ١٦٣

وكذلك محبة كلام الله وأسمائه وصفاته ، كما في الحديث الصحيح : في الذي كان يصلّي بأصحابه فيقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ : إما أن يقرأها وحدها ، أو يقرأ بها مع سورة أخرى . فأخبروا بذلك النبي ﷺ ، فقال : « سلوه : لِمَ يفعل ذلك ؟ فقال : لأنى أحبها ، فقال : [إن] حبك [إياها أدخلك الجنة] » ^(٣) .

(١) في الأصل : بها ، وهو تحريف .

(٢) مضى الحديث من قبل (ص : ٢٦ - ٢٧) .

(٣) في الأصل : فقال : حبكا . والصواب ما أثبتته ، وهو لفظ الحديث في سنن الترمذى ٣٤٤/٤ . وقد جمع ابن تيمية هنا بين حديثين الأول عن عائشة رضی الله عنه ونصه في : البخارى ١١٥/٩ (كتاب التوحيد ، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى) : « عن عائشة أن النبي ﷺ بعث رجلا على سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بقل هو الله أحد . فلما =

وكذلك محبة ملائكة الله وأنبيائه وعباده الصالحين ، كما كان عبد الله بن عمر يدعو بالمواقف في حجه فيقول : « اللهم اجعلني أحبك ، وأحب ملائكتك ، وأنبياءك ^(١) وعبادك الصالحين ، اللهم حبيبي إليك وإلى ملائكتك وأنبيائك وعبادك الصالحين » .

بل محبة الله مستلزمة لمحبة ما يحبه من الواجبات كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [سورة آل عمران : ٣١] ، فإن اتباع رسوله هو من أعظم ما أوجبه الله تعالى على عباده وأحبه ، وهو سبحانه أعظم شيء بغضا لمن لم يتبع رسوله . فمن كان صادقا في دعوى محبة الله اتبع رسوله لا محالة ، وكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

محبة الله مستلزمة لمحبة ما يحبه من الواجبات

والذنوب تنقص من محبة الله تعالى بقدر ذلك ، لكن لا تبريل المحبة لله ورسوله إذا كانت ثابتة في القلب ، ولم تكن الذنوب عن نفاق . كما في صحيح البخارى عن عمر بن الخطاب : حديث حمار الذى كان يشرب الخمر ، وكان النبى ﷺ يقيم عليه الحد ، فلما كثر ذلك منه لعنه رجل ، فقال النبى ﷺ :

الذنوب تنقص من محبة الله

= رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال : « سلوه لأى شيء يصنع ذلك ؟ » فسأله ، فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها . فقال النبي ﷺ : أخبروه أن الله يحبه . وهذا الحديث جاء أيضا فى : مسلم ٥٥٧/١ (كتاب صلاة المسافرين وقصرها : باب فضل قراءة قل هو الله أحد) ؛ سنن النسائى ١٣٢/٢ (كتاب الافتتاح ، باب الفضل فى قراءة قل هو الله أحد) . وأما الحديث الثانى فهو عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وقد أورده الترمذى مرتين فى سننه ٢٤٣/٤ - ٢٤٤ ونص الرواية المختصرة : « عن أنس أن رجلا قال : يا رسول الله : إني أحب هذه السورة : قل هو الله أحد . قال : إن حبك إياها أدخلك الجنة » .

(١) فى الأصل : وأنبيائك ، وهو خطأ .

« لا تلعنه ، فإنه يحب الله ورسوله » (١) . وفيه دلالة على أنا منهيون / عن لعنة
أحد بعينه ، وإن كان مذنباً ، إذا كان يحب الله ورسوله .

فكما أن المحبة الواجبة تستلزم لفعل الواجبات ، وكال المحبة المستحبة
تستلزم لكمال فعل المستحبات ، والمعاصي تنقض المحبة ، وهذا معنى قول
الشبلي (٢) لما سئل عن المحبة ، فقال ما غنَّت به جارية فلان :

تعصى الإله وأنت تزعم حبه هذا محال في القياس شنيع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن أحب مطيع (٣)

وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزيني الزاني حين يزيني وهو مؤمن ، ولا يسرق
السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » (٤) وقد
تكلمنا على هذا في غير هذا الموضوع .

(١) الحديث عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه في : البخارى ١٥٨/٨ (كتاب الحدود ، باب
ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة) .
(٢) هو أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي ، من أئمة الصوفية ، ولد سنة ٢٤٧ وتوفى سنة ٣٣٤
ببغداد ، تفقه على مذهب الإمام مالك ، وصحب الجنيد . انظر ترجمته وأقواله في : الرسالة القشيرية
١٤٨/١ - ١٤٩ ؛ صفة الصفوة ٢/٢٥٨ - ٢٦١ (وذكر الخلاف في اسمه واسم أبيه) ؛ حلية الأولياء
١٠/٣٦٦ - ٣٧٥ ؛ طبقات الصوفية ، ص ٣٣٧ - ٣٤٨ ؛ تاريخ بغداد ١٤/٣٨٩ - ٣٩٧ ؛ المنتظم
٦/٣٤٧ - ٣٤٩ ؛ الأعلام ٣/٢٠ - ٢١ .
(٣) نسب أبو حامد الغزالي هذين البيتين إلى عبد الله بن المبارك في الإحياء ١٤/١٠٣ (ط . لجنة
نشر الثقافة الإسلامية ، القاهرة ، ١٣٥٧) ورواهما :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في الفعال بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

ونسب الدكتور محمد مصطفى حلمي رحمه الله البيتين إلى رابعة العدوية في كتابه « الحياة الروحية
في الإسلام ، ص ٧٧ ، ط . عيسى الحلبي ، القاهرة ، ١٩٤٥/١٣٦٤ .
(٤) الحديث عن أبي هريرة رضى الله عنه - مع اختلاف في الألفاظ - في : البخارى ٣/١٣٦ =

والمقصود هنا أن نفرق بين الحب في الله والله ، الذى هو داخل في محبة الله ، وهو من محبته (١) ، وبين الحب لغير الله الذى فيه شرك في المحبة لله ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ [سورة البقرة: ١٦٥] ، فإن هؤلاء يشركون برهبهم في الحب ، عادلون به ، جاعلون له أندادا . وأولئك أخلصوا دينهم لله ، فكان حبهم الذى هو أصل دينهم كله لله ، وهذا هو الذى بعث الله به الرسل ، وأنزل به الكتب ، وأمر بالجهاد عليه .

كما قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [سورة البقرة: ١٩٣] وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ﴾ ص ١٦٤

[سورة التوبة : ٢٤] .

وقد علم أن محبة المؤمنين لرهبهم أشد من محبة هؤلاء المشركين لرهبهم ولأندادهم ، ثم إن اتخاذ الأنداد هو (٢) من أعظم الذنوب ، كما في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال : قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قلت : ثم أى ؟ قال : ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك .

= (كتاب المظالم ، باب النهي بغير إذن صاحبه) ، ١٠٤/٧ (كتاب الأشربة ، باب إنما الخمر والميسر ...) ، ١٥٧/٨ (كتاب الحدود ، باب لا يشرب الخمر) ، ١٦٤/٨ (كتاب الحدود ، باب إثم الزناة) ؛ مسلم ٧٧ ، ٧٦/١ (كتاب الإيمان ، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ...) ؛ سنن أبى داود ٣٠٦/٤ (كتاب السنة ، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه) ؛ سنن الترمذى ١٢٧/٤ (كتاب الإيمان ، باب لا يزنى الزانى وهو مؤمن) ؛ سنن ابن ماجه ١٢٩٨/٢ - ١٢٩٩ (كتاب الفتن ، باب النهي عن التوبة) ؛ سنن الدارمى ١١٥/٢ (كتاب الأشربة ، باب فى التغليظ لمن شرب الخمر) ؛ المسند (ط . المعارف) ٤١/١٣ .

(١) كلمة « محبته » غير واضحة فى الأصل وكذا استظهرتها .

(٢) فى الأصل : هى .

قلت : ثم أى ؟ قال : ثم أن تزانى بجليلة جارك ، فأنزل الله تصديق ذلك : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ [سورة الفرقان : ٦٨] ^(١) ، فدعاء إليه ^(٢) آخر مع الله هو اتخاذ نذ من دون الله ، يحبه كحب الله ، إذ أصل العبادة المحبة .

والمحبة وإن كانت جنسا تحته أنواع ، فالمحوبات المعظمة ^(٣) لغير الله قد أثبت الشارع فيها اسم التعبد ، كقوله ﷺ في الحديث الصحيح : « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، إن أُعطيَ رضى ، وإن مُنع سخط » ^(٤) .

فسمى هؤلاء الأربعة [الذين] إن أعطوا رضوا ، وإن مُنعوا سخطوا - لأنها محبتهم ومرادهم - عباداً لها ^(٥) ، حيث قال : عبد الدرهم ، وعبد الدينار ، وعبد القطيفة ، وعبد الخميصة .

(١) الحديث - بالفاظ متقاربة - عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه في : البخارى ١٨/٦ (كتاب التفسير ، سورة البقرة ، باب قوله تعالى : فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) ، ٨/٨ (كتاب الأدب ، باب قتل الولد خشية أن يأكل معه) ، ١٦٤/٨ (كتاب الحدود ، باب إثم الزناة) ، ١٥٢/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : فلا تجعلوا لله أنداداً) ؛ مسلم ٩٠/١ ، ٩١ (كتاب الإيمان ، باب كون الشرك أقيح الذنوب) ؛ سنن الترمذى ١٧/٥ - ١٨ (كتاب التفسير ، تفسير سورة الفرقان) ؛ سنن أبى داود ٣٩٤/٢ (كتاب الطلاق ، باب في تعظيم الزنا) ؛ سنن النسائى ٨٢/٧ - ٨٣ (كتاب التحريم ، باب ذكر أعظم الذنب) ؛ المسند (ط . المعارف) ٢١٧/٥ ، ٧٦/٦ ، ٨٦ - ٨٧ .

(٢) في الأصل : إلهاً ، وهو خطأ .

(٣) في الأصل : المعظمة ، وهو تحريف .

(٤) الحديث - مع اختلاف في اللفظ - عن أبى هريرة رضى الله عنه في : البخارى ٣٤/٤ (كتاب الجهاد ، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله) ؛ سنن ابن ماجه ١٣٨٦/٢ (كتاب الزهد ، باب في المكثرين) وهو في موضعين .

(٥) في الأصل العبارة مضطربة هكذا : فسمى هؤلاء إن أعطوا رضوا وإن منعوا سخطوا لأنها محبتهم ومرضاهم إلى هذه الأتبعه عبادا لها ، ولعل الصواب ما أثبتته .

فإذا كان الإنسان مشغولاً بمحبة بعض المخلوقات لغير الله ، الذى يرضيه وجوده ، ويسخطه عدمه - كان فيه من التعبد بقدر ذلك . ولهذا يجعلون العشق مراتب مثل : العلاقة ، ثم الصباية ، ثم الغرام ، ويجعلون آخره التيمم : والتيمم : التعبد ، وتيم الله : هو عبد الله . فيصير العاشق لبعض الصور عبداً لمعشوقه .

مراتب العشق

والله سبحانه إنما ذكر هذا العشق فى القرآن عن المشركين ، فإن العزيز وامرأته وأهل مصر كانوا مشركين ، كما قال لهم يوسف عليه الصلاة والسلام :

﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . وَأَتَيْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ . يَا صَاحِبِي السَّجْنِ الرَّيَابِ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة يوسف : ٣٧ - ٤٠] .

ذكر الله العشق
فى القرآن عن
المشركين

ظ ١٦٤

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن نَّبْعَثَ اللَّهَ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ . الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبِيرٌ مَّقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [سورة غافر : ٣٤ ، ٣٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة يوسف : ٢٠] .

وأما يوسف عليه السلام فإن الله ذكر أنه عصمه بإخلاصه الدين لله ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٢٤] ، فأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء والفحشاء . ومن السوء عشقها ومحبتها ، ومن الفحشاء الزنا ، وقد يزني بفرجه من لا يكون عاشقا ، وقد يعشق من لا يزني بفرجه ، والزنا بالفرج أعظم من الإلمام بصغيرة كنظرة وقبله .

وأما الإصرار على العشق ولوازمه : من النظر ونحوه ، فقد يكون أعظم من الزنا الواحد بشيء كثير ، والمخلصون يصرف الله عنهم السوء والفحشاء ، ويوسف عليه السلام كان من المخلصين ، حيث كان يعبد الله ، لا يشرك به شيئا ، وحيث توكل على الله ، واستعان به ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنُّنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ . فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [سورة يوسف : ٣٣ ، ٣٤] .

وهذا تحقيق قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [سورة النحل : ٩٨ - ١٠٠] ، فأخبر سبحانه أن المتوكلين على الله ليس للشيطان عليهم سلطان ، وإنما سلطانه على المتوليين له ، والمتولى من الولاية ، وأصله المحبة والموافقة ، كما أن العداوة أصلها البغض والمخالفة . فالمتولون ^(١) له هم الذين يحبون ما يحبه الشيطان ويوافقوه ، فهم مشركون ^(٢) به حيث أطاعوه وعبدوه بامثال أمره ، كما قال تعالى :

المتولون للشيطان هم الذين يحبون ما يحبه

(١) في الأصل : فالمتوليين ، وهو خطأ .

(٢) في الأصل : مشركين ، وهو خطأ .

﴿ اَلَمْ اٰعٰهَدْ اِلَيْكُمْ يٰ بَنِي اٰدَمَ اَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ اِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ . وَاِنْ اٰغْبٰوْنِي هٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [سورة يس : ٦٠ ، ٦١] .

والشياطين شياطين الإنس والجن ، والعبادة فيها الرغبة والرغبة . قال تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ اَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ اُسْتَكْبَرْتَ اَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِيْنَ . قَالَ اَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . قَالَ فَاخْرِجْ مِنْهَا فَاِنَّكَ رَجِيْمٌ . وَاِنَّ عَلَيْكَ لَلْعَنَةَ اِلٰى يَوْمِ الدِّينِ . قَالَ رَبِّ فَاَنْظِرْنِي اِلٰى يَوْمٍ يُبْعَثُوْنَ . قَالَ فَاِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِيْنَ . اِلٰى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُوْمِ . قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا اُغْوِيَنَّهُمْ اَجْمَعِيْنَ . اِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِيْنَ . قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ اَقُوْلُ . لَا اَمْلَاَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ اَجْمَعِيْنَ ﴾ [سورة ص : ٧٥ - ٨٥] فاقسم الشيطان ﴿ لَا اُغْوِيَنَّهُمْ اَجْمَعِيْنَ . اِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِيْنَ .

وقد أخبر الله أنه ليس له سلطان على هؤلاء (١) فقال في الحجر : ﴿ فَاخْرِجْ مِنْهَا فَاِنَّكَ رَجِيْمٌ . وَاِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ اِلٰى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [سورة الحجر : ٣٤ ، ٣٥] ، ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا اُغْوِيْتَنِي لِاَزِيْنَنَّ لَهُمْ فِي الْاَرْضِ وَلَا اُغْوِيَنَّهُمْ اَجْمَعِيْنَ . اِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِيْنَ ﴾ [سورة الحجر : ٣٩ ، ٤٠] قال تعالى ﴿ اِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنٌ اِلَّا مَنْ اَتَّبَعَكَ مِنَ الْغٰوِيْنَ ﴾ [سورة الحجر : ٤٢] .

وقوله ﴿ اِلَّا مَنْ اَتَّبَعَكَ مِنَ الْغٰوِيْنَ ﴾ استثناء منقطع في أقوى القولين ، إذ العباد هم العابدون ، لا المعبودون . كما قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِيْنَ يَمْشُوْنَ عَلٰى الْاَرْضِ هَوْنًا ﴾ [سورة الفرقان : ٦٣] .

(١) في أعلى ص ١٦٥ كتب إلى اليسار منها : « الثالث » .

وقال تعالى : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [سورة الإنسان :

. [٦

وقال تعالى : ﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ . يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾

[سورة الزخرف : ٦٧ - ٦٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [سورة الجن : ١٩] .

وقال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ [سورة الإسراء : ١] .

وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي

وَالْأَبْصَارِ ﴾ [سورة ص : ٤٥] .

وإذا كان عباد الله المخلصون ليس له (١) عليهم سلطان ، وأن سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ، وقد أقسم أن يغيوهم إلا عباد الله المخلصين ، وأخبر الله أن سلطانه ليس على عباد الله ، بل على من اتبعه من الغاوين .

والغنى : اتباع الأهواء والشهوات ، وأصل ذلك أن الحب لغير الله كحب الأنداد ، وذلك هو الشرك ، قال الله تعالى فيه : ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [سورة النحل : ١٠٠] ، فبين أن صاحب الإخلاص ، مادام صادقاً في إخلاصه ، فإنه يعتصم من هذا الغنى وهذا الشرك ، وإن الغنى هو يضعف الإخلاص ، ويقوى هواه (٢) الشرك . فأصحاب

. (١) أى للشيطان .

. (٢) أى هوى الإنسان .

عباد الله المخلصون
ليس للشيطان عليهم
سلطان

العشاق يتولون
الشیطان ويشركون به

العشاق ، الذى يحبه الشيطان ، فيهم من تولّى الشيطان ، والإشراك به بقدر ذلك ، لما فاتهم من إخلاص المحبة لله ، والإشراك بينه وبين غيره فى المحبة ، حتى يكون فيه نصيب / من اتّخاذ الأنداد ، وحتى يصيروا عبيداً لذلك المعشوق ، فيفنون فيه (١) ويصرحون بأنّنا عبيد له (٢) ، فيوجد فى هذا الحب والهوى ، واقتراف (٣) ما يبغضه الله ، وما حرّمه من الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، وأن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن يقولوا على الله ما لا يعلمون ، فيوجد فيه من الشرك الأكبر والأصغر ، ومن قتل النفوس بغير حق ، ومن الزنا ، ومن الكذب ، ومن أكل المال بالباطل ، إلى غير ذلك ما ينتظم هذه الأصناف التى يكرهها (٤) الله تعالى ، لأن أصله أن يكون حبه كحب الله ، وهو من ترك (٥) إخلاص المحبة ، ومن الإشراك بينه وبين غيره ، أو من جعل المحبة لغير الله ، فإذا عمل موجب ذلك ، كان ذلك هو اتّباع الهوى بغير هدى من الله .

ظ ١٦٥

وفى الأثر : ما تحت أديم السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع .
قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا . أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [سورة الفرقان : ٤٣ ، ٤٤] .

ولهذا لا يبتلى بهذا العشق إلا من فيه نوع شرك فى الدين ، وضعف إخلاص لله . وسبب هذا ما ذكره بعضهم فقال : إنه ليس شىء من

(١) فى الأصل : فيمنى فيه ، ولعل الصواب ما أثبتته .

(٢) فى الأصل : بأننا عبيداً له ، وهو خطأ .

(٣) فى الأصل : واجتناب ، وهو خطأ ، ولعل الصواب ما أثبتته .

(٤) فى الأصل : التى يكرهه ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : لأن أصله ما حبه كحب الله هو من ترك إلخ . ولعل ما أثبتته يستقيم به الكلام .

المحوبات يستوعب محبة القلب إلا محبة الله أو محبة بشر مثلك . أما محبة الله فهي التي تُخلق لها العباد ، وهي سعادتهم ، وقد تكلمنا عليها في غير هذا الموضوع .
وأما البشر المتماثل ، من ذكر أو أنثى ، فإن فيه من المشاكلة والمناسبة ما يوجب أن يكون لكل شيء من الحب نصيب من المحبوب يستوعبه حبه ، ولهذا لا يُعرف لشيء (١) من المحوبات التي تُحب لغير الله من الاستيعاب ما يعرف لذلك ، حتى يُزيل العقل ، ويُفقد الإدراك ، ويُوجب انقطاع الإرادة لغير ذلك المحبوب ، ويوجب مرض (٢) الموت ، وإنما يعرض هذا كله لضعف ما في القلب من حب الله وإخلاص الدين له ، عبادة واستعانة ، فيكون فيه من الشرك ما يسلب الشيطان عليه ، حتى يغويه بهذا الغي ، الذي فيه من تولّى الشيطان والإشراك به ، ما يتسلط به الشيطان .

ولهذا قد يطيع هذا المحب لغير الله محبوه أكثر (٣) مما يطيع الله ، حتى يطلب القتل في سبيله ، كما يختار المؤمن القتل في سبيل الله ، وإذا كان محبوه مطيعه من وجهه وعبدا له ، [فهو أولى] (٤) بأن يكون هو مطيعه وعبدا له من وجه آخر .

وإذا كان النبي ﷺ قال : « شارب الخمر كعابد وثن » (٥) . ومّر عليّ

(١) في الأصل : شيء . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٢) في الأصل : لمرض . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٣) في الأصل : لمحبه أو أكثر ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٤) زدت عبارة « فهو أولى » ليستقيم الكلام .

(٥) الحديث عن أبي هريرة رضى الله عنه في : سنن ابن ماجه ١١٢٠/٢ (كتاب الأشربة ، باب

مدمن الخمر) ونصه : « مدمن الخمر كعابد وثن » . وصححه الألباني في « صحيح الجامع الصغير »

رضى الله عنه (١) يقوم يلعبون بالشطرنج فقال : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ وأظنه قلب الرقعة (٢) .

وذلك أن الله جمع بين الخمر والميسر ، وبين الأنصاب والأزلام في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٩٠ ، ٩١] .

مع أن الخمر إذا سكر بها الشارب كان سكره يوماً أو قريباً من يوم أو بعض يوم ، وأما سكر الشهوة والمحبة الفاسدة من العشق ونحوه فسكره قوى دائم . قال تعالى في قوم لوط : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [سورة الحجر : ٧٢] .

فكيف إذا خرج عن حد السكر إلى حد الجنون ، بل كان الجنون المطبق لا الحمق (٣) ، كما أنشد محمد بن جعفر في كتاب « اعتلال القلوب » (٤) قال :

أنشدني الصيدلاني :

قالت جُنُنْتُ على رأسي فقلت لها العشق أعظم مما بالمجانين

(١) في الأصل : ومر على عليم . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٢) أورد ابن كثير هذا الخبر في تفسيره لآية ٥٢ سورة الأنبياء عن ابن أبي حاتم قال : مر على قوم يلعبون بالشطرنج ، فقال : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ لأن يمس صاحبكم جمرأ حتى يطفأ خير له من أن يمسها .

(٣) في الأصل : الحامق .

(٤) هو أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاعر السامري الخرائطي ، محدث أديب ، ولد سنة ٢٤٠ وتوفي سنة ٣٢٧ ، من تصانيفه : « اعتلال القلوب » في أخبار العشاق (وهو مخطوط) . انظر ترجمته في : تاريخ بغداد ١٣٩/٢ - ١٤٠ ؛ شذرات الذهب ٣٠٩/٢ ؛ الأعلام ٢٩٧/٦ ؛ معجم المؤلفين ١٥٤/٩ - ١٥٥ .

العشق ليس يفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون في الحين (١)

وقال الآخر :

سُكران : سُكْرُ هوى وسُكْرُ مُدَامَة ومتى إفاقة من به سُكران

فصاحبه أحق بأن يشبهه بعباد الوثن والعاكفين على التماثيل يعملونها (٢)
على صورة آدمى .

وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ [سورة يوسف : ٣٠] أى : شغفها حبه ، أى وصل حبه إلى شغاف القلب ، وهى جلدة فى داخله ، فهذا يكون قد اتخذ ندا يحبه كحُب الله .

وإذا كان الشيطان يريد أن يوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدّهم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فالعداوة والبغضاء التى يريد أن يوقعها بالعشق ، وصدّه عن ذكر الله وعن الصلاة بذلك أضعاف غيره ، كما قد تكلمنا عليه فى غير هذا الموضع ، وبيننا أن جميع المعاصى يجتمع فيها هذان الوصفان ، وأن ذكر ذلك فى الخمر والميسر اللذين هما من أواخر المحرمات - ينبه على ما فى غيرهما من ذلك مما حُرِّم / قبلهما : كقتل النفوس بغير حق ، والفواحش ، ونحو ذلك .

ظ ١٦٦

ومما يبين هذا أن الفواحش التى أصلها المحبة لغير الله ، سواء كان المطلوب المشاهدة أو المباشرة أو الإنزال أو غير ذلك ، هى فى المشركين أكثر منها فى

(١) أورد ابن الجوزى البيهقي فى كتابه « ذم الهوى » ص ٣١٧ ، ونسبها المحقق الأستاذ مصطفى عبد الواحد إلى مجنون ليل (انظر الفهرس ص : ٧١١) .
(٢) فى الأصل : يعملونه ، وهو تحريف .

المخلصين ، ويوجد فيهم ما لا يوجد في المخلصين لله .

قال الله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ اتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ . فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٧ - ٣٠] ، فأخبر سبحانه أنه جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ، وهو قوله تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [سورة الكهف : ٥٠] وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [سورة النحل : ١٠٠] .

وإذا كان سلطانهم على أوليائهم الذين تولوه والذين هم به مشركون ، وهم الذين لا يؤمنون بالله - وقال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٤٢] - فيكون هؤلاء هم الغاوين ، وهم الذين قال الشيطان : لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين .

ولهذا أخبر سبحانه عن أوليائهم أنهم ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٨] ، فأخبر عن أولياء الشيطان ، وهم الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون : أنهم إذا فعلوا فاحشة احتجوا بالتقليد

لأسلافهم ، وزعموا مع ذلك أن الله أمرهم [بها]^(١) ، فيتبعون الظن - في قولهم : إن الله أمرهم بها - وما تهوى الأنفس في تقليد أسلافهم واتباعهم .

وهذا الوصف فيه بسط كثير لكثير من المنتسبين إلى القبلة من الصوفية والعباد ، والأمراء والأجناد ، والمتكلمة والمتفلسفة ، والعامّة وغيرهم ، يستحلّون من الفواحش ما حرّمه الله ورسوله ، وأصله العشق الذي يبغضه الله .

ص ١٦٧ / وكثير منهم يجعل ذلك ديناً ، ويرى أنه يتقرب بذلك إلى الله ، إما لزعمه أنه يزكّي النفس ويهديها ، وإما لزعمه أنه يجمع بذلك قلبه على آدمي ، ثم ينتقل إلى عبادة الله وحده ، وإما لزعمه أن الصور الجميلة مظاهر الحق ومشاهده ، وربما اعتقد حلول الرب فيها واتحاده بها ، ومنهم من يخص ذلك بها ، ومنهم من يقول بإطلاق . وهؤلاء إذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها .

وكل هؤلاء فيهم من الإشراك بقدر ذلك ، ولهذا يظهر الافتتان بالصور وعشقها فيمن فيهم شرك : كالنصارى والرهبان والمتشبهين بهم من هذه الأمة : من كثير من المتفلسفة والمتصوفة الذين يفتنون بالأحداث وغيرهم ، فتجد فيهم قسطاً عظيماً من اتخاذ الأنداد من دون الله ، يحبونهم كحب الله ، إما تدنيا ، وإما شهوة ، وإما جمعا بين الأمرين . ولهذا تجد بين أغنيائهم^(٢) وفقرائهم ، وبين ملوكهم وأمرائهم تحالفا على اتخاذ أنداد^(٣) من دون الله من هذين الوجهين .

ولهذا تجدهم كثيرا ما يجتمعون على سماع الشعر والأصوات التي تهيج الحب المشترك : الذي يجتمع فيه محب الرحمن ، ومحب الأوثان ، ومحب الصليبان ، ومحب الإخوان ، ومحب الأوطان ، ومحب المردان ، ومحب النسوان .

(١) زدت « بها » ليستقيم الكلام .

(٢) أغنيائهم : ليست واضحة بالأصل ، وكذا استظهرتها .

(٣) في الأصل : أندادا ، وهو خطأ .

وهذا السماع هو سماع المشركين ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ
عِنْدَ النَّبِيِّ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [سورة الأنفال : ٣٥] .

وسبب ما ذكرنا أن الله خلق عباده لعبادته التي تجمع محبته وتعظيمه ، فإذا
كان في القلب ما يجد حلاوته من الإيمان بالله والتوحيد له ، احتاج إلى أن يستبدل
بذلك ما يهواه ، فيتخذ إلهه هواه ، فيتخذ الشيطان وذريته أولياء من دون الله ،
وهم لهم عدو ، بئس للظالمين بدلا .

ولهذا كان هذا ونحوه من تبديل الدين ، وتغيير فطرة الله التي فطر الناس
عليها . قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا
لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [سورة الروم : ٣٠] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ
بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً . إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِناثاً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً
مُرِيداً . لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً . وَلَا ضِلَّةَ لَهُمْ وَلَا يُرْتَدُّ عَنْهُمْ
وَلَا مَرْتَبَةٌ فَلْيَبْئُتْكُمْ أَذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْتَبَةٌ فَلْيَغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ [سورة النساء :
١١٦ - ١١٩] .

قال تعالى : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [سورة الروم : ٣٠] . ونفس ما خلقه الله لا
تبديل له : لا يمكن أن توجد المخلوقات على غير ما يخلقه الله عليها ^(١) ، ولا أن تخلق
على غير الفطرة التي خلقها ^(٢) الله عليها ، لكن بعض الخلق قد يغير بعضها ، كما قال
النبي ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة / فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما
تنتج البهيمة [بهيمة] ^(٣) . جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » ^(٤) .

ظ ١٦٧

(١) في الأصل : عليه .

(٢) في الأصل : خلقهم .

(٣) زدت كلمة « بهيمة » لأنها من ألفاظ الحديث .

(٤) مضى الحديث من قبل (ص : ٤٤)

ومما يبين ذلك أن أصل العبادة هي المحبة ، وأن الشرك فيها أصل الشرك ، كما ذكره الله في قصة إمام الخنفاء إبراهيم الخليل ، حيث قال : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٦] ، وقال في القمر : ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٧] فلما أفلت الشمس قال : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٧٨ ، ٧٩] .

ولهذا تبرأ إبراهيم من المشركين ومن أشركوا (١) بالله ، قال : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الشعراء : ٧٥ - ٧٧] وقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ﴾ [سورة الممتحنة : ٤] .

ومما يوضح ذلك أنه قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة البقرة : ١٩٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سورة الأنفال : ٣٩] فأمر بالجهاد حتى لا تكون فتنة وحتى يكون الدين كله لله ، فجعل المقصود عدم كون الفتنة ، ووجود كون الدين كله لله ، وناقض (٢) بينهما ، فكون الفتنة ينافي كون الدين لله ، وكون الدين لله ينافي كون

(١) في الأصل : أشركوه ، وهو تحريف .

(٢) وناقض : في الأصل الكلمة غير واضحة ، وكذا استظهرتها .

الفتنة . والفتنة قد فُسرَّت بالشرك ، فما حصلت به فتنة القلوب ففيه شرك ، وهو ينافي كون الدين كله لله .

والفتنة جنس تحته أنواع من الشبهات والشهوات ، وفتنة الذين يتخذون من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله من أعظم الفتن . ومنه فتنة أصحاب العجل ، كما قال تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ [سورة طه : ٨٥] قال موسى : ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا فَتْنَتُكَ تَضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ [سورة الأعراف : ١٥٥] وقال تعالى : ﴿ وَأَشْرِيُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [سورة البقرة : ٩٣] .

الفتنة جنس تحته
أنواع من الشبهات
والشهوات

قيل لسفيان بن عيينه : إن أهل الأهواء يحبون ما ابتدعوه من أهوائهم حبا شديدا ، فقال : أنسيت قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] وقوله تعالى : ﴿ وَأَشْرِيُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [سورة البقرة : ٩٣] أو كلاما هذا معناه ، وكل ما أحب لغير الله فقد يحصل به من الفتنة ما يمنع / أن يكون الدين لله .

ص ١٦٨

وعشق الصور من أعظم الفتن ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [سورة التغابن : ١٥] . ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ﴾ [سورة التوبة : ٢٤] .

وقد قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يَتَرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [سورة العنكبوت : ١ - ٣] .

ومما يبين ذلك أن رجلا قال للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت ، فقال : « أجعلتنى لله ندا ، بل ما شاء الله وحده » (١). فأنكر عليه أن يجعله ندا لله في هذه الكلمة التى جمع فيها بينه وبين الله فى المشيئة ، إذ مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله ، فلا يكون شريكه ، لما يُعلم أن كون الشيء ندا لله قد يكون بدون أن يُعبد العبادة التامة ، فإن ذلك الرجل ما كان يعبد رسول الله تلك (٢) العبادة .

فصل

محبة الله توجب
المجاهدة فى سبيله

وبهذا يتبين أن محبة الله توجب المجاهدة فى سبيله قطعاً ، فإن من أحب الله وأحبه الله أحب ما يحبه الله ، وأبغض ما يبغضه الله ، ووالى من يواليه الله ، وعادى من يعاديه الله . لا تكون (٣) محبة قط إلا وفيها (٤) ذلك بحسب قوتها وضعفها ، فإن المحبة توجب الدنو من المحبوب ومحابته ، والبعد عن مكروهاته ، ومتى كان مع المحبة نبد (٥) ما يبغضه المحبوب فإنها تكون تامة .

موادة عدو الله
تنافى المحبة

وأما موادة عدوه فإنها تنافى المحبة ، قال تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ

(١) لم أجد الحديث بهذا اللفظ ، ولكنى وجدت حديثاً مقاربا لفظه (فى المسند (ط . المعارف) ٢٥٣/٢) عن ابن عباس أن رجلا قال للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت ! فقال النبي ﷺ : « أجعلتنى والله عدلاً ، بل ما شاء الله وحده » . والحديث بلفظ مقارب عن ابن عباس رضى الله عنهما فى : المسند (ط . المعارف) ١٩٣/٤ ، ٨٥/٥ وجاء مختصراً ٢٩٦/٣ .

وذكر هذا الحديث ابن حجر فى « فتح البارى » (ط . السلفية) ٥٤٠/١١ وقال إن الحديث فى مسند أحمد والنسائى .

(٢) فى الأصل : ذلك .

(٣) فى الأصل : يكون .

(٤) فى الأصل : وفيه .

(٥) نبد : ليست واضحة بالأصل ، وكذا استظهرتها .

أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴿٢٢﴾
 [سورة المجادلة : ٢٢] ، فأخبر أن المؤمن - الذى لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه
 مما سواهما ، كما فى الحديث المتفق عليه : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى
 أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » (١) - لا تجده (٢) موادا لمن حاد
 الله ورسوله ، فإن هذا جمع بين الضدين لا يجتمعان . ومحبوب الله ومحبوب معاديه
 لا يجتمعان .

فالحب له (٣) لو كان موادا لمحاده لكان محبا لاجتماع مراد المتحادين
 المتعادين وذلك ممتنع ، ولهذا لم تصلح هذه الحالة إلا لله ورسوله ، فإنه يجب على
 العبد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ولا يكون مؤمنا إلا بذلك .
 ولا تكون هذه المحبة مع محبة من يحاد الله ورسوله ويعاديه أبدا ، فلا ولاء لله
 إلا بالبراءة من عدو الله ورسوله .

وأما المؤمنون الذين قد يقاتل بعضهم بعضا ، فأولئك ليسوا متحادين من
 كل وجه ، فإن مع كل منهما من الإيمان ما يحب عليه الآخر ، وإن كان يبغضه
 أيضا ، فيجتمع فيهما المحبة والبغضة ، وكذلك كل منهما / لا يجب أن تكون جميع
 أفعاله موافقة لمحبة [الله] (٤) وجميع أفعال الآخر موافقة لبغض الله ، بل لا بد أن يفعل
 أحدهما ما لا يحبه الله وإن لم يبغضه ، ولا بد أن يكون فى الآخر أيضا ما يحبه الله إذ
 هو مؤمن ، فيجب أن يعطى كل واحد من المحبة بقدر إيمانه ، ولا يجب أن يحب من
 أحدهما ما لا يحبه وإن كان لا يبغضه بل ولا يجب [من] واحدهما (٥) ما كان خطأ

ظ ١٦٨

(١) مضى الحديث من قبل (ص : ١٢ ، ٥٧) .

(٢) فى الأصل : لا يجد ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٣) فى الأصل : فالحب له . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبتته .

(٤) زدت كلمة الجلالة ليستقيم الكلام .

(٥) فى الأصل : بل ولا يحبه واحدهما ، ولعل الصواب ما أثبتته .

أو ذنبا مغفورا ، وإن كان لا يبغض على ذلك ، فلا يجب إلا ما أحبه الله ورسوله ، فيحب ما كان من اجتهاده من عمل صالح .

وهذا الذى ذكرناه أمر يجده الإنسان من نفسه ويحسه : أنه إذا أحب الشيء لم يحب ضده ، بل يبغضه . فلا يتصور اجتماع إرادتين تامتين للضدين ، لكن قد يكون فى القلب نوع محبة وإرادة لشيء ، ونوع محبة وإرادة لضده ، فهذا كثير (١) ، بل هو غالب على بنى آدم ، لكن لا يكون واحد (٢) منهما تاما ، فإن المحبة والإرادة التامة توجب (٣) وجود المحبوب المراد مع القدرة ، فإذا كانت القدرة حاصلة ولم يوجد المحبوب المراد لم يكن الحب والإرادة تامة . وكذلك البغض التام يمنع وجود البغض مع القدرة ، فمتى (٤) وجد مع إمكان الامتناع لم يكن البغض تاما .

ومن هنا يعرف أن قول النبى ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » (٥) على بابه : لو كان بغضه لما أبغضه الله من هذه الأفعال تاما لما فعلها . فإذا فعلها فإما أن يكون تصديقه بأن الله يبغضها فيه ضعف ، أو نفس بغضه لما يبغضه الله فيه ضعف ، وكلاهما يمنع تمام الإيمان الواجب .

ومحبة الله ورسوله على درجتين : واجبة وهى درجة المقتصدىن ، ومستحبة
درجتين :
واجبة ومستحبة وهى درجة السابقين .

(١) فى الأصل : كثيرا ، وهو خطأ .

(٢) فى الأصل : واحدا ، وهو خطأ .

(٣) فى الأصل : توجد ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٤) فى الأصل : فمن . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٥) مضى الحديث من قبل (ص : ٧٣) .

الحجة الواجبة وهي
حجة المقتضين

فالأولى تقتضى أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، بحيث لا يجب شيئاً يبغضه ، كما قال تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [سورة المجادلة : ٢٢] ، وذلك يقتضى محبة جميع ما أوجبه الله تعالى ، وبغض ما حرّمه الله تعالى ، وذلك واجب ، فإن إرادة الواجبات إرادة تامة تقتضى وجود ما أوجبه (١) ، [كما تقتضى عدم الأشياء التى نهى الله عنها] (٢) ، وذلك مستلزم لبغضها التام .

فيجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه (٣) الله ، ويبغض ما أبغضه الله . قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [سورة محمد : ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ [سورة التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ﴾ [سورة الرعد : ٣٦] .

ص ١٦٩

وأما محبة السابقين بأن يحب ما أحبه الله من النوافل والفضائل محبة تامة . وهذه حال المقرّبين الذين قرّبهم الله إليه . فإذا كانت محبة الله ورسوله الواجبة تقتضى بغض ما أبغضه الله ورسوله ، كما فى سائر أنواع المحبة ، فإنها توجب بغض

الحجة المستحبة
وهي محبة السابقين

(١) فى الأصل : ما واجبه . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٢) ما بين المعقوفين زده لىستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : ما أوجبه . ولعل الصواب ما أثبتته .

الضد ، عُلم أن الجهاد من موجب محبة الله ورسوله ، فإن مقصود الجهاد
تحصيل (١) ما أحبه الله ، ودفع ما أبغضه الله .

فمن لم يكن فيه داع إلى الجهاد ، فلم يأت بالمحبة الواجبة قطعاً ، كان فيه ترك الجهاد لعدم المحبة
نفاق (٢) ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا
وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [سورة الحجرات :

١٥] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « من [مات]
ولم يغز (٣) ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق » (٤) .

وكذلك جمع بينهما في قوله تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ
عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ . يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ
بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ
أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة التوبة : ١٩ - ٢٢] ، فقرنه بالمحبة (٥) في الآيتين من

(١) في الأصل : يحصل ، ولعل الصواب ما أثبتته .

(٢) في الأصل : فيمكن فيه نفاقاً ، وهو خطأ .

(٣) في الأصل : من لم يغز . والمثبت هو تمام الحديث .

(٤) الحديث عن أبي هريرة رضى الله عنه في : مسلم ١٥١٧/٣ (كتاب الإمارة ، باب ذم من
مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو) ؛ سنن أبي داود ١٥/٣ - ١٦ (كتاب الجهاد ، باب كراهية ترك
الغزو) ؛ سنن النسائي ٧/٦ - ٨ (كتاب الجهاد ، باب التشديد في ترك الجهاد) ؛ المسند (ط . المعارف)
٤١/١٧ .

(٥) أى فقرن الجهاد بالمحبة .

قوله : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرَضُّونَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ [سورة التوبة : ٢٤] ، وفي قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ [سورة المائدة : ٥٤] . فأخبر أن القوم الذين يحبهم الله ورسوله هم أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [سورة الفتح : ٢٩] ، فوصفهم بالذلة والرحمة لأولياؤه ^(١) إخوانهم ، والعزة والشدة على أعدائه أعدائهم ، وأنهم يجاهدون في سبيل الله .

والجهاد من الجهد وهو الطاقة ، وهو أعظم من الجهد الذى هو المشقة ، فإن الضم أقوى من الفتح ، وكلما كانت الحروف أو الحركات أقوى كان المعنى أقوى .

ولهذا كان الجرح ^(٢) أقوى من الجرح ، / فإن الجرح هو المجروح نفسه ، وهو غير ^(٣) الجرح ، مصدر ، وهو فعل .

وكذلك الكره ، والمكروه ، والمكروه ، كما قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِلَّا يَسْجُدْ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [سورة الرعد : ١٥] .

فالجهد : نهاية الطاقة والقدرة ^(٤) ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ [سورة التوبة : ٧٩] .

(١) فى الأصل : لأولياءه ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : الجرح ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : عين ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : القدرة .

وفي الحديث : « أفضل الصدقة جُهد من مقل يُسرّه إلى فقير » (١) . ولهذا قال النبي ﷺ : « الجهاد سنام العمل » (٢) ، فإنه أعلى الإرادات في نهاية القدرة ، وهذا هو أعلى ما يكون من الإيمان ، كالسنام الذي هو أعلى ما في البعير ، وقد يكون بمشقة ، وقد لا يكون .

وأما الجُهد فهو المشقة ، وإن لم يكن تمام القدرة .

فالجهاد في سبيل الله تعالى من الجُهد ، وهي المغالبة [في سبيل] الله (٣) بكمال القدرة والطاقة ، فيتضمن شيعين ، أحدهما : استفراغ الوسع والطاقة . والثاني : أن يكون ذلك في تحصيل محبوبات الله ودفْع مكروهاته ، والقدرة والإرادة بهما يتم الأمر .

وهنا (٤) انقسم الناس أربعة أقسام : فقوم لهم قدرة ، ولهم إرادة ومحنة غير

انقسم الناس
إلى أربعة أقسام

(١) الحديث بلفظ : « فأى الصدقة أفضل ؟ قال ﷺ : جهد المقل » عن عبد الله بن حُشبى رضى الله عنه في : سنن أبى داود ٩٣/٢ - ٩٤ (كتاب الصلاة ، باب طول القيام) ؛ سنن النسائى ٤٣/٥ - ٤٤ (كتاب الزكاة ، باب جهد المقل) ؛ المسند (ط . الحلبي) ٤١١/٢ - ٤١٢ . وصحح الألبانى هذا الحديث في تعليقه على مشكاة المصابيح للبريزى ٣٥٧/٢ . وجاء حديث آخر عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه في المسند (ط . الحلبي) ١٧٨/٥ وفيه : « قلت : يا رسول الله فما الصدقة ؟ قال : أضعاف مضاعفة وعند الله مزيد . قلت : أيها أفضل يا رسول الله ؟ قال : جهد من مقل أو سر إلى فقير » . وجاء حديث ثالث بمعنى الحديث السابق في المسند ٢٦٥/٥ عن أبى أمامة رضى الله عنه وضعف الألبانى هذا الحديث الأخير في « ضعيف الجامع الصغير » ٣١٨/١ .

(٢) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه في : سنن الترمذى ١٠٤/٣ ، ١٠٥ (كتاب الجهاد ، باب أى الأعمال أفضل) ونصه : « سئل رسول الله ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟ أو أى الأعمال خير ؟ قال : إيمان بالله ورسوله . قيل : ثم أى شيء ؟ قال : الجهاد سنام العمل . قيل : ثم أى شيء يا رسول الله ؟ قال : ثم حج مبرور » . ثم قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح ، وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة عن النبي ﷺ » . والحديث في : المسند (ط . المعارف) ٢٤٩/١٤ .

(٣) فى الأصل : وهى الغالبة لله . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٤) فى الأصل : هنا .

١ - قوم لهم قدرة ولزادة ومحبة غير مأمور بها
 مأمور بها ، فهم يجاهدون ، ويستعملون جهدهم وطاقتهم ، لكن لا في سبيل الله ، بل في سبيل آخر : إما محرمة ، كالفواحش مظهر منها وبطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، والإشراك بالله ما لم ينزل به سلطانا ، والقول على الله بغير علم الحق .

وإما في سبيل لا ينفع عند الله ، مما جنسه مباح ، لاثواب فيه ، لكن الغالب [أن] ^(١) مثل هذا كثيرا ما يقترن ^(٢) به من الشبه ما يجعله في سبيل الله أو في سبيل الشيطان .

٢ - قوم لهم إرادة صالحة ومحبة كاملة لله ولهم أيضا قدرة كاملة ، فهؤلاء سادة المحبين المحبوبين ، المجاهدين في سبيل الله ، لا يخافون لومة لائم ، كالسابقين ^(٣) الأولين من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم القيامة .

٣ - قوم فيهم إرادة صالحة ومحبة قوية لعمامة ، لكن قدرتهم ناقصة ، فهم يأتون بمحوبات الحق من مقدورهم ولا يتركون مما يقوون عليه شيئا ^(٤) ، لكن قدرتهم ^(٥) قاصرة ، ومحبتهم ^(٦) كاملة ، فهو مع القسم الذي قبله .

وما زال في المؤمنين على عهد النبي ﷺ وبعده من هؤلاء خلق كثير . وفي مثل هؤلاء قال النبي ﷺ : « إن بالمدينة لرجالا ماسترم مسيرا ولا سلكتهم واديا

(١) زدت « أن » ليستقيم الكلام .

(٢) في الأصل : يفترقون ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٣) في الأصل : فالسابقين ، ولعل الصواب ما أثبتته .

(٤) في الأصل : ولا يأتون بتركوا مما يقوون عليه شيئا . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٥) في الأصل : لكن قلوبهم . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٦) في الأصل : ومحبة . ولعل الصواب ما أثبتته .

إلا كانوا معكم . قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة ، حسبهم العذر « (١) .
وقال له سعد بن أبي وقاص : يا رسول الله الرجل يكون حامية القوم يسهم له مثلما
يسهم لأضعفهم ؟ فقال : يا سعد وهل تنصرون إلا بضعفائكم ؟ بدعائهم
وصلواتهم واستغفارهم « (٢) .

وروى أن النبي ﷺ كان يستفتح / بصعاليك المهاجرين ، وقال : « رب
أشعث أغبر ، ذى طمرين ، مدفوع بالأبواب ، لا يؤبه له ، لو أقسم على الله
لأبره » (٣) وهذا كثير .

(١) الحديث عن أنس رضى الله عنه فى : البخارى ٢٦/٤ (كتاب الجهاد ، باب من حسبه العذر
عن الغزو) ؛ سنن أبى داود ١٧٣/٣ - ١٨ (كتاب الجهاد ، باب فى الرخصة فى القعود من العذر) ؛ سنن
ابن ماجه ٩٢٣/٢ (كتاب الجهاد ، باب من حسبه العذر عن الجهاد) ؛ المسند (ط . الحلبي) ١٠٣/٣ ،
١٦٠ ، ٣٠٠ ، ٣٤١ . وجاء حديث آخر بألفاظ مقاربة عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى : مسلم
١٥١٨/٣ (كتاب الإمارة ، باب ثواب من حسبه عن الغزو مرض أو عذر آخر) ؛ سنن ابن ماجه (فى
الموضع السابق) .

(٢) الحديث عن مصعب بن سعد عن أبيه سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه فى : البخارى ٣٦/٤
- ٣٧ (كتاب الجهاد ، باب من استعان بالضعفاء والصالحين فى الحرب) ونصه : « عن مصعب بن سعد
قال : رأى سعد رضى الله عنه أن له فضلا على من دونه . فقال النبى ﷺ : هل تنصرون وترزقون
إلا بضعفائكم ؟ » والحديث بألفاظ مقاربة فى : سنن النسائى ٣٧/٦ - ٣٨ (كتاب الجهاد ، باب
الاستنصار بالضعيف) . وما رواه ابن تيمية هو أقرب إلى رواية المسند (ط . المعارف) ٥١/٣ : « عن
سعد بن مالك (وهو سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه) قال : قلت : يا رسول الله ، الرجل يكون حامية
القوم ، أ يكون سهمه وسهم غيره سواء ؟ قال : ثكلتك أمك ابن أم سعد ! وهل ترزقون وتنصرون إلا
بضعفائكم !؟ » وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله فى تعليقه : « إسناده ضعيف لانتقاعه » ..

وقال ابن حجر فى « فتح البارى » ٨٨/٦ - ٨٩ عن رواية البخارى : « ثم إن صورة هذا السياق
مرسل لأن صعبا لم يدرك زمان هذا القول ، لكن هو محمول على أنه سمع ذلك من أبيه ، وقد وقع التصريح
عن مصعب بالرواية له عن أبيه عند الإسماعيلى ، وكذا أخرجه هو والنسائى » .

وجاء حديث آخر بألفاظ مقاربة عن أبى الدرداء رضى الله عنه فى سنن أبى داود ٣٢/٣ (كتاب
الجهاد ، باب فى الانتصار برذل الخليل والضعفة) ؛ المسند (ط . الحلبي) ١٩٨/٥ .

(٣) الحديث بألفاظ مقاربة عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم ٢٠٢٤/٤ (كتاب البر =

والقسم الرابع : من قدرته قاصرة وإرادته للحق قاصرة ، وفيه من إرادة الباطل ما الله به عليم ، فهؤلاء ضعفاء المجرمين ، ولكن قد يكون لهم من التأثير بقلوبهم نصيب وحظ مع أهل باطلهم ، كما يوجد في العلماء والعباد والزاهدين من المشركين وأهل الكتاب (١) ومنافقى هذه الأمة ما فيه مضاهاة (٢) لعلماء المؤمنين وعبادهم (٣) ، وذلك أن الشيطان جعل [لكل] شىء (٤) من الخلق نظيرا في الباطل ، فإن أصل الشر هو الإشراك بالله ، كما أن أصل الخير هو الإخلاص لله .

٤ - من قدرته وإرادته للحق قاصرة ، وفيه إرادة للباطل

فإن الله سبحانه خلق الخلق ليعبدوه وحده لا يشركوا به شيئا ، وبذلك أرسل الرسل ، وبه أنزل الكتب ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [سورة النحل : ٣٦] .

والعبادة تجمع كمال المحبة وكمال الذل ، فالعابد محب خاضع ، بخلاف من يحب من لا يخضع له ، بل يحبه ليتوسل به إلى محبوب آخر ؛ وبخلاف من يخضع لمن لا يحبه ، كما يخضع للظالم ، فإن كلاً من هذين ليس عبادة محضة . وإن كل

العبادة تجمع كمال المحبة وكمال الذل

= والصلة ، باب فضل الضعفاء) ، ٢١٩١/٤ (كتاب الجنة ، باب النار يدخلها الجبارون ، والجنة يدخلها الضعفاء) . وجاء حديث آخر عن معاذ بن جبل رضى الله عنه فى : سنن ابن ماجه ١٣٧٨/٢ (كتاب الزهد ، باب من لا يؤبه له) ونصه : « عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : ألا أخبرك عن ملوك الجنة ؟ قلت : بلى . قال : « رجل ضعيف مستضعف ، ذو طمرين ، لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره » . وضعف الألبانى هذا الحديث فى « ضعيف الجامع الصغير » ٢٤٢/٢ . وقال ابن الأثير فى « النهاية فى غريب الحديث والأثر » : « الطَّمْر : الثوب الخلق » . وانظر : المسند (ط . الحلبي) ١٤٥/٣ ، ٤٠٧/٥ .

(١) فى الأصل : الكتب .

(٢) فى الأصل : مظاهاة .

(٣) فى الأصل : وعبادتهم ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : لشيء ، ولعل الصواب ما أثبتته .

محبوب لغير الله ، ومعظم لغير الله ، ففيه شوب من العبادة ، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش » (١) .

وذلك كما جاء في الحديث : « إن الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل » (٢) مع أنه ليس في الأمم أعظم تحقيقا للتوحيد من هذه الأمة ، ولهذا كان شداد بن أوس يقول : يا نعايا (٣) العرب يا نعايا (٣) العرب ، إن أخوف ما أخوف عليكم الرياء والشهوة الخفية » قال أبو داود : الشهوة الخفية : حب الرياسة (٤) .

وفي حديث الترمذى عن كعب بن مالك أن النبي ﷺ قال : « ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » قال الترمذى : حديث حسن صحيح (٥) . والحرص يكون على [قدر] (٦) قوة الحب والبغض .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [سورة يوسف : ١٠٦] ، وروى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال للنبي ﷺ : إذا كان

(١) مضى هذا الحديث من قبل (ص : ٢٦١) .

(٢) مضى هذا الحديث من قبل (ص : ٢٥٤) .

(٣) نعايا : الكلمة في الأصل غير منقوطة ، وكذا قرأتها ، وانظر التعليق التالى .

(٤) علقت على هذا الأثر في المجموعة الأولى (ص ٢٣٣ ت ١) وذكرت في تعليقي أن المنذرى في « الترغيب والترهيب » ٥٠/٤ ذكر أن هذه ألفاظ حديث رواه عبد الله بن زيد رضى الله عنه عن النبي ﷺ ، وأن الحديث رواه الطبرانى بإسنادين أحدهما صحيح . وذكرت في فهرس التصويبات والاستدراكات أن الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى نبهنى إلى أن القراءة الصحيحة هي « نعايا » لا « بغايا » (كما جاءت في طبعة الترغيب والترهيب) وأحالنى إلى « النهاية » لابن الأثير ، و « الفائق » للزنجشى . وانظر « النهاية » مادة « نعا » .

(٥) الحديث عن كعب بن مالك رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ١٦/٤ - ١٧ (كتاب الزهد ، باب حدثنا سويد بن نصر) ؛ سنن الدارمى ٣٠٤/٢ (كتاب الرقاق ، باب ما ذئبان جائعان) ؛ المسند (ط . الحلبي) ٤٥٦/٣ ، ٤٦٠ .

(٦) زدت كلمة « قدر » ليستقم الكلام .

الشرك أخفى من ديب النمل فكيف نتجنبه؟ فقال النبي ﷺ: «ألا أعلمك / كلمة إذا قلتها نجوت من قليله وكثيره، قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، واستغفرك لما لا أعلم» (١) فأمره مع الاستعاذة من الشرك المعلوم بالاستغفار، فإن الاستغفار والتوحيد بهما يكمل الدين.

ظ ١٧٠

كما قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [سورة حمد: ١٩] وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ. أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ. وَإِنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [سورة هود: ١-٣].

وفي الحديث: «إن الشيطان قال: أهلكت بنى آدم بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك بثت فيهم الأهواء، فهم يذنبون ولا يستغفرون، لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا» (٢) وهذا كذلك، فإن من اتخذ إلهه هواه صار يعبد ما يهواه، وقد زين له سوء عمله فرآه حسنا.

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا. قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [سورة الكهف: ١٠٢-١٠٤].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [سورة غافر: ٢٧].

(١) مضى هذا الحديث من قبل (ص: ٦٨).

(٢) لم أجد هذا الحديث.

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ
 الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي
 بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ . إِذْ يَقُولُ
 الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ
 عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة الأنفال : ٤٨ ، ٤٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمُ
 شُرَكَاءَهُمْ لِيَرُدُّوهُمْ وَيلبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ [سورة الأنعام : ١٣٧] .

وكمال الدين هو أداء الواجبات وترك المحرمات ، والفعل والتارك أصلهما
 الحب والبغض ، فإذا ترك مأمورا أو فعل محظورا^(١) فإنما هو لنقص الإيمان الذي
 هو التصديق ، وحب ما يحبه الله وبغض ما يبغضه الله .

والحجوبات على قسمين : قسم يُحب لنفسه ، وقسم يُحب لغيره . إذ لا بد
 من محبوب يُحب^(٢) لنفسه ، وليس شيء شرع أن يحب لذاته إلا الله تعالى ،
 وكذلك التعظيم لذاته ، تارة يعظم الشيء لنفسه ، وتارة يعظم لغيره ، وليس شيء
 يستحق التعظيم [لذاته]^(٣) إلا الله تعالى .

وكل ما أمر الله أن يُحب ويُعظم فإنما محبته لله وتعظيمه عبادة لله ، فالله هو
 المحبوب المعظم في المحبة والتعظيم ، المقصود المستقر الذي إليه المنتهى . وأما
 ما سوى ذلك فيحب لأجل الله ، أى لأجل محبة العبد لله : يجب ما أحبه الله ،

(١) في الأصل : فعلا محضورا ، وهو تحريف .

(٢) في الأصل : يحبه ، وهو تحريف .

(٣) زدت « لذاته » ، ليستقيم الكلام .

فمن تمام محبة الشيء محبة محبوب المحبوب ، وبغض بغضه ، ويشهد لهذا الحديث :
« أوثق عرى الإيمان الحب في الله ، والبغض في الله » (١)

وفي السنن « من أحب لله وأبغض لله وأعطى الله ومنع الله فقد استكمل
الإيمان » (٢) .

فمن أحب شيئاً لذاته / أو عظمه لذاته غير الله فذاك شرك به ، وإن أحب
ليتوصل به إلى محبوب آخر وتعظيم آخر سوى الله فهو من فروع هذا . والله
سبحانه لم يشرع أن يعبد [الإنسان] (٣) شيئاً من دونه ، أو يتخذ لها ليتوصل
بعبادته ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ
الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبُدُونَ ﴾ [سورة الزخرف : ٤٥] وقال تعالى : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ
الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ
مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٥١] .

ص ١٧١

فمن أحب شيئاً كما يحب الله ، أو عظمه كما يعظم الله فقد جعله لله ندا ،
وإن كان [يقول :] (٤) « إنما نعبدكم ليقربونا إلى الله زلفى ، وأنهم شفعاؤنا عند الله .
من أحب شيئاً كما يحب الله أو عظمه كما يعظم الله فقد أشرك

(١) الحديث - مع اختلاف في بعض الألفاظ - في مسند أحمد (ط . الحلبي) ٤/٢٨٦ عن البراء
ابن عازب رضى الله عنه ولفظه «... إن أوسط عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله...» . وحسنه
الألباني في « صحيح الجامع الصغير » ١٨١/٢ وقال السيوطي : « حم (أحمد في مسنده) ، ش (مصنف ابن
أبي شيبة) ، هب (البيهقي في شعب الإيمان) عن البراء . وقال السيوطي في « الجامع الكبير » : « أوثق
عرى الإيمان الموالاة في الله والحب في الله والبغض في الله » - (طب) = الطبراني في المعجم الكبير عن ابن
عباس .

(٢) مضى الحديث من قبل (ص : ٧٠) .

(٣) زدت كلمة « الإنسان » ليستقيم الكلام .

(٤) زدت كلمة « يقول » ليستقيم الكلام .

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] أى يحبونهم كما يحبون الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله منهم ، لأنهم أخلصوا لله ، فلم يجعلوا المحبة مشتركة بينه وبين غيره ، فإن الاشتراك فيها يوجب ^(١) نقصها ، والله لا يتقبل ذلك ، كما فى الحديث الصحيح يقول الله تعالى « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء ، وهو كله للذى أشرك » ^(٢) .

فالمؤمن - الذى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما - لا بد أن يكون ما أحبه الله ورسوله أحب إليه مما لم يحبه الله ورسوله ، وأن يبغض ما يبغضه الله ورسوله ، فلا يكون ذلك البغيض أحب إليه من محبوب الله ورسوله .

والحب التام منا مستلزم للإرادة التامة الموجبة للفعل مع القدرة ، والبغض التام منا مستلزم للكراهة التامة المانعة للقدرة . فإذا كان العبد قادرا على محبات الحق ولا يفعلها فلضعف محبتها فى قلبه ، أو وجود ما يعارض الحق ، مثل محبته لأهله وماله ، فإن ذلك قد يمنعه عن فعل محبوب الحق .

كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ﴾ [سورة التوبة : ٢٤] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من

(١) فى الأصل : توجب .

(٢) الحديث عن أنى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم ٢٨٨٩/٤ (كتاب الزهد ، باب من أشرك فى عمله غير الله) ؛ سنن ابن ماجه ١٤٠٥/٢ (كتاب الزهد ، باب الرياء والسعنة) ؛ المسند (ط . المعارف) - مع اختلاف يسير فى الألفاظ - ١٥٥/١٥ .

ولده ووالده والناس أجمعين» (١) . وقال له عمر : والله يارسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي . فقال : لا يا عمر ، حتى أكون أحب إليك من نفسك . قال : فأنت أحب إلي من نفسي . قال : الآن يا عمر» (٢) وهذان الحديثان في الصحيح .

فإن كانت واجبات نقص من درجة (٣) المقتصدين من أصحاب اليمين حتى يتوب أو يمحوها بشيء آخر ، وإن كانت نوافل - فإنها (٤) من القرب - بحسب ذلك . وإذا فعل مكروهات الحق فلضعف بعضها في قلبه ، أو لقوة محبتها التي تغلب بعضها . فالإنسان لا يأتي شيئاً من المحرمات - كالفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق ، والشرك بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، والقول على الله بغير علم - إلا لضعف الإيمان في أصله أو كماله ، أو ضعف / العلم والتصديق ، وإما ضعف المحبة والبغض .

ظ ١٧١

الإنسان لا يفعل
الحرام إلا لضعف
إيمانه ومحبه

لكن إذا كان أصل الإيمان صحيحاً ، وهو التصديق ، فإن هذه المحرمات [يفعلها المؤمن مع كراهته] وبغضه لها (٥) ، فهو إذا فعلها لغلبة الشهوة عليه ، فلا بد أن يكون مع فعلها فيه بغض لها ، وفيه خوف من عقاب الله عليها ، وفيه رجاء لأن يخلص من عقابها ، إما بتوبة ، وإما حسنات ، وإما عفو ، وإما دون ذلك ، وإلا فإذا لم يبغضها ، ولم يخف الله فيها ، ولم يرج رحمته ، فهذا لا يكون مؤمناً بحال ، بل [هو] (٦) كافر أو منافق .

(١) مضي الحديث من قبل (ص : ١٢ ، ٥٧) .

(٢) مضي الحديث من قبل (ص : ١٢ ، ١٣ ، ٥٧) .

(٣) في الأصل : من حد . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٤) في الأصل : فإنه . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٥) في الأصل جاءت هذه العبارات معرفة هكذا : لكن إذا كان إيمانكم صحيحاً وهو تصديقه

فإن هذه المحرمات وبغضه لها . ولعل ما أثبتته يستقيم به الكلام .

(٦) زدت « هو » ليستقيم الكلام .

فكل سيئة يفعلها المؤمن لا بد أن تقترب بها حسنات له ، لكن قوة شهوته للسيئة وما زُين له فيها ، حتى ظن أنها مصلحة له ، أوجب وقوعها ، وهو أتباع الظن وما تهوى الأنفس ، وهذا القدر عَارَضَ بعض إيمانه فترجَّح عليه ، حتى ما هو ضد لبعض الإيمان ، فلم يبق مؤمناً بالإيمان الواجب . كما قال النبي ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » (١) ، وهو فيما يفعله متبع للشيطان فيما زينه له حتى رآه حسناً ، وفيما أمره به فأطاعه ، وهذا من الشرك بالشيطان ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَسَخِدُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [سورة الكهف : ٥٠] وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ الْأَنْ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَإِنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [سورة يس : ٦٠ ، ٦١] .

ولهذا لم يخلص من الشيطان إلا المخلصون لله ، كما قال تعالى عن إبليس : ﴿ وَلَا غُورِيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٣٩ ، ٤٠] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٤٢] وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [سورة النحل : ٩٩ ، ١٠٠] .

فإذا كان الشيطان ليس له سلطان إلا على من أشرك به ، فكل من أطاع الشيطان في معصية الله فقد تسلط الشيطان عليه ، وصار فيه من الشرك بالشيطان بقدر ذلك .

(١) مضي الحديث من قبل (ص : ٧٣ ، ٩١) .

والشيطان يوالى الإنسان بحسب عدم إيمانه كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٧] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمُرْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ . حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا آيَاتُ بِنِي وَيَبْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ [سورة الزخرف : ٣٦ - ٣٨] وقال تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٢٤] .

ويشهد لهذا ما ثبت فى صحيح مسلم عن جابر عن النبى ﷺ : « إن الشيطان ينتصب عرشه على البحر ، ويبعث (١) سراياه (٢) » .

فجميع ما نهى الله عنه [هو] (٣) من شعب الكفر وفروعه ، كما أن كل ما أمر الله به هو من الإيمان والإخلاص / لدين الله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ [سورة الأنفال : ٣٩] .

لكن قد يكون ذلك شركا أكبر ، وقد يكون شركا أصغر ، بحسب ما يقترن (٤) به من الإيمان ، فمتى اقترن بما نهى الله عنه الإيمان لتحريره وبغضه وخوف

(١) فى الأصل : ويث . والذى أثبتته هو لفظ الحديث .

(٢) الحديث عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه ولكن جاء بثلاث روايات أولها : « سمعت النبى ﷺ يقول : إن عرش إبليس على البحر ، فيبعث سراياه فيفتنون الناس ، فأعظمهم عنده أعظمهم فتنه » . والرواية الثالثة موافقة للرواية الأولى من قوله : « فيبعث ... إلخ » وأما الرواية الثانية فهى مطولة أولها : « إن إبليس يضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه ، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنه ... الحديث . وجاء الحديث برواياته فى مسلم ٢١٦٧/٤ (كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب تحريش الشيطان ...) ، المسند (ط . الحلبي) ٣١٤/٣ ، ٣٣٢ ، ٣٥٤ ، ٣٦٦ ، ٣٨٤ .

(٣) زدت « هو » ليستقيم الكلام .

(٤) فى الأصل : ما يفترون ، وهو تحريف .

العقاب ورجاء الرحمة لم يكن شركاً أكبر ، وأما إن اتخذ [الإنسان ما يهواه] ^(١) إلهاً من دون الله وأحبه ^(٢) كحب الله فهذا شرك أكبر ، والدرجات في ذلك متفاوتة .

وكثير من الناس يكون معه من الإيمان بالله وتوحيده ما ينجيه من عذاب الله ، وهو يقع في كثير من هذه الأنواع ، ولا يعلم أنها شرك ، بل لا يعلم أن الله حرّمها ، ولم تبلغه في ذلك رسالة من عند الله ، والله تعالى يقول : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [سورة الإسراء : ١٥] ، فهؤلاء يكثرون جداً في الأمكنة والأزمنة التي تظهر فيها فترة الرسالة بقلة القائمين بحجة الله ، فهؤلاء قد يكون معهم من الإيمان ما يُرحمون به ، وقد لا يُعذبون بكثير مما يُعذب [به] ^(٣) غيرهم ممن كانت عليه حجة الرسالة .

فينبغي أن يعرف أن استحقاق العباد للعذاب بالشرك فما دونه مشروط ببلاغ الرسالة في أصل الدين وفروعه ، ولهذا لما كثر الجهل وانتشر ، زين الشيطان لكثير من الناس أنواعاً من المحرمات ضاهوا ^(٤) بها الحلال ، وقد لا يعلمون أنها محرّمة بغیضة إلى الله ، بل قد يظنون أن ذلك محبوب لله مأمور به ، وقد يظنون أن فيها هذا وهذا ، وهم في ذلك يتبعون الظن وما تهوى الأنفس . وقد يعلمون تحريم ذلك ، ويظهرون عدم الوجه المحرم خداعاً ونفاقاً . فهؤلاء غير المؤمن الذي يجب الله ورسوله ويأتي بالمحرم معتقداً أنه محرّم ، وهو مبغض له ^(٥) ، خائف راج ^(٦) .

تزيين الشيطان لكثير
من الناس أنواعاً من
الحرام ضاهوا بها الحلال

(١) ما بين المعقوفين زدته ليستقيم الكلام .

(٢) في الأصل : وأحب .

(٣) زدت « به » ليستقيم الكلام .

(٤) في الأصل : ظاهوا .

(٥) في الأصل : يبغض له ، وهو تحريف .

(٦) في الأصل : راجى ، وهو خطأ .

وهذه الأمور توجد في الأقسام الثلاثة . ونحن نذكر أمثلة ذلك في المحرمات التي ذكرها الله في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٣٣] فالله سبحانه قد حرم الفواحش كما ذكر .

وقد قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [سورة المؤمنون : ٥ ، ٦] ، فلم تُبح إلا المرأة التي هي زوج أو ملك يمين . وقد ذكر ما اشترطه في الحلال بقوله : ﴿ غَيْرِ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ [سورة النساء : ٢٥] ^(١) ، وقوله ﴿ غَيْرِ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ [سورة المائدة : ٥] .

كما في الصحيح عن عائشة قالت : كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء ^(٢) : وذكرت أصحاب الرايات ، وهن المسافحات ، وأن إلحاق النسب في

(١) قال الطبري في تفسيره (ط . المعارف) ١٩٣/٨ : « غير مسافحات ولا متخذات أخدان : ذات الخليل الواحد . قال (أى ابن عباس رضى الله عنهما) : المسافحات : العالقات بالزنا كان أهل الجاهلية يحرمون ما ظهر من الزنا ، ويستحلون ما خفى ، يقولون : أما ما ظهر منه فهو لؤم ، وأما ما خفى فلا بأس بذلك » . وفي تفسير ابن كثير للآية : « وقال الضحاك : ولا متخذات أخدان : ذات الخليل الواحد المقررة به » .

(٢) هذا الأثر عن عائشة رضى الله عنها جاء في مواضع منها في : البخارى ١٥/٧ - ١٦ (كتاب النكاح ، باب من قال : لا نكاح إلا بولي) ؛ سنن أبى داود ٣٧٧/٢ - ٣٧٨ (كتاب النكاح ، باب في وجوه النكاح التي كان يتناكح بها أهل الجاهلية) . ونص هذا الأثر في البخارى : « أخبرني عروة ابن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء ، فنكاح منها نكاح الناس اليوم : يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها .

ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمئتها : أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد ، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع . =

وطمهن كان بالقافة (١) ، وذكرت التي يطأها جماعة محصورة (٢) ، وأن الإلحاق كان بتعيين المرأة . وذكرت نكاح الاستبضاع (٣) ، وهو غير (٤) نكاح ذوات الأخدان . وذكرت النكاح الرابع ، وهو النكاح المعروف ، الذي أحله الله .

ظ ١٧٢

فالشيطان جعل من الحرام / ما فيه مضاهاة للحلال ، وإن سُمِّيَ باسم آخر ، لكن المعنى فيه اشتراك ، فالله أباح للرجل امرأته ومملوكته (٥) ، وكل من الرجل والمرأة زوج الآخر (٦) ، فذوات الأخدان بينهما [وبين أجدانهم] (٧) نوع ازدواج واقتران كذلك ، ولهذا ميز الله بين هذا وهذا .

= ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم بصبيها ، فإذا حملت ووضعت ، ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطيع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها تقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم ، وقد ولدت فهو ابنك يا فلان ، تُسَمَّى من أحببت باسمه ، فيلحق به ولدها ، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل .

ونكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها ، وهن البغايا ، كن ينصين على أبوابهن ربات تكون عَلمًا ، فمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها ، جمعوا لها ودعوا لها القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاط به ودُعي ابنه لا يمتنع من ذلك . فلما بُعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله ، إلا نكاح الناس اليوم .

(١) قال ابن حجر في « فتح الباري ١٨٥/٩ : « القافة : جمع قائف بقاف ثم فاء ، وهو الذي يعرف شبيه الولد بالوالد بالأثار الخفية » .

(٢) في الأصل : محصورة ، ولعل الصواب ما أثبتته ، وانظر قول عائشة رضی الله عنها في التعليق السابق : « يجتمع الرهط دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم بصبيها » .

(٣) في الأصل : الاستمتاع ، وهو تحريف وأرجو أن يكون الصواب ما أثبتته ، وانظر خبر عائشة السابق رضی الله عنها .

(٤) في الأصل : وهي من ، وهو تحريف ، وأرجو أن يكون الصواب ما أثبتته . وقد ذكر ابن حجر في « فتح الباري ١٨٤/٩ : « قوله (أربعة) : قال الداودي وغيره : بقى عليها (أى على عائشة رضی الله عنها) أنحاء لم تذكرها : الأول : نكاح الخدن ، وهو قوله تعالى : « ولا متخذات أجدان » [سورة النساء : ٢٥] . وانظر التفسير السابق لآية ٢٥ من سورة النساء .

(٥) في الأصل : ومملوكيه .

(٦) في الأصل : آخر .

(٧) في الأصل : فنوات الأخدان بينهما ... إلخ . ولعل الصواب ما أثبتته .

وأخفى (١) من ذلك مؤاخاة كثير من الرجال لكثير من النساء أو لكثير من الصبيان ، وقولهم : إن هذه مؤاخاة الله إذا لم تكن (٢) المؤاخاة على فعل الفاحشة كنزوات الأخدان ؛ فهذا الذى يظهره للناس الذين يوافقونهم ويقرونهم على ذلك ، ويرَوْن كلهم أن من أحب صبيا - أو امرأة - لصورته وحسنه من غير فعل فاحشة ، فإن هذا محبة لله .

فهذا من الضلال والغي وتبديل الدين ، حيث جعل ماكرهه الله محبوبا لله ، وهو نوع من الشرك ، والمحجوب المعظم بذلك طاغوت .

وذلك أن اعتقاد أن التمتع بالمحبة والنظر أو نوع من المباشرة إلى المرأة الأجنبية والصبيان هو لله وهو حب فى الله ، كفر وشرك ، كاعتقاد أن محبة الأنداد حب لله ، وأن الاجتماع على الفاحشة تعاون على البر والتقوى ، وأن الإقامة على ذلك بالعبادة (٣) هى عبادة لله ، ونحو ذلك .

فاعتقاد أن هذه الأمور التى حرمها الله ورسوله تحريما ظاهرا : أنها دين الله ومحبة الله ، نوع من الشرك والكفر .

ثم قد يكون منها - من خفيها - أشياء تروج على من لم يبلغه العلم ، كما اشتبه على كثير من العلماء والعباد أن استماع أصوات الملامى تكون عبادة لله ، واشتبه (٤) على من هو أضعف علما وإيمانا أن التمتع بمشاهدة هذه الصور يكون عبادة لله .

ثم بعد هذا الضلال وما فيه من الغي هم أربعة أقسام :

-
- (١) فى الأصل : واخفا .
 - (٢) فى الأصل : لم يكن .
 - (٣) فى الأصل : بالقيادة .
 - (٤) فى الأصل : اشتبه .

قوم يعتقدون أن هذا لله ويقتصرون عليه ، كما يوجد مثل ذلك في كثير من الأجناد والمنتسكة والعامه .

وقوم يعلمون أن هذا ليس لله ، وإنما يظهرون هذا الكلام نفاقاً وخداعاً ، لتلا يُنكر عليهم ، وهؤلاء من وجه أمثل ، لما يُرجى لهم من التوبة ، ومن جهة أخبث ، لأنهم يعلمون التحريم ويأتون المحرم .

وقوم مقصودهم ما وراء ذلك من الفاحشة الكبرى ، فتارة يكونون من أولئك الظالمين الذين يعتقدون أن هذه المحبة التي لاوطء فيها لله ، فيفعلون شيئاً لله ، ويفعلون هذا لغير الله ، وتارة يكونون (١) من أولئك الغاوين المنافقين الذين يظهرون أن هذه المحبة لله ، وهم يعلمون أنها للشيطان ، فيجمع هؤلاء بين هذا الكذب وبين الفاحشة الكبرى . وهؤلاء في هذه المخادنة (٢) والمؤاخاة يضاهون النكاح (٣) ، فإنه يحصل بين هذين من الاقتران والازدواج ما يشبه اقتران الزوجين ، ويريد عليه تارة ، وينقص عنه أخرى . وما يشبه اقتران المتحابين في الله والمتآخين (٤) في الله ، لكن الذين / آمنوا أشد حبا لله .

ص ١٧٣

فالمُتَحَابِّانِ فِي اللَّهِ يَعِظَمُ تَحَابَّهُمَا وَيَقْوَى وَيَثْبِتُ ، بِخِلَافِ هَذِهِ الْمُؤَاخَاةِ الشَّيْطَانِيَّةِ ، فَإِنَّهُ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا أَنْوَاعٌ مِنَ الْفَسَادِ . ثُمَّ هَذَا قَدْ يَظْهَرُ وَيَنْتَشِرُ حَتَّى قَدْ يَسْمُونَهُ زَوَاجًا ، وَيَقُولُونَ (٥) : تَزَوَّجْ هَذَا بِهَذَا ، كَمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ بَعْضُ الْمُسْتَهْزِئِينَ

(١) في الأصل : يكون ، وهو تحريف .

(٢) في الأصل : المخادنة ، وهو تحريف .

(٣) في الأصل : يظاهرون للنكاح ، وهو تحريف .

(٤) في الأصل : المتواخين .

(٥) في الأصل : ويقول ، وهو تحريف .

بآيات الله من فجّار الفساق (١) والمنافقين ، ويقرّه الحاضرون على ذلك ويضحكون ، وربما أعجبهم مثل هذا المزاح .

كما أن اعتقاد أن هذه المحبة لله أوجب لمن كان من فجّار الفساق والمنافقين أن يقول لهم : الأمر حبيب الله ، والملتحي عدو الله ، وذلك يعجبهم ويضحكون منه ، وحتى اعتقد كثير من المردان أن هذا حق ، وهو داخل في قول النبي ﷺ : « إذا أحب الله العبد نادى في السماء : يا جبريل إني أحب فلانا (٢) » ، فيصير يعجبه أن يُحب ويعتقد الغاوى أنه محبوب .

وذلك أن من فقهاء الكوفة من لا يوجب في اللوطية الحد بل التعزير ، إلا إذا أسرف (٣) فيه فإنه يبيع قتله سياسة ، ومن الفقهاء من يوجب فيه حد الزاني ، كأشهر قَوْلِي الشافعي ، وإحدى الروایتين عن أحمد ، وقول أبي يوسف ومحمد . وأكثر فقهاء الحجاز وأهل الحديث يوجبون قتلها جميعا ، كمذهب مالك ، وظاهر مذهب أحمد .

وزعم بعض الفقهاء أن فجور [الرجل] بمملوكه (٤) شبهة في درء (٥) الحد ، وهو موجب للتعزير ، كما هو أحد القولين في وطء أمته الحرمة عليه برضاع

(١) في الأصل : من فجّار الفجار ، وستكرر العبارة بعد قليل كما أثبتنا هنا .

(٢) الحديث عن أبي هريرة رضى الله في : البخارى ١١١/٤ (كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة) ، وبقية الحديث فيه : « ... فلانا فأحبه فيحبه جبريل ، فينادى جبريل في أهل السماء : إن الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض » . والحديث أيضا في : البخارى ١٤/٨ (كتاب الأدب ، باب المقه من الله تعالى) ، ١٤٢/٩ (كتاب التوحيد ، باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة) ؛ مسلم ٢٠٣٠/٤ (كتاب البر والصلة والآداب ، باب إذا أحب الله عبدا حبه إلى عباده) ؛ سنن الترمذى ٣٧٨/٤ (كتاب تفسير القرآن ، سورة مريم) ؛ المسند (ط . المعارف) ٤٨/١٤ ، ٢٠٩/١٦ ، ٨١/١٨ - ٨٢ ، (ط . الخليلي) ٥١٤/٢ .

(٣) في الأصل : أشرف ، وهو تحريف .

(٤) في الأصل : أن الفجور بمملوكه . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٥) في الأصل : دار ، وهو تحريف .

أو محرّمته . وأيضا فالعقوبة بالقتل إنما تكون في حق البالغ ^(١) ، وأما الصبي -
وأمثاله - فيجوز قتله إذا قاتل مع الكفار ^(٢) ، فأما بمجرد فعله هو بنفسه فلا يقتل
بل يعاقب بما يزجره ^(٣) .

وكذلك النوع الثاني من الحلال ، وهو ملك اليمين ، فإن المرأة قد تملك
الرجل ، والرجل قد يملك الصبي ، وقد يكون في هذا الملك نوع من ملك الرجل
الأمة ، فربما استمتعت المرأة بملوكها بمقدمات النكاح ، أو بالنكاح ، مضاهاة
لاستمتاع الرجل بملكته ^(٤) ، وربما تأوّلت القرآن على ذلك ، واعتقدت أن ذلك
داخل في قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَمْلُوكَاتٍ أَيْمَانُهُمْ ﴾ [سورة المؤمنون : ٦] ، كما رفع إلى عمر
ابن الخطاب امرأة تزوجت عبدها ، وتأوّلت هذه الآية ، ففرّق بينهما ، وأدّبه ،
وقال : ويحك إنما هذه للرجال لا للنساء ^(٥) .

وكذلك كثير من جهال الترك وغيرهم قد يملك من الذكران من يجهم
ويستمتع بهم ، وقد يتأوّل بعضهم على ذلك : ﴿ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَمْلُوكَاتٍ
أَيْمَانُهُمْ ﴾ [سورة المؤمنون : ٦] ، ومن المعلوم أن هذا كفر بإجماع المسلمين ،
فلاعتقاد بأن ^(٥) الذكران حلال - بملك أو غير ملك - باطل وكفر بإجماع
المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم .

(١ - ١) : هذه العبارات مضطربة محرفة في الأصل ، وكذا استظهرتها .

(٢) انظر في حكم اللواط : المعنى لابن قدامة ٣١/٩ - ٣٢ (ط . مطبعة العاصمة ، القاهرة ،
بدون تاريخ) ؛ نيل الأوطار للشوكاني ٢٨٦/٧ - ٢٨٨ (ط . المنيرية ، ١٣٤٤) ؛ المحلى لابن حزم
٣٨٠/١١ - ٣٨٦ (ط . المنيرية ، ١٣٥٢) .

(٣) في الأصل : بملوكه ، وهو تحريف .

(٤) انظر : تفسير الطبري (دار المعارف) ٥٨٦/٩ ؛ تفسير ابن كثير ٤٥٧/٥ وقال ابن كثير عن

هذا الأثر : « هذا أثر غريب منقطع » .

(٥) في الأصل : فاعتقاد بيان ، وهو تحريف .

ثم من هؤلاء من يتأول هذه الآية ، ومنهم من يتأول : ﴿ وَاعْبُدُوا مَن خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكِكُمْ ﴾ [سورة البقرة : ٢٢١] ولا يفرق بين المنكوح والناكح ، كما سألتني مرة بعض الناس عن هذه الآية ، وكان ممن يقرأ القرآن ويطلب العلم ، وقد ظن أن معناها إباحة ذكران المؤمنين .

وأخرون قد يجتمع بهم من يقول لهم : إن في هذه المسألة (١) خلافا ، ويكذب / أئمة المسلمين الذين لا تكون مذاهبهم ظاهرة في بلاده ، مثل من يكون بأرض الروم فيكذب على مذهب مالك ويقول : هو مباح في مذهب مالك ، ومنهم من يقول : هذا مباح للضرورة ، مثل أن يبقى الرجل أربعين يوما (٢) ، إلى أمثال هذه الأمور التي خاطبني فيها ، وسألتني عنها ، طوائف من الجند والعامّة والفقراء ، وكان عندهم من هذه الاعتقادات الفاسدة ألوان مختلفة ، قد صدتهم عن سبيل الله .

ظ ١٧٣

ومنهم من قد بلغه خلاف بعض العلماء في وجوب الحد في بعض الصور ، فيظن أن ذلك خلاف في التحريم ، فرمما قال ذلك أو اعتقده ، ولا يفرق بين الخلاف على الحد المقدر والتحريم ، وأن الشيء قد يكون من أعظم المحرمات ، كالدم والميتة ولحم الخنزير ، وليس فيه حدٌ مقدر .

ثم ذلك الخلاف قد يكون قولاً ضعيفاً (٣) ، فيتولد من ذلك القول الضعيف - الذي هو خطأ بعض المجتهدين (٤) ، وهذا (٥) الظن الفاسد الذي هو خطأ بعض الجاهلين - ومن الكذب الذي هو فرية بعض الظالمين ، تبديل

(١) في الأصل : المسلمة .

(٢) أربعين يوماً : كنا بالأصل . والمقصود أن يبقى الرجل أربعين يوماً بدون نكاح .

(٣) في الأصل : معينا ، وهو تحريف .

(٤) في الأصل : المجتهد ، وهو تحريف .

(٥) في الأصل : وهو .

الدين ، وطاعة الشياطين ، وسخط رب العالمين ، حتى نُقل أن كثيرا من الممالك يتمدح بأنه لا يعرف إلا سيده ، كما تتمدح الأمة بأنها لا تعرف إلا سيدها وزوجها ، وكذلك كثير من المردان ^(١) الأحداث يتمدح بأنه لا يعرف إلا خدينه وصديقه أو مؤاخيه ، كما تتمدح المرأة بأنها لا تعرف إلا زوجها . وكذلك كثير من الزناة بالممالك والأحداث من الصبيان ، قد يتمدح بأنه عفيف عمّا سوى خدنه ، الذى هو قرينة كالزوجة ، أو عمّا سوى مملوكه الذى هو قرينه ^(٢) ، كما يتمدح المؤمن بأنه عفيف [إلا] ^(٣) عن زوجته أو ما ملكت يمينه .

ولا ريب أن الكفر والفسوق والعصيان درجات ، كما أن الإيمان والعمل الصالح درجات : ﴿ هُمْ دَرَجَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٦٣] . وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ [سورة التوبة : ٣٧] ، وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ [سورة التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥] وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [سورة الصف : ٥] ، كما قال تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ [سورة إبراهيم : ٢٧] وقال ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ [سورة المائدة : ٦٨] ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ ﴾ [سورة الرعد : ٣٦] .

فالتخذ خدنا من الرجل والنساء أقل شرا من المسافح ، لأن الفساد فى ذلك أقل ، والمستخفى بما يأتيه أقل إنما من المجاهر المستعلن ، كما فى الحديث عن

(١) فى الأصل كأنها : اللصفا . ولعل الصواب ما أثبتته . وانظر : إغاثة اللهفان لابن القيم ، ١٤٦/٢

(ط . الفقى ، القاهرة ١٣٥٨/١٩٣٩) .

(٢) فى الأصل الكلمة غير واضحة كأنها « كربته » ولعل الصواب ما أثبتته .

(٣) زدت « إلا » ليستقيم الكلام .

النبي ﷺ أنه قال : « من ابتلى من هذه القاذورات بشيء فليستتر بستر الله ، فإنه من يبد لنا صفحته نُقِمَ عليه كتاب الله » (١) .

وقد قال ﷺ : « من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة » (٢) .

وفي الحديث : / « إن الخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها ، ولكن إذا أعلنت فلم تنكر ضرت الجماعة » (٣) .

ص ١٧٤

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « كل أمتي معافي إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يبیت (٤) الرجل على الذنب وقد ستره الله ، فيصبح فيتحدث بذنبه (٥) ، ويقول : يا فلان فعلت الليلة كيت وكيت » ، أو كما قال (٦) .

(١) الحديث عن زيد بن أسلم رضى الله عنه في : الموطأ ٢/٨٢٥ (كتاب الحدود ، باب ما جاء فيمن اعترف على نفسه بالزنا) ولفظه : أن رجلا اعترف على نفسه بالزنا فأمر به رسول الله ﷺ فجلد . ثم قال : أيها الناس ، قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله . من أصاب من هذه القاذورات الحديث .

(٢) الحديث بهذا اللفظ جزء من حديث طويل عن أبي هريرة رضى الله عنه في : مسلم ٤/٢٠٧٤ (كتاب الذكر ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن) وأوله : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا الحديث . وهو - مع اختلاف في اللفظ - في : سنن أبي داود ٤/٣٩٣ (كتاب الأدب ، باب في المعونة للمسلم) ؛ سنن ابن ماجة ١/٨٢ (المقدمة ، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم) ٢/٨٥٠ (كتاب الحدود ، باب الستر على المؤمن ودفع الحدود بالشبهات) ؛ سنن الترمذى ٢/٤٣٩ (كتاب الحدود ، باب ما جاء في الستر على المسلم) ؛ المسند (ط . المعارف) ١٣/١٦١ ، ١٥/٨٦ وفي مواضع أخرى فيه .

(٣) ذكر السيوطي في « الجامع الكبير » هذا الحديث بلفظ : « الخطيئة إذا أخفيت لا تضر إلا صاحبها ، وإذا ظهرت فلم تغتبر ضرت العامة » ثم قال السيوطي : « الديلمي عن أبي هريرة » .

(٤) في الأصل : أن يبس (بغير نقط) .

(٥) في الأصل : سبه ، ولعل الصواب ما أثبتته .

(٦) الحديث عن أبي هريرة رضى الله عنه في : البخارى ٨/١٩ - ٢٠ (كتاب الأدب ، باب ستر

المؤمن على نفسه) ونصه : « كل أمتي معافي إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ، =

فالإقلال والاستخفاء خير من هذه الوجوه ، ولكن قد يقترن بها ما يكون أعظم من بعض المسافحة والمجاهرة ، وهي المحبة والتعظيم التي توجب محبة ما يحبه الخدن ، وتعظيم ما يعظمه ، وموالة من يواليه ، ومعاودة من يعاديه ، والاستمرار بذلك والنفاق فيه ، فقد تكون في هذه الموالة والمعاودة والنفاق من العدوان والضرر على المسلمين ، أعظم مما في المجاهرة والمسافحة ، ويكون ^(١) ذلك بمنزلة الكافر المعلن كفره ، وهذا بمنزلة المنافق . فأما إذا لم يكن عدوان على الناس وتضييع لحقوقهم لانتفاء المحبة أو لغير ذلك ، فالأول أخبث وأفحش . وتفاوت الشرور في القدر والصفة كثير ، كما يتفاضل الخير أيضا في القدر والوصف ، والواجب استعمال ^(٢) الكتاب والسنة في جميع الأمور ^(٣) .

ولا ريب أن هذه المخادنة وملك اليمين ونحو ذلك مما فيه اشتراك في محرم مضاد للحلال ، لا بد أن يتضمن من ^(٤) المباح ما يصير فيه من الشبه بالحلال ، و [من] التمييز ^(٥) عن الحرام المحض ما يكون فيه رواج له ، إذ الحرام المحض من كل وجه لا يشتهه بالحلال المحض من كل وجه ، بل يقتنى ^(٦) الرجل المملوك لنوع من الاستخدام ، ويضم إلى ذلك الاستمتاع ، وقد يكون هذا أغلب في نفسه من

= ثم يصبح وقد ستره الله ، فيقول : يا فلان عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه . والحديث أيضا في : مسلم ٢٢٩١/٤ (كتاب الزهد ، باب النهي عن هتك الإنسان ستره) .

(١) في الأصل الكلمة غير واضحة كأنها : مراده . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٢) في الأصل : واستعمال .

(٣) في الأصل كأنها : والدارين .

(٤) في الأصل : في ، وهو تحريف .

(٥) في الأصل : والتمييز . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٦) في الأصل : يقي . ولعل الصواب ما أثبتته .

الآخر ، وقد يكون بالعكس . وذلك الاستخدام قد يكون مباحا في الشريعة ، وقد يكون فيه نوع من الظلم والعدوان ، إما باسترقاق الأحرار ، وإما باشتراء المماليك لنفسه بالمال المغضوب ^(١) من بيت المال أو غيره ، وإما في استخدامهم على وجه الكبرياء والعلو في الأرض بإذلاله لهم ^(٢) في غير طاعة الله ، وإذلال الناس بهم في غير طاعة الله ، إلى أمثال ذلك من الوجوه التي يكون فيها من الظلم والعدوان أمور عظيمة ، وينضم إلى ذلك الفاحشة .

وكذلك في المخادنة التي صورتها مؤاخاة ، قد تكون لأجل الاستئجار لصناعة ونحوها ، وقد تكون لتعلم صناعة أو كتابة أو قراءة أو علم أو تأديب وتنوير ، وغير ذلك من الأمور المباحة والمستحبة والواجبة في الدين ، وقد تكون لكفالة وتربية ، إما ليم ذلك الصبي أو غرته ، أو لقرابة بينهما ، أو غير ذلك ، وقد يكون اشتراكا محضا في صناعة أو تجارة أو بحمل مال ، أو مجاورة وصله ^(٣) ، أو تعلم أو تأديب أو غير ذلك مما يشترك الناس فيه لغير فاحشة بشركة مباحة أو مأمور بها أو منهي ^(٤) عنها ، ويكون بينهم في ذلك من التعاقد والتحالف ما يكون بين المشتركين في الأمور ، وقد يسمى ذلك صديقا ورفيقا ، وسمى بالتركية / خوشداسا وغير ذلك ، وهو من قسم التحالف ، فيكون بين المشتركين في الحلال والحرام ^(٥) من المعاوضة والمشاركة ، [إما] ^(٦) على غير فاحشة ، وإما ^(٧)

ظ ١٧٤

(١) في الأصل : المال لنفسه المغضوب ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٢) في الأصل : بإذلالهم له ، وهو خطأ . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٣) في الأصل الكلمة غير واضحة وكذا استظهرتها .

(٤) في الأصل : أو منهي ، وهو خطأ .

(٥) في الأصل : في المشتركين في الحرم ، والكلام ناقص ، ولعل الصواب ما أثبتته .

(٦) زدت « إما » ليستقيم الكلام .

(٧) في الأصل : إما .

معاوضة بتلك ، فتكون شبهة مع الشهوة . فغالب وقوع المحرمات من هذا الباب ، وقد لُبِسَ فيه الحق بالباطل ، وأشْرِكْ (١) فيه الحق بالباطل .

موقف المؤمن من
الشرور والخيرات وما
يجب عليه حيالها

والمؤمن ينبغي له أن يعرف الشرور الواقعة ، ومراتبها في الكتاب والسنة ، كما يعرف الخيرات الواقعة ، ومراتبها في الكتاب والسنة ، فيفرق [بين] (٢) أحكام الأمور الواقعة الكائنة ، والتي يُراد إيقاعها في الكتاب والسنة ، ليقدم ما هو أكثر خيراً وأقل شراً على ما هو دونه ، ويدفع أعظم الشرين باحتمال أدناهما ، ويحتلب أعظم الخيرين بفوات أدناهما ، فإن من لم يعرف الواقع في الخلق ، والواجب في الدين ، لم يعرف أحكام الله في عبادته ، وإذا لم يعرف ذلك كان قوله وعمله بجهد ، ومن عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح .

وإذا عَرَفَ ذلك فلا بد أن يقترن بعلمه العمل الذي أصله محبته لما يحبه الله ورسوله ، وبغضه لما يبغضه الله ورسوله . وما اجتمع فيه الحبيب والبغض ، المأمور به والمنهى عنه ، أو الحلال والمحظور (٣) ، أعطى كل ذي حق حقه ليقوم الناس بالقسط ، فإن الله بذلك أنزل الكتاب ، وأرسل الرسل ، فالعلم بالعدل قبل فعل العدل .

فإذا علم وأحب (٤) ، كان من تمامه الجهاد عليه ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ ﴾ [سورة الحديد : ٢٥] (٥) ، والعلم

(١) في الأصل : وأشركه .

(٢) زدت « بين » ليستقيم الكلام .

(٣) في الأصل : والمحضور .

(٤) في الأصل : واجب .

(٥) جاءت الآية في الأصل محرفة .

هو طريق إلى العمل وسبب ، كما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلاً ﴾ [سورة الكهف : ٨٤] أى علما .

فالعلم بالخير سبب إلى فعله ، والعلم بالشر سبب إلى منعه ، هذا مع حسن النية ، وإلا فالنفس الأمارة بالسوء قد يكون علمها (١) بالسوء سبب لفعله ، وبالخير سبب لمنعه ، وكذلك الإثم والبغى بغير الحق ، مثل الخمر الذى أتخذ منه أنواع من المسكرات ، وقيل : إنها حلال ، وسُمِّيت بغير أسماء الخمر ، وهى من الخمر .

وكذلك ظلم العباد فى النفوس والأموال والأعراض ، فيه ما قد سمي حقاً وعدلاً (٢) وشرعاً وسياسة وجهاداً فى سبيل الله ، وهو من الكفر والفسوق والعصيان ما لا يخصه إلا الله . وكذلك الإشراك بالله بغير حق ، والقول بما لا يعلم ، مثل أنواع الغلو فى الدين ، واتخاذ العلماء والعباد أرباباً من دون [الله ، والقول] (٣) بتحريم الحلال ، وتحليل الحرام ، وأنواع الإشراك بالمخلوقات : عبادة لها ، واستعانة بها ، وغُلُّوا فيها ، وقولا على الله فى أسمائه وصفاته وأحكامه ما (٤) قد دخل فى ذلك من الباطل الذى سُمِّيَ بأسماء محمودة أو غير مذمومة : كالعبادة ، والزهادة ، والتحقيق ، وأصول الدين ، والفقه ، والعلم ، والتوحيد ، والكلام ، / والفقر والتصوف ما لا يخصه إلا الله (٥) .

ص ١٧٥

ومما ينبغى أن يُعرف أن كل تبديل يقع فى الأديان ، بل كل اجتماع فى العالم ، لابد فيه من التحالف ، وهو الاتفاق والتعاقد على ذلك ، من اثنين فصاعداً .

(١) فى الأصل : عملها ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : وعده . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٣) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .

(٤) بعد « ما » . كتب « وبها » ويبدو أنها زائدة ، ونسى الناسخ حذفها .

(٥) فى أعلى صفحة ١٧٥ إلى اليسار كتب : الرابع .

بنو آدم لا يمكن
عيشهم إلا بالتعاقد
والتحالف

فإن بني آدم لا يمكن^(١) عيشهم إلا بما يشتركون فيه من جلب منفعتهم ودفع مضرّتهم . فاتفاقهم على ذلك هو التعاقد والتحالف .

ولهذا كان الوفاء بالعهود من الأمور التي اتفق أهل الأرض على إيجابها لبعضهم على بعض ، وإن كان منهم القادر الذي لا يوفّي بذلك ، كما اتفقوا في إيجاب العدل والصدق ، فإذا اتفقوا وتعاقدوا على اجتلاب الأمر الذي يحبونه ، ودفع الأمر الذي يكرهونه ، أعان بعضهم بعضا على اجتلاب المحبوب ، ونصر بعضهم بعضا على دفع المكروه ، ولو لم يتعاقدوا بالكلام ، فنفس اشتراكهم في أمر يوجب عليهم اجتلاب ما يصلح ذلك الأمر المشترك ، ودفع ما يضره ، كأهل النسب الواحد ، وأهل البلد الواحد ، فإن التناسب والتجاور يوجب التعاون على جلب المنفعة المشتركة ، ودفع الضرر المشترك .

فصار الاشتراك بينهم تارة يثبت بفعلهم ، وهو التعاقد على ما فيه خيرهم^(٢) ، وتارة يثبت بفعل الله تعالى . وقد جمع الله عز وجل هذين الأصلين في قوله تعالى : ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ [سورة النساء : ١] ، وذكر في هذه السورة [الأمور]^(٣) التي بينهم من جهة الخلق ، وهي من جهة العقود ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ [سورة الفرقان : ٥٤] .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ . وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ [سورة الرعد : ٢٠ ، ٢١] الآية .

(١) في الأصل : لا تمكن .

(٢) بعد كلمة « التعاقد » يوجد في المصورة كلمات غير واضحة كأنها : لعطارد عنها . ولعل ما

أثبتته يستقيم به المعنى .

(٣) زدت « الأمور » ليستقيم الكلام .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ . الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٦ ، ٢٧] .

وإذا كان لا بد في كل ما يشتركون فيه ، من تحالف وغير تحالف ، من التعاون على جلب المحبوب ، والتناصر لدفع المكروه ، فالمحسوب هو الموالي ، والمكروه هو المعادى ، فلا بد لكل بنى آدم من ولاية وعداوة ، ولهذا جميعهم يتباحون بالشجاعة والسماحة ؛ فإن السماحة إعانة على وجود المحبوب بالأموال والمنافع وغير ذلك ، والشجاعة نصر لدفع المكروه بالقتال وغيره ، ولا قوام لشيء من أمور بنى آدم إلا بذلك ، ومبنى ذلك بينهم على العدل في المشاركات والمعاوضات .

فظهر أن جميع أمور بنى آدم لا بد فيها من تعاون بينهم ، ودفع ومنع لغيرهم ، فلا بد لهم من عقد وقدرة ، والعقد أصله الإرادة كما قال تعالى : ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ﴾ [سورة النساء : ١٠] / أى يتعاهدون ويتعاقدون^(١) ، والقدرة : القدرة .

ظ ١٧٥

ومعلوم أنه لا بد في كل فعل من إرادة وقدرة ، والمشتركون لا بد من اتفاقهم في إرادة وفي قدرة . فالذى يناله بعضهم من جلب محبوب ودفع مكروه من بعض ، هو بالإرادة والطوع ، والذى ينالونه من غيرهم من جلب محبوب ودفع مكروه ، وهو بالقدرة على ذلك العدو المكروه منه ، كما أن^(٢) الوطاء^(٣) بملك النكاح الذى هو عقد ، أصله الإرادة والطوع ، ويملك اليمين ، الذى هو قهر بالقدرة على سبيل الكره ، واشترآكهم في الجلب والدفع إما أن يكون تبعا لتعاقدهم ، وإما أن

(١) في تفسير الطبرى للآية عن الضحاك والربيع : اتقوا الله الذى به تعاقدون وتعاهدون .

(٢) في الأصل : كما لو أن

(٣) في الأصل : الوطى .

يكون بأمر أمر مطاع فيهم ، فالأول : هو التحالف . والثاني : ما يطاع بغير تحالف ، سواء كانت طاعته بحق أو بغير حق .

فالذى بحق ما أمر الله بطاعته من أنبيائه وأولى الأمر من المؤمنين ، وطاعة الوالدين ، ونحو ذلك ، وما يُجَاب به بعضهم إلى مراد بعض بحق ، فإن ذلك هو معنى الطاعة ، إذ المقصود بها موافقة المطلوب .

وأما بغير حق فكطاعة الطواغيت ، وهو كل ما عَظُم بباطل .

وكل قوم لا تجمعهم طاعة مطاع في جميع أمورهم ، فلا بد لهم من التعاقد التحالف يكون وفقا
الشريعة منزلة أو شريعة
غير منزلة أو سياسة
والتحالف فيما لم يأمرهم به المطاع .

ولهذا كانت الشريعة المنزلة من عند الله الأفعال فيها التي تجب لله ، وتجب لبعض الناس على بعض : تارة تجب بإيجاب الله ، وتارة تجب بالعقد : كالنذر ، وكعقود المفاوضات والمشاركات ، فلا واجب في الشريعة إلا بشرع أو عقد .

وإذا لم يكونوا على شريعة منزلة من عند الله ، فإما أن يكونوا على شريعة [غير ^(١)] منزلة أو سياسة وضعها بعض المعظمين ^(٢) فيهم بنوع قدرة وعلم ونحو ذلك ، وما بقدرة من هذه الأمور الجامعة أوجب التحالف بينهم ، فإنه لا ينتظم لهم أمر إلا بطاعة أمر متحالفون عليه ، أو يأمرهم به من يطيعونه ، ولهذا أنكر التحالف في الأمم الخارجة عن الشريعة ، وفي الخارجين عنها ، وفي الأمور التي لا تُردُّ إلى الشريعة ، وإنما يظهر ذلك حيث تدرس آثار النبوة المطاعة ، فيتحالف قوم على طاعة مَلِكٍ أو شيخ ، أو طاعة بعضهم لبعض في ^(٣) أمور

(١) زدت « غير » ليستقيم الكلام .

(٢) في الأصل : المعظمين .

(٣) في الأصل : من .

يتفقون عليها ويتحالفون ، كما كان العرب في جاهليتهم (١) يتحالفون . ومنه الحليف الذي يكون في القبيلة / فيصير منهم . ص ١٧٦

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ [سورة النساء : ٣٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [سورة النحل : ٩١ ، ٩٢] .

وكذلك ما يوجد من التحالف بالتآخي وغير التآخي للملوك والمشايخ وأهل الفتوة ورماة البندق ، وسائر المتفقين على بعض الأمور ، هو داخل في هذا . وإيمان (٢) التعاقد والتحالف عام لبني آدم ، وهم في جاهليتهم تارة يتحالفون تحالفاً يجهه الله ، كما قال النبي ﷺ : « لقد شهدت حلفاً مع عمومتي (٣) في دار عبد الله بن جُدعان ما يسرني بمثله حُمُر النَّعَم ، أو قال : [ما] (٤) يسرني حُمُر النَّعَم وأن أنقضه (٥) ، ولو دُعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت » (٦) .

(١) في الأصل : كما كان في العرب جاهليتهم ، وهو تحريف .

(٢) في الأصل : ... هذا إيمان .

(٣) في الأصل : في عمومتي . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبتته . وعبرة « مع عمومتي » جاءت

في حديث آخر ، كما سوف أبينه بعد قليل إن شاء الله .

(٤) زدت « ما » ليستقيم الكلام .

(٥) في الأصل : وإن نقضه . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٦) لم أجد هذا الحديث في كتب السنة ، ولكن جاء في سيرة ابن هشام ١/١٤١ - ١٤٢ =

وفي مثل هذا ما رواه [مسلم] عن [جبير بن مطعم ، عن] النبي ﷺ^(١) أنه [قال :] ^(٢) « لا حلف في الإسلام ، وما كان من حلف في الجاهلية فلم يزد الإسلام إلا شدة » ^(٣) .

= ونصه : « قال ابن إسحاق : فحدثني محمد بن زيد بن المهاجر بن قنفذ التيمي أنه سمع طلحة بن عبد الله ابن عوف الزهري يقول : قال رسول الله ﷺ : لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حُمْر النَّعَم ، ولو ادعى به في الإسلام لأجبت » .

وذكر الخبر ابن سعد في « الطبقات الكبرى » ١٢٨/١ - ١٢٩ (ط . بيروت ، ١٩٥٧/١٣٧٦) ونصه فيه : « قال : وأخبرنا محمد بن عمر قال : فحدثني محمد بن عبد الله عن الزهري عن طلحة بن عبد الله بن عوف عن عبد الرحمن بن أزهر عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ : ما أحب أن لي بحلف حضرته بدار ابن جدعان حُمْر النَّعَم وأنى أغدر به ، هاشم وزهرة وتيمم تحالفوا أن يكونوا مع المظلوم ما بُلَّ بجر صوفة ، ولو دُعيت به لأجبت . وهو حلف الفضول » .

(١) في الأصل : مارواه (كذا) عن جابر عن النبي ﷺ . وكتبت كلمة « كذا » فوق البياض . والصواب ما أثبتته إن شاء الله .

(٢) زدت « قال » ليستقيم الكلام .

(٣) الحديث عن جبير بن مطعم رضى الله عنه في : مسلم ١٩٦٠/٤ (كتاب فضائل الصحابة ، باب مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه رضى الله تعالى عنهم) ونصه فيه : « لا حلف في الإسلام ، وأما حلف كان في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة » . والحديث أيضاً في : سنن أبي داود ١٧٧/٣ - ١٧٨ (كتاب الفرائض ، باب في الحلف) ؛ المسند (ط . الحلبي) ٨٣/٤ .

على أن هذا الحديث يقابله حديث آخر عن أنس رضى الله عنه جاء في : البخارى ٩٦/٣ (كتاب الكفالة ، باب قول الله تعالى : والذين عاقدت أيمانكم) ونصه : « ... حدثنا عاصم ، قال : قلت لأنس رضى الله عنه : أبلغك أن النبي ﷺ قال : لا حلف في الإسلام ؟ فقال : قد حالف النبي ﷺ بين قريش والأنصار في داري . وجاء هذا الحديث أيضاً في : سنن أبي داود ١٧٨/٣ (كتاب الفرائض ، باب في الحلف) وفي مواضع أخرى في كتب السنة .

وقال النووي في شرحه على مسلم ٨١/١٦ - ٨٢ : « قال القاضى : قال الطبرى : لا يجوز الحلف اليوم ، فإن المذكور في الحديث والموارثة به وبالمؤاخاة كله منسوخ لقوله تعالى : « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض » [سورة الأنفال : ٧٥] . وقال الحسن : كان التوارث بالحلف ، فنسخ بأية الموارث . قلت : أما ما يتعلق بالإرث فيستحب فيه المخالفة عند جماهير العلماء . وأما المؤاخاة في الإسلام ، والمخالفة على طاعة الله تعالى ، والتناصر في الدين ، والتعاون على البر والتقوى وإقامة الحق ، فهذا باق لم ينسخ » .

وهذا الحلف يسمى حلف المُطَيِّبِينَ (١) ، كان يقدم إلى مكة من يظلمه بعض أكابرها ، فيستصرخ فلا ينصره أحد ، حتى أنشد بعض القادمين :

يا آل مكة مظلوم بضاعته يبطن مكة بين الركن والحجر

وكان عبد الله بن جدعان (٢) من خيارهم ، فاجتمعت قبائل من قريش في بيته على التحالف للتعاون على العدل ونصر المظلوم ، ووضعوا أيديهم في قصعة فيها طيب ، فسمى حلف المطيبين (٣) .

(١) جاء ذكر حلف المطيبين في مسند أحمد في موضعين الأول ١٢١/٣ - ١٢٢ (ط . المعارف) ونصه : « ... عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف عن النبي ﷺ قال : شهدت حلف المُطَيِّبِينَ مع عمومتى وأنا غلام ، فما أحب أن لي حُمْرُ التَّمَمِ وأنى أنكته . قال الزهري : قال رسول الله ﷺ : لم يُصَبِ الإسلامَ حلفاً إلا زاده شدة ، ولا حلف في الإسلام ، وقد ألف رسول الله ﷺ بين قريش والأنصار » . والحديث الثاني ١٣٦/٣ (ط . المعارف) وهو مختصر للحديث الأول وصحح الشيخ أحمد شاكر الحديثين (والقسم الذي يبدأ بكلام الزهري مرسل) ، وذكر أن الحديث في مجمع الزوائد ١٧٢/٨ وأن ابن كثير نقله في تاريخه ٢٩٠/٢ - ٢٩١ وأن ابن كثير نقل عن البيهقي قوله : « وزعم بعض أهل السير أنه أراد حلف الفضول ، فإن النبي ﷺ لم يدرك حلف المطيبين » ووافق ابن كثير البيهقي (انظر كلامه في ذلك) ، ولكن الشيخ أحمد شاكر رحمه الله خالفه وقال : « ولا شك أن الحلف الذي كان عقيب موت قصي قديم ، ولكن هذا لا ينفي أن يسمى الحلف الذي شهده رسول الله ﷺ « حلف المطيبين » فهو حلف آخر كان قبل البعثة ، ولعله كان توكيداً للحلف القديم . انظر : النهاية ٢٤٩/١ - ٢٥٠ وفيها : « وكان رسول الله ﷺ وأبو بكر رضی الله عنه من المطيبين ، وكان عمر رضی الله عنه من الأحلاف » . ونحو هذا في قاموس الفيروزابادي في مادة (ط ي ب) .

(٢) انظر ما ذكره ابن كثير في تاريخه من أخبار عبد الله بن جدعان ٢١٧/٢ - ٢١٨ = ١١٦/١ - ١١٧ (السيرة النبوية لابن كثير ، تحقيق الأستاذ مصطفى عبد الواحد ، ط . عيسى الحلبي ، ١٣٨٤/١٩٦٤) .

(٣) قال ابن كثير في تاريخه ٢٩١/٢ - ٢٩٢ = السيرة النبوية ٢٥٨/١ - ٢٥٩ : « قالوا : وكان حلف الفضول قبل المبعث بعشرين سنة في شهر ذي القعدة ، وكان بعد حرب الفجار بأربعة أشهر ، وذلك لأن الفجار كان في شعبان من هذه السنة . وكان حلف الفضول أكرم حلف سُمِعَ به ، وأشرفه في العرب ، وكان أول من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب . وكان سببه أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشترها منه العاص بن وائل ، فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف : عبد الدار =

فأما إذا كان القول على الشريعة التي بعث الله بها رسوله في دينهم ودنياهم فإن ذلك يغنيهم عن (١) التحالف إلا عليها ، فعليها يكون تحالفهم وتعاقدهم وتعاونهم وتناصرهم ، كما وصف الله به المحبين المحبوبين في قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ [سورة المائدة : ٥٤] .

وعلى ذلك يُبَايِعُ المطاعون (٢) فيهم من الأمراء والعلماء وغيرهم ، كما قال أبو بكر الصديق في خطبته للمسلمين : « أطيعوني ما أطعت الله [ورسوله] (٣) ، فإذا عصيت الله [ورسوله] (٤) فلا طاعة لي عليكم » (٤) .

= ومخزوماً ومُجْمَحاً وسهماً وعدى بن كعب ، فأبوا أن يعينوا على العاص بن وائل ، وزبروه - أى انتهروه - فلما رأى الزبيدي الشر أوفى على أنى قبيس عند طلوع الشمس ، وقريش في أنديةهم حول الكعبة ، فنادى بأعلى صوته :

يا آل فِهْرٍ لمظلوم بضاعتَه بيطن مكة نائى الدار والنَّصْرِ
ومُحْرَمٍ أشعثٍ لم يقض عُمرته يا للرجال وبين الحجر والحجرِ
إن الحرام لمن تَمَّتْ كرامتُه ولا حَرَامٍ لثوب الفاجر القَيْدِ

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقال : ما لهذا مترك . فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار عبد الله بن جُدعان فصنع لهم طعاماً ، وتحالفوا في ذى القعدة في شهر حرام ، فتعاقبوا وتعاهدوا بالله ليكوننَّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقه ما بَلَّ بَحْرَ صَوْفَةٍ ، ومارسى قَيْبٍ وجرأ مكانها ، وعلى الناسى في العاش . فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول ، وقالوا : لقد دخل هؤلاء في فضلي من الأمر ... » .

(١) في الأصل : يعينهم على . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٢) في الأصل : الطاعون ، وهو تحريف ظاهر .

(٣) ورسوله : ساقطة من الأصل ، وهى من تمام خطبة أنى بكر رضى الله عنه .

(٤) في الأصل : فيكم ، وهو خطأ . وقد أورد ابن كثير في « تاريخه » ٣٠١/٦ الخطبة كاملة وسندها : « وقال محمد بن إسحاق بن يسار ، حدثنى الزهرى ، حدثنى أنس بن مالك قال ... وأول الخطبة : « أما بعد أيها الناس فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم » وقال ابن كثير : « وهذا إسناد صحيح » .

وبذلك أمر الله ورسوله في طاعة أولى الأمر ، فقال النبي ﷺ : « على المرء المسلم السمع والطاعة : في عسره ويسره ، ومنشطه ومكرهه ^(١) ، ما لم يؤمر بمعصية الله ، فإذا أمر بمعصية / الله فلا سمع ولا طاعة » ^(٢) . وقال النبي ﷺ : « إنما الطاعة في المعروف » ^(٣) ، و « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ^(٤) .

وفي الصحيح أن عبد الله بن عمر كتب يبعثه إلى عبد الملك بن مروان لما اجتمع الناس عليه : « لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين ، إني قد أقررت لك بالسمع والطاعة على سنة الله وسنة رسوله فيما استطعت ، وقد أقررتني لما أقررت به » ^(٥) فأخبره أنه يعاقده على ما أمر الله به من الطاعة له في طاعة الله بحسب قدرته ، وهذا واجب عليه بالشرع .

ظ ١٧٦

(١) في الأصل : ومكرهه . والمثبت هو لفظ الحديث .

(٢) جمع ابن تيمية هنا بين حديثين . الأول عن ابن عمر رضى الله عنهما ونصه (في مسلم) : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، إلا أن يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » . وسبق هذا الحديث في المجموعة الأولى ، ص ٢٧٤ ت ٣ . والحديث الثاني عن أنى هريرة رضى الله عنه ، ونصه في مسلم ١٤٦٧/٣ ، (كتاب الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية) : « عليك السمع والطاعة ، في عسرك ويسرك ، ومنشطك ومكرهك ، وأثرة عليك » ، وهو في : سنن النسائي ١٢٦/٧ (كتاب البيعة ، باب البيعة على الأثرة) .

(٣) سبق ورود هذا الحديث في المجموعة الأولى من « جامع الرسائل » ص ٢٧٤ وذكرت نصه وتكلمت عليه في (ت ١) . والحديث أيضا عن عليّ رضى الله عنه في : البخاري ١٦١/٥ (كتاب المغازي ، باب بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني خزيمه) ، ٨٨/٩ (كتاب الآحاد ، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الآذان والصلاة) ؛ سنن أبي داود ٥٥/٣ (كتاب الجهاد ، باب في الطاعة) ؛ سنن النسائي ١٤٢/٧ (كتاب البيعة ، جزاء من أمر بمعصية فأطاع) ؛ المسند (ط . المعارف) ٤٦/٢ ، ٩٨ ، ٢٢١ .

(٤) أورده التبريزي في مشكاة المصابيح ٢ / ٣٢٣ وهو حديث صحيح .

(٥) في الأصل : وقد أمرتني لما أقررت به . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبتته . وجاء هذا الأثر مرتين في : صحيح البخاري ٧٧/٩ ، ٧٨ (كتاب الأحكام ، باب كيف يبائع الإمام الناس) عن عبد الله ابن دينار عن عبد الله بن عمر أنه كتب « إني أقر بالسمع والطاعة لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين على سنة الله وسنة رسوله فيما استطعت ، وإن نبيّ قد أقرروا بذلك » . وجاء الأثر بمعناه في : الموطأ ٩٨٣/٢ (كتاب البيعة ، باب ما جاء في البيعة) .

فهو تعاقد على ما أمر الله بمنزلة نفس الدخول في الإسلام ، وبيعة النبي ﷺ ، كما بايعه الأنصار ، وكما بايعه المسلمون تحت الشجرة ، وكما كان يبايع المسلمين على السمع والطاعة ويلقنهم : فيما استطعتم (١) .

وطاعة الرسول واجبة على الخلق بإيجاب الله بمعاقدتهم على ذلك : معاقدته على طاعة الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ٨١] .

لكن هذا إنما كان ظاهراً في أيام الخلفاء الراشدين ، وبعدهم كثرت العقود الموافقة للشريعة تارة ، والمخالفة لها أخرى ، فلا جرم كان الحكم العام في جميع هذه العقود أنه يجب الوفاء فيها بما كان طاعةً لله ، ولا يجوز الوفاء فيها بما كان معصية لله ، كما قال النبي ﷺ في الأحاديث الصحيحة : « ما بال أقوام يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله ، ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل ، وإن كان مائة شرط . كتاب الله (٢) أحق ، وشرط الله أوثق » (٣) وقال ﷺ : « من نذر أن

(١) جاءت أحاديث متعددة ذكر فيها أن النبي ﷺ كان يقول لصحابته إذا بايعوه على السمع والطاعة (أو يلقنهم) : « فيما استطعت » أو « فيما استطعتن النساء » : « فيما استطعتن وأطقتن » . وانظر هذه الأحاديث المتعددة التي جاءت عن عبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك وأميمة بنت رُقَيْقَةَ رضي الله عنهم جميعاً في : البخارى ٧٧/٩ ، ٧٨ (كتاب الأحكام ، باب كيف يبايع الإمام الناس) ؛ مسلم ١٤٩٠/٣ (كتاب الإمارة ، باب البيعة على السمع والطاعة) ؛ سنن النسائي ١٣٦/٧ - ١٣٧ (كتاب البيعة ، باب البيعة فيما يستطيع الإنسان) ؛ سنن ابن ماجه ٩٥٨/٢ (كتاب الجهاد ، باب البيعة) ؛ الموطأ ٩٨٢/٢ - ٩٨٣ (كتاب البيعة ، باب ما جاء في البيعة) ؛ المسند (ط . المعارف ١٩٣/٧ ، ٢٨٨ - ٢٨٩ ، ١٣٠/٨ ، ١١٢/٩ .

(٢) في الأصل : ما به من شرط كان الله . والتصحيح من روايات الحديث الصحيحة .

(٣) هذا جزء من حديث عن عائشة رضي الله عنها وأولها (وهذا لفظ البخارى ٩٤/١) عن =

يطيع [الله] ^(١) فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه ^(٢) ، وفي السنن « المسلمون على شرطهم ، إلا شرطاً أحلّ حراماً أو حرمّ حلالاً » ^(٣) .
 فأما أمر الدين وما يحبه الله ويقرب إليه ، فليس لعقود بنى آدم فيه أثر ، بل المرجع في ذلك إلى أمر الله ورسوله ، فلا دين إلا ما أمر الله به ، ومن اتبع في ذلك عقود بنى آدم ، فهم الذين اتبعوا شركاءهم ، الذين شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن الله / به ، وهذه حال جميع ما ابتدئ من الدين ، فإن الذى ابتدئ واقفه عليه غيره وحالفه ، فاتخذوه ديناً ، فتدين هذا فيه يظهر حال جميع [أهل] ^(٤) البدع المخالفة للكتاب والسنة وأن ^(٥) الموافقة عليها هي من هذا الباب .

ص ١٧٧

= عائشة قالت : أتتها بريرة تسألها في كتابتها . فقالت : إن شئت أعطيت أهلك ويكون الولاء لى فلما جاء رسول الله ﷺ ذكرته ذلك ، فقال : « ابتاعها فأعتقها ، فإن الولاء لمن أعتق » ثم قام رسول الله ﷺ على المنبر ... الحديث . وهو في : البخارى ٩٤/١ (كتاب الصلاة ، باب ذكر البيع والشراء على المنبر في المسجد) وهو في مواضع أخرى في البخارى ١٢٤/٨ ؛ مسلم ١١٤٢/٢ - ١١٤٣ (كتاب العتق ، باب إنما الولاء لمن أعتق) ؛ سنن أبى داود ٢١/٤ (كتاب العتق ، باب في بيع المكاتب إذا فسخت الكتابة) ؛ سنن النسائى ٢٦٨/٧ (كتاب البيوع ، باب بيع المكاتب) ؛ سنن ابن ماجه ٨٤٢/٢ - ٨٤٣ (كتاب العتق ، باب المكاتب) ؛ الموطأ ٧٨٠/٢ - ٧٨١ (كتاب العتق ، باب مصير الولاء لمن أعتق) ؛ المسند (ط . الحلبي) ٨٢/٦ .
 (١) لفظ الجلالة غير موجود بالأصل .

(٢) الحديث عن عائشة رضى الله عنها في : البخارى ١٤٢/٨ (كتاب الأيمان والنذور ، باب النذر في الطاعة ، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية) ؛ سنن أبى داود ٢٣٢/٣ (كتاب الأيمان والنذور ، باب ما جاء في النذر في المعصية) ؛ سنن النسائى ١٦/٧ (كتاب الأيمان والنذور ، باب النذر في الطاعة ، باب النذر في المعصية) ؛ سنن ابن ماجه ٦٨٧/١ (كتاب الكفارات ، باب النذر في المعصية) ؛ الموطأ ٤٧٦/٢ (كتاب النذور ، باب ما لا يجوز من النذور في معصية الله) ؛ المسند (ط . الحلبي) ٣٦/٦ ، ٤١ ، ٢٢٤ .
 (٣) هذا جزء من حديث عن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده رضى الله عنه في : سنن الترمذى ٤٠٣/٢ (كتاب الأحكام ، باب ما ذكر عن رسول الله ﷺ في الصلح بين الناس) . وأول الحديث : « الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالاً أو أحل حراماً ، والمسلمون على شروطهم ... الحديث . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » وذكر المبار كפורى في شرحه ٥٨٤/٤ - ٥٨٥ (ط . السلفية ، المدينة المنورة ، ١٩٦٥/١٣٨٥) أقوال العلماء في هذا التصحيح وخلاصتها أن طرق الحديث يشهد بعضها لبعض وأقل أحوالها أن يكون المتن الذى اجتمعت عليه حسناً .

(٤) زدت « أهل » ليستقيم الكلام .

(٥) في الأصل : أن .

وأكثر ما ينفق بين المسلمين ما فيه حق وباطل ، إذ الباطل المحض لا يبقى بينهم ، وذلك يتضمن التحالف على غير ما أمر الله به ، والتبديل لدين الله بما لبس من الحق بالباطل ، وهذه حال اليهود والنصارى وسائر أهل الضلال ، فإنهم عدلوا عما أمرهم الله باتباعه ، فلبسوه بباطل ابتدعوه ، بدلوا به دين الله ، وتحالفوا على ذلك الذى ابتدعوه .

وأما المعاملات فى الدنيا فالأصل فيها أنه لا يحرم منها إلا ما حرّمه الله ورسوله ، فلا حرام إلا ما حرّم الله ، ولا دين إلا ما شرعه . وإذا لم يحرم إلا ما حرّمه الله ورسوله فكأن ما كان بدله بدون التعاقد يجب بالتعاقد ، فإن العقد يوجب على كل واحد من المتعاضدين والمشاركين ما أوجبه الآخر على نفسه له ، ولهذا قال

النبي ﷺ : « المسلمون على شروطهم إلا شرطاً أحلّ حراماً ، أو حرّم حلالاً » . المسلمون على شروطهم

إلا شرطاً أحلّ حراماً

أو حرّم حلالاً

وهذا الموضع كثر (١) فيه غلط كثير من الفقهاء بتحريم عقود وشروط لم يحرمها الله ، كما كثر (٢) فى الأول غلط كثير من العبّاد والعلماء بابتداع دين لم يشرعه الله ، وإيجابه بالتعاقد عليه ، حتى يوجبون طاعة شخص معين ميت أو حي من العلماء فى كل شىء ، ويحرمون طاعة غيره فى كل شىء نازعه فيه ، لمجرد عقد العامى الذى انتسب إلى هذا دون هذا .

وكذلك فى المشايخ ، حتى قد يأمرونه بمخالفة ما تبين له من الشريعة لأجل العقد الذى التزمه للمذهب والطريقة ، فيشترطون شروطاً ليست فى كتاب الله ، ويأمرون بطاعة المخلوق فى معصية الخالق ، وأكثر ذلك يدخله نوع من الاجتهاد

(١) فى الأصل : كبير ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : كبر ، وهو تحريف .

الظاهر الذى فيه نوع من أتباع الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى .

والواجب فى جميع هذه الأمور أن ما يتبين أنه طاعة لله ورسوله وجب أتباعه ، وما اشتبه على الإنسان حاله سلك فيه مسلك الاجتهاد بحسب قدرته ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، واجتهاد العامة هو طلبهم للعلم من العلماء بالسؤال والاستفتاء بحسب إمكانهم .

فإذا كان جميع ما عليه بنو (١) آدم لا بد فيه من تعاون وتناصر ، وفيه ما هو شرك بالله ، وفيه ما هو قول على الله بغير علم ، وفيه ما هو إثم وبغى ، وفيه ما هو من الفواحش - علم أنه لا بد فى الإيمان من التعاون والتناصر على فعل ما يحبه الله تعالى ، ودفع ما يبغضه الله تعالى ، وهذا / هو الجهاد فى سبيله ، وأن أمر الإيمان لا يتم بدون ذلك ، كما لا يتم غير الإيمان إلا بما هو من نوع ذلك .

ظ ١٧٧

فكل المتعاونين المتناصرين يجاهدون ، ولكن فى سبيل الله تارة ، وفى سبيل غير الله تارة ، ولا صلاح لبنى آدم إلا بأن يكون الدين كله لله ، وتكون كلمة الله هى العليا .

قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [سورة الأنفال : ٣٩] وهؤلاء الذين تولوا الله فتولاهم (٢) الله ، والذين يدينون لغير الله هم ظالمون بتولى بعضهم بعضا ، كما قال تعالى : ﴿ تُمْ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة الجاثية :

(١) فى الأصل : بنى .

(٢) فى الأصل : يولاهم .

١٨، ١٩] ، ولا يتم للمؤمن ذلك إلا بأن يجمع بين ما جمع الله بينه ، ويفرق بين ما فرّق الله بينه ، وهذه حقيقة الموالاة والمعاداة ، التي مبناها على المحبة والبغضة .

فالموالاة تقتضى التحاب ^(١) والجمع ، والمعاداة تقتضى التباغض والتفرق . والله سبحانه قد ذكر الموالاة والجمع بين المؤمنين ، فقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٥٥] . وذكر العداوة بينهم وبين الكفار فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٥١] ثم ذكر حال المستنصرين بهم ^(٢) فإن الموالاة موجبه التعاون والتناصر .

فلا يُفرّق بين المؤمنين لأجل ما يتميز به بعضهم عن بعض ، مثل الأنساب والبلدان ، والتحالف على المذاهب والطرائق والمسالك والصدقات وغير ذلك ، بل يُعطى كلٌّ من ذلك حقه ، كما أمر الله ورسوله ، ولا يُجمع بينهم وبين الكفار الذين قطع الله الموالاة بينهم وبينه ، فإن دين الله هو الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

والله سبحانه أرسل رسله بالبينات ، وأنزل معهم الكتاب والميزان ، ليقوم الناس بالقسط ، فيحتاج المؤمن إلى معرفة العدل ، وهو الصراط المستقيم ، وإلى العمل به ، وإلا وقع إما في جهل وإما في ظلم .

(١) في الأصل : التجات ، وهو تحريف .

(٢) وهو قوله تعالى في الآية التالية : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنفُسِهِمْ تَادِمِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٥٢] . وانظر تفسير الطبرى للآية ١٠/٤٠٢ - ٤٠٧ (ط . المعارف) .

وذلك إنما وقع من التبديل والعقود الفاسدة ، كما ذكرنا من لبس الحق بالباطل ، حيث صارت المحرّمات : من الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير / الحق ، والإشراك بالله ما لم يُنزل به سلطانا ، والقول على الله بغير علم - قد لبس بها من الحق المأذون فيه ما صارت بسببه شبيهة ^(١) للحق الحسن ، وإن كانت مشتملة مع ذلك على الباطل السيئ ، وإن صار أصحابها بين عمل صالح وآخر سيئ ، فقوم ينكرون ذلك كله لما علموا فيه من المنكر البغيض ، وأقوام يقرّون ذلك كله لما فيه من المحبوب .

ص ١٧٨

وهذه القاعدة قد ذكرناها غير مرة ، وهي اجتماع الحسنات والسيئات ، والثواب والعقاب ، في حق الشخص الواحد ، كما عليه أهل جماعة المسلمين من جميع الطوائف ، إلا من شدّ عنهم من الخوارج والوعيدية ، من المعتزلة ونحوهم ، وغالب المرجئة .

فإن هؤلاء ليس للشخص عندهم إلا [أن] ^(٢) يثاب أو يُعاقب ، محمود من كل وجه ، أو مذموم من كل وجه . وقد بيّنا فساد هذا في غير هذا الموضع ، بدلائل كثيرة من الكتاب والسنة ، وإجماع الأمة ، وذكرنا أيضا الكلام ^(٣) في الفعل الواحد نوعا وشخصا ^(٤) .

والغرض هنا أن هؤلاء الذين لبسوا الحق والباطل ، حصل في مقابلتهم من أعرض ^(٥) عن الحق والباطل جميعا ، فصار هؤلاء مذمومين على فعل السيئات ،

(١) في الأصل : سببه شبهه . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٢) زدت « أن » ليستقيم الكلام .

(٣) في الأصل : في الكلام .

(٤) انظر ما ذكره ابن تيمية في ذلك في كتابه « الإيمان » .

(٥) في الأصل : مع من أعرض .

محمودين على فعل الحسنات ، وأولئك يُذمُّون على ترك الحسنات الواجبات ، ويمدحون على ما قصدوا تركه الله من السيئات .

وسبب ذلك أن الإنسان فيه ظلم وجهل ، فإذا غلب عليه رأى أو حُلُق ، استعمله في الحق والباطل جميعا ، لم يحفظ حدود الله . ولهذا يأمر الله بحفظ حدوده .

مثال ذلك أن من الناس من يكون في خلقه سماحة ولين ومحبة ، فيسمح بمحبته وبتعظيمه ونفعه وماله للحسن الذي يحبه الله ويأمر به ، كمحبة الله ورسوله وأوليائه المؤمنين ، والإنفاق في سبيله ، ونحو ذلك . ويسمح أيضا بمحبة الفواحش والإنفاق [فيها] ^(١) ، فتجده ^(٢) يحب الحق والباطل جميعا ، ويصدق بهما ، ويعين عليهما .

ومنهم من يكون في خلقه قوة ، فيمتنع من فعل الفواحش ويبغضها ، ويمتنع مع ذلك من محبة نفع الناس والإحسان إليهم والحلم عن سيئاتهم ، فتجده يبغض الحق والباطل جميعا ، ويكذب بهما ، ولا يعين على واحد منهما ، بل ربما صدَّ عنهما .

وذلك لأن النفس أمارة بالسوء ، والشيطان يزيِّن للمرء سوء عمله فيراه حسنا ، وهو متبع هواها . وما فيها من العلم والإيمان [يدعوه إلى الخير حتى] تذهب الحسنات بالسيئات ^(٣) ، وإنما يفعل من الحسنات ما أقبلت عليه ^(٤) إرادته ومحبته / دون ما أبغضته .

ظ ١٧٨

(١) زدت « فيها » ليستقيم الكلام .

(٢) في الأصل : فيجده .

(٣) في الأصل : والإيمان يجب أن تذهب الحسنات بالسيئات . ولعل ما أثبتته يستقيم به

الكلام .

(٤) في الأصل : ما تيسر عليها . ولعل الصواب ما أثبتته .

وفي الإنسان قوتان : قوة الحب ، وقوة البغض . وإنما خلق ذلك فيه ليحب الحق الذي يحبه الله ، ويبغض الباطل الذي يبغضه الله ، وهؤلاء هم الذين يحبه الله ويحونه .

والنفس تميل إلى الإشراك بحسب الإمكان ، فإذا غلب على النفوس قوة المحبة لما يناسبها ، فأحبت الحق ، فقد تنجذب ^(١) بسبب ذلك إلى محبة ما يقارنه من الباطل .

ومن هنا مال كثير من النساك إلى محبة الأصوات والصور وغير ذلك ، بسبب ما فيهم من المحبة ، التي فيها ما هو لله ، لكن لبسوا فيها الحق بالباطل . وكذلك قد يكون الشخص بالمحبة يميل إلى شهوات الغي في بطنه وفرجه وإنفاق الأموال فيها ، ثم إنه بسبب ما فيه من الحب والدين يجب الحق وأهله ويعظمهم . فتجد ^(١) كثيرا من أهل الشهوات ، وفيهم من المحبة لله ورسوله ما لا يوجد في كثير من النساك ، كما قال النبي ﷺ في حمار الذي كان يشرب الخمر كثيرا : « لا تلعنه ، فإنه يحب الله ورسوله » والحديث في صحيح البخارى وغيره ^(٢) .

فصل

وإذا كان كل عمل أصله المحبة والإرادة ، والمقصود [منه] التمتع ^(٣) بالمراد المحبوب ، فكل حى إنما يعمل لما فيه تنعمه ولذته ، فالتنعم هو المقصود الأول من كل قصد ، كما أن التعذب والتألم هو المكروه أولا [وهو سبب] كل بغض ^(٤) وكل

المقصود الأول
من كل عمل
هو التمتع واللذة

(١) في الأصل : فيجرا ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٢) مضى الحديث في هذه القاعدة من قبل (ص : ٢٥٨ - ٢٥٩) .

(٣) في الأصل : والمقصود والتمتع . وكتب كلمة « كذا » فوق كلمة « التمتع » . ولعل الصواب

ما أثبتته .

(٤) في الأصل : أولا فكل بغض إلخ . ولعل الصواب ما أثبتته .

حركة امتناع . لكن وقع الجهل والظلم في بنى آدم ، فعمدوا إلى الدين الفاسد (١) والدنيا الفاجرة : طلبوا بهما النعيم ، وفي الحقيقة فإنما فيهما (٢) ضده .

وبيان ذلك أن الأعمال التي يعملها جميع بنى آدم إما أن يتخذونها ديناً ، أو لا يتخذونها ديناً . والذين يتخذونها ديناً إما أن يكون الدين بها دين حق ، أو دين باطل . فنقول (٣) : النعيم التام هو (٤) في الدين الحق .

النعيم التام هو
في الدين الحق

فأهل الدين الحق هم الذين لهم النعيم الكامل ، كما أخبر الله بذلك في كتابه في غير موضع ، كقوله : ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [سورة الفاتحة : ٦ ، ٧] .

وقوله عن المتقين المهتدين : ﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٥] .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴾ [سورة طه : ١٢٣ - ١٢٦] .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

[سورة البقرة : ٢٨] .

(١) في الأصل العبارة مضطربة ومحرقة كأنها : في بنى آدم يحتمل بالدين الفاسد ... إلخ .
ولعل ما أثبتته يستقيم به الكلام .
(٢) في الأصل : فيها .
(٣) في الأصل : فيقول .
(٤) في الأصل : هي .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [سورة

الانفطار : ١٣ ، ١٤] .

وَوَعَدُ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ / الصَّالِحِ بِالنَّعِيمِ التَّامِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَوَعَدُ
الْكَفَّارِ بِالْعَذَابِ التَّامِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ (١) يَذْكَرَ هُنَا ، وَهَذَا مِمَّا لَمْ
يُنَازَعُ فِيهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ .

ص ١٧٩

ولكن تذكر (٢) هنا نكتة نافعة ، وهو أن الإنسان قد يسمع ويرى
ما يصيب كثيراً من أهل الإيمان والإسلام في الدنيا من المصائب ، وما يصيب
كثيراً من الكفار والفجار في الدنيا من الرياسة والمال وغير ذلك ، فيعتقد أن النعيم
في الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور ، وأن المؤمنين ليس لهم في الدنيا
ما ينتعمون به إلا قليلاً ، وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة قد تستقر للكفار
والمنافقين على المؤمنين . وإذا سمع ما جاء في القرآن من أن العزة لله ورسوله
وللمؤمنين ، وأن العاقبة للتقوى ، وقول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ ﴾
[سورة الصافات : ١٧٣] وهو ممن يصدّق بالقرآن - حمل هذه الآيات على الدار
الآخرة فقط ، وقال : أما الدنيا فما نرى بأعيننا [إلا] (٣) أن الكفار والمنافقين فيها
يظهرون ويغلبون المؤمنين ، وهم العزة والنصرة ، والقرآن لا يردُّ بخلاف المحسوس ،
ويعتمد على هذا فيما إذا أدبيل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين أو الظالمين ،
وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوى ، فيرى أن صاحب الباطل قد علا (٤)

من الخطأ الظن
بأن نعيم الدنيا
لا يكون إلا لأهل
الكفر والفجور

(١) في الأصل : أعظم ممن .

(٢) في الأصل : يذكر .

(٣) زدت « إلا » ليستقيم الكلام .

(٤) في الأصل : على .

على صاحب الحق ، فيقول : أنا على الحق وأنا مغلوب ، وإذا ذكره [إنسان] ^(١) بما وعده الله من حسن ^(٢) العاقبة للمتقين ، قال : هذا في الآخرة فقط . وإذا قيل له : كيف يفعل الله بأوليائه مثل هذه الأمور ؟ قال : يفعل ما يشاء ، وربما قال بقلبه أو لسانه ، أو كان حاله يقتضى أن هذا من نوع الظلم ، وربما ذكر قول بعضهم : ما على الخلق أضر من الخالق ، لكن يقول : يفعل الله ما يشاء . وإذا ذُكر برحمة الله وحكمته لم يقل ^(٣) إلا أنه يفعل ما يشاء . فلا يعتقدون أن ^(٤) صاحب الحق والتقوى منصور ومؤيد ^(٥) ، بل [يعتقدون أن الله] ^(٦) يفعل ما يشاء .

وهذه الأقوال مبنية على مقدمتين : إحداهما : حسن ظنه بدين نفسه / نوعا أو شخصا ^(٧) واعتقاد أنه قائم ^(٨) بما يجب عليه ، وتارك ما نهى عنه في الدين الحق ، واعتقاده في خصمه ونظيره خلاف ذلك : أن ^(٩) دينه باطل نوعا أو شخصا ، [لأنه] ^(١٠) ترك المأمور وفعل المحظور .

والمقدمة الثانية : أن الله قد لا يؤيد صاحب الدين الحق وينصروه . وقد لا يجعل له العاقبة في الدنيا ، فلا ينبغي الاعتراض بهذا .

(١) زدت « إنسان » ليستقيم الكلام .

(٢) في الأصل : حق ، وهو تحريف .

(٣) في الأصل : لم يستعد .

(٤) في الأصل : فلا يعتمدون على . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٥) في الأصل : موبدا ، وهو تحريف .

(٦) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .

(٧) في الأصل : تسوعا أو سحضا ، وهو تحريف .

(٨) في الأصل : قائما ، وهو خطأ .

(٩) في الأصل : أنه .

(١٠) زدت « لأنه » ليستقيم الكلام .

ومن المعلوم أن العبد وإن أقر بالآخرة فهو يطلب حسن (١) عاقبة الدنيا ، فقد يطلب ما لا بد منه من دفع الضرر ، وجلب المنفعة ، وقد يطلب من زيادة النفع ودفع الضرر ما يظن أنه مباح ، فإذا اعتقد أن الدين الحق قد يتأني ذلك لزم من ذلك إعراض القلب عن الرغبة في كمال الدين الحق ، وفي حال السابقين والمقربين ، بل قد يعرض عن حال المقتصدین أصحاب اليمين ، فيدخل مع الظالمين ، بل قد يكفر ويصير من المرتدين المنافقين أو المعلنين بالكفر ، وإن لم يكن هذا في أصل الدين كان في كثير من أصوله وفروعه ، كما قال النبي ﷺ : « يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا ، أو يمسى مؤمنا ويصبح كافرا ، يبيع دينه بعرض من الدنيا » (٢) ، وذلك إذا اعتقد أن الدين لا يحصل إلا بفساد دنياه ، ولذلك فإنه يفرح بحصول الضرر له ويرجو ثواب ضياع ما لا بد له من المنفعة (٣) .

وهذه الفتنة التي (٤) صدت أكثر بنى آدم عن تحقيق الدين ، وأصلها الجهل بحقيقة الدين ، وبحقيقة النعيم ، الذي هو مطلوب النفوس في كل وقت ، إذ قد ذكرنا أن كل عمل فلا بد فيه من إرادة به لطلب ما ينعم ، فهناك عمل يُطلب به النعيم ، ولا بد أن يكون المرء عارفا (٥) بالعمل الذي يعمله ، وبالنعيم الذي يطلبه .

(١) في الأصل : من . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٢) الحديث عن أبي هريرة رضى الله عنه وأوله (في مسلم) : « بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل ... الحديث وهو في : مسلم ١١٠/١ (كتاب الإيمان ، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن) ؛ المسند (ط . المعارف) ١٧٩/١٥ - ١٨٠ ، (ط . الحلبي) ٣٧٢/٢ .

(٣) في الأصل العبارة سقيمة ونصها : دنياه لحصول ضرره يحتمل ثواب ما لا بد منه من المنفعة . وأرجو أن تكون العبارات التي أثبتتها أقرب شيء إلى ما قصده ابن تيمية .

(٤) في الأصل : الذي .

(٥) في الأصل : فالذي يطلب به النعيم فلا بد أن يكون المرء عارف ، ولعل الصواب

ما أثبتته .

ثم إذا عَلِمَ هذين الأصليين ، فلا بد أن تكون فيه إرادة جازمة على العمل بذلك ، وإلا فالعلم بالمطلوب وبطريقه لا يحصلان المقصود إلا مع الإرادة الجازمة (١) . والإرادة الجازمة لا تكون إلا مع الصبر ، ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَالْعَصْرُ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [سورة العصر : ١-٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [سورة السجدة : ٢٤] .

فاليقين هو العلم الثابت المستقر ، والصبر [لا بد منه لتحقيق الإرادة الجازمة] (٢) .

والمقدمتان اللتان (٣) التي بنيت عليهما هذه البلية ميناها (٤) على الجهل بأمر الله ونبيه ، / وبوعده ووعيده . فإن صاحبهما (٥) إذا اعتقد أنه قائم بالدين الحق ، فقد اعتقد أنه فاعل للأمر (٦) ، تارك للمحذور ، [وهو على العكس من ذلك] (٧) ، وهذا يكون من جهله بالدين الحق .

من الخطأ الاعتقاد أن
الله ينصر الكفار
في الدنيا
ولا ينصر المؤمنين

وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصره الله في الدنيا ، بل قد تكون العقوبة في الدنيا للكفار على المؤمنين ، ولأهل الفجور على أهل البر - فهذا من جهله بوعده الله تعالى .

(١) في الأصل : وبطريقه لا يحصله إن لم يعلم ، وهو كلام لا يستقيم ، ولعل ما أثبتته أقرب شيء إلى المقصود .

(٢) في الأصل : والصبر الصبر . ولعل ما أثبتته بين معقوفتين يستقيم به الكلام .

(٣) في الأصل : والمقدمتان المقدمتان التي ، وهو تحريف ، ولعل الصواب نا أثبتته .

(٤) في الأصل : ميناها .

(٥) في الأصل : صاحبها .

(٦) في الأصل : فقد اعتقد أنه قائم بالأمر ، ولعل الصواب ما أثبتته .

(٧) ما بين المعقوفتين زده ليستقيم الكلام .

أما الأول ، فما أكثر من يترك واجبات لا يعلم بها ولا بوجودها ، وما أكثر من يفعل محرمات لا يعلم بتحريمها ، بل ما أكثر من يعبد الله بما حرم ويترك ما أوجب ، وما أكثر من يعتقد أنه هو المظلوم الحق من كل وجه ، وأن خصمه هو الظالم المبطل من كل وجه ، ولا يكون الأمر كذلك ، بل يكون معه نوع من الباطل والظلم ، ومع خصمه نوع من الحق والعدل .

وحبك الشيء يعنى ويصم ، والإنسان مجبول على محبة نفسه ، فهو لا يرى إلا محاسنها ، ومبغض لخصمه ، فلا يرى إلا مساوته . وهذا الجهل غالبه مقرون بالهوى والظلم ، فإن الإنسان ظلوم جهول .

وأكثر ديانات الخلق إنما هى عادات أخذوها عن آبائهم وأسلافهم ، وتقليدهم فى التصديق والتكذيب ، والحب والبغض ، والمالاة والمعاداة .

كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [سورة لقمان : ٢١] وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ ثَقُلَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ . وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ [سورة الأحزاب : ٦٦ ، ٦٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [سورة الشورى : ١٤] (١) .

وأما الثانى ، فما أكثر من يظن أن أهل الدين الحق فى الدنيا يكونون أذلاء معذيين بما فيه ، بخلاف من فارقهم إلى طاعة أخرى وسبيل آخر ، ويكذب بوعد الله بنصرهم .

(١) جاءت الآيات السابقة فى الأصل معرفة .

والله سبحانه قد بين بكتابه كلا المقدمتين فقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا
وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [سورة غافر : ٥١] .

وقال تعالى في كتابه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ
لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وَإِن جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ ﴾ [سورة الصافات : ١٧١ - ١٧٣] .

وقال تعالى في كتابه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ
الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [سورة المجادلة : ٥] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذْلِينَ . كَتَبَ
اللَّهُ لِلْغَالِبِينَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [سورة المجادلة : ٢٠ ، ٢١] .

/ وقال تعالى في كتابه : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ
يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ
آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْعَالِيُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٥٥ ، ٥٦] .

وذم من يطلب النصرة بولاء غير هؤلاء ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ
مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ
فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ
فَيُضِيعُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ . وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلَؤُلَاءِ الَّذِينَ
أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾
[سورة المائدة : ٥١ - ٥٣] .

وقال تعالى في كتابه : ﴿ بَشِّرِ الْمُتَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمُ عَذَابًا أَلِيمًا . الَّذِينَ
يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلِيتَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ
جَمِيعًا ﴾ [سورة النساء : ١٣٨ ، ١٣٩] .

وقال تعالى في كتابه : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة

المنافقون : ٨] .

وقال تعالى في كتابه : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ ﴾ [سورة فاطر : ١٠] .

وقال في كتابه : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ [سورة الفتح : ٢٨] .

وقال تعالى في كتابه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنَجِّيْكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ • تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ • يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ • وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ • يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ فَأَيْدِنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عُدُوِّهِمْ فَاصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [سورة

الصف : ١٠ - ١٤] .

وقال تعالى في كتابه : ﴿ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قُمْ وَرَأْفِعْكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [سورة

آل عمران : ٥٥] .

وقال تعالى في كتابه : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [سورة الفتح : ٢٢ ، ٢٣] .

وقال تعالى في كتابه : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ [سورة الحشر : ٢] إلى قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [سورة الحشر : ٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٣٩] .

وقَالَ تعالى لما قص قصة نوح ، وهى نصره على قومه فى الدنيا ، فقال تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة هود : ٤٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ [سورة طه : ١٣٢] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ [سورة آل عمران : ١١٨] إلى قوله ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [سورة آل عمران : ١٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٢٥] .

وقال يوسف وقد نصره الله فى الدنيا لما دخل عليه إخوته : ﴿ قَالُوا أَتِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا إِخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٩٠] .

وقال تعالى في كتابه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا
وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [سورة الأنفال : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ
شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [سورة الطلاق ، ٢ ، ٣] .

وقد روى عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال : « لو عمل الناس كلهم بهذه
الآية لوسعتهم » رواه ابن ماجه وغيره (١) .

وأخبر أن ما يحصل له من مصيبة انتصار العدو وغيرها ، إنما هو بذنوبهم ،
/ فقال تعالى في يوم أحد : ﴿ أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلِهَا قُلْتُمْ أَنَّى
هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [سورة آل عمران : ١٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ
الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ [سورة آل عمران : ١٥٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ
كَثِيرٍ ﴾ [سورة الشورى : ٣٠] .

(١) الحديث عن أبي ذر الغفاري رضى الله عنه في : سنن ابن ماجه ١٤١١/٢ (كتاب الزهد ،
باب الورع والتقوى) ونصه : « حدثنا هشام بن عمار وعثمان بن أبي شيبة ... عن أبي ذر قال قال رسول
الله ﷺ : « إني لأعرف كلمة (وقال عثمان : آية) لو أخذ الناس كلهم بها لكفتمهم » قالوا : يا رسول الله ،
آية آية ؟ قال : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا » . قال المعلق : « في الزوائد : هذا الحديث رجاله ثقات ، غير
أنه منقطع ، وأبو السليل لم يدرك أبا ذر ، قاله في التهذيب » . وذكر ابن كثير الحديث في تفسير الآية وزاد :
« قال : فجعل يتلوها ويردها على حتى نعست . ثم قال : « يا أبا ذر كيف تصنع إذا خرجت من
المدينة ؟ الحديث » .

وقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ

نَفْسِكَ ﴾ [سورة النساء : ٧٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [سورة الروم : ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ أَوْ يُوبِقَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ [سورة الشورى : ٣٤] .

وذم في كتابه من لا يثق بوعده لعباده المؤمنين ، وذكر ما يصيب الرسل
والمؤمنين ، فقال تعالى : ﴿ إِذْ جَاؤُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ
الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ
وَزُلْزِلُوا زَلِيلًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ
وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا . وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا
وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا
فِرَارًا . وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوَّهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا
يَسِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب : ١٠ - ١٤] .

وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا
مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ
مَتَى نَصَرَ اللَّهُ الْآلَ إِن نَّصَرَ اللَّهُ قَرِيبٌ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٤] .

[وقال تعالى :] ^(١) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ
أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا
أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى مَنْ نَّشَاءُ وَلَا يَرِيْدُ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ

الْمُجْرِمِينَ . لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى
وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿ [سورة يوسف : ١٠٩ - ١١١] .

ولهذا أمر الله رسوله والمؤمنين باتباع ما أنزل إليهم ، وهو طاعته ، وهو
المقدمة الأولى . وأمرهم / بانتظار وعده ، وهي المقدمة الثانية . وأمرنا بالاستغفار
والصبر ، لأنهم لابد أن يحصل لهم تقصير وذنوب ^(١) فيزيله الاستغفار ، ولا بد مع
انتظار الوعد من الصبر ، فبالاستغفار تتم الطاعة ، وبالصبر ^(٢) يتم اليقين بالوعد ،
وإن كان هذا كله يدخل في مسمى الطاعة والإيمان .

ص ١٨٢

قال تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ
الْحَاكِمِينَ ﴾ [سورة يونس : ١٠٩] .

وقال ^(٣) تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا
وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِيِّ الْمُرْسَلِينَ ﴿
[سورة الأنعام : ٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة هود : ٤٩] .

وأمرهم أيضا بالصبر إذا أصابهم مصيبة بذنوبهم ، مثل ظهور العدو ، وكما
قال تعالى في قصة أُّحد : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ . إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا
بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ

(١) في الأصل : من نصر وسكون ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٢) في الأصل : فالاستغفار يتم الطاعة ، والصبر ...

(٣) في الأصل : قال .

الظَّالِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿ [سورة آل عمران : ١٣٩ -

. [١٤١]

وأيضاً فقد قص سبحانه في كتابه نصره لرسله ولعباده المؤمنين على الكفار في قصة نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وفرعون وغير ذلك . وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة يوسف : ١١١] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [سورة النور :

. [٣٤]

وهذا يتبين بأصلين : أحدهما أن حصول النصر وغيره من أنواع النعيم لطائفة أو شخص لا ينافي ما يقع في خلال ذلك من قتل بعضهم وجرحه ومن أنواع الأذى ، وذلك أن الخلق كلهم يموتون ، فليس في قتل الشهداء مصيبة زائدة على ما هو معتاد لبنى آدم ، فمن عد القتل في سبيل الله مصيبة مختصة بالجهاد كان من أجهل الناس ، بل الفتن التي تكون بين الكفار وتكون بين المختلفين من أهل القبلة ليس مما يختص بالقتال ، / فإن الموت يعرض لبنى آدم بأسباب عامة ، وهى المصائب ^(١) التي تعرض لبنى آدم من مرض بطاعون وغيره ، ومن جوع وغيره ، وبأسباب خاصة ، فالذين يعتادون القتال لا يصيبهم أكثر مما يصيب من لا يقاتل ، بل الأمر بالعكس ، كما قد جرَّبه الناس .

ثم موت الشهيد من أيسر الميتات ، ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ لَّنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن قَرَرْتُمْ مِّنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا . قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنِ ارَّادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ ارَّادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب : ١٦ ، ١٧] .

(١) في الأصل : وهى الطوفات . ولعل الصواب ما أثبتته .

ما سبق يتبين
بأصلين : الأصل
الأول : حصول
النصر وغيره من
أنواع النعيم
لا ينافي وقوع
القتل أو الأذى

ظ ١٨٢

فأخبر سبحانه أن الفرار من القتل أو الموت لا ينفع ، فلا فائدة فيه ، وأنه لو نفع لم ينفع إلا قليلا ، إذ لا بد من الموت .

وأخبر أن العبد لا يعصمه من الله [أحد] ^(١) إن أراد به سوءا أو أراد به رحمة ، وليس له من دون الله ولي ولا نصير ، فأين نفر من أمره وحكمه ؟ ولا ملجأ منه إلا إليه ، قال تعالى : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سورة الذاريات : ٥٠] وهذا أمر يعرفه الناس من أهل طاعة الله وأهل معصيته ، كما قال أبو حازم الحكيم : « لما يلقى الذى لا يتقى الله من معالجه الخلق أعظم مما يلقاه الذى يتقى الله من معالجه التقوى » .

والله تعالى قد جعل أكمل المؤمنين إيمانا أعظمهم بلاء ، كما قيل للنبي ﷺ : أى الناس أشد بلاء ؟ قال : « الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يُبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه ، وإن كان فى دينه رقة خُفِّفَ عنه ، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشى على الأرض وليس عليه خطيئة » ^(٢) .

ومن هذا أن الله شرع من عذاب الكفار بعد نزول التوراة بأيدي المؤمنين فى الجهاد ما لم يكن قبل ذلك ، حتى إنه قيل : لم ينزل بعد التوراة عذاب عام من السماء للأمم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا

(١) زدت كلمة « أحد » ليستقيم الكلام .

(٢) الحديث - مع اختلاف فى الألفاظ - عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ٢٨/٤ (كتاب الزهد ، باب الصبر على البلاء) وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » ؛ سنن ابن ماجه ١٣٣٤/٢ (كتاب الفتن ، باب الصبر على البلاء) ؛ سنن الدارمى ٣٢٠/٢ (كتاب الرقاق ، باب فى أشد الناس بلاء) ؛ المسند (ط . المعارف) ٤٥/٣ - ٤٦ ، ٥٢ ، ٧٨ ، ٩٧ . وجعل البخارى أحد عناوين كتاب الطب (المرضى) فى صحيحه ١١٥/٧ : باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل .

الْقُرُونِ الْأُولَى بِصَافِرٍ لِلنَّاسِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿ [سورة القصص :

. [٤٣

فإنه قبل (١) ذلك قد أهلك قوم فرعون وشعيب ولوط وعاد وثمود وغيرهم ، ولم يهلك الكفار بجهاد المؤمنين . ولما كان موسى أفضل من هؤلاء ، وكذلك محمد ، وهما الرسولان المبعوثان بالكتابين العظيمين ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ [سورة المزمل : ١٥] . / وقال تعالى : ﴿ قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ﴾ [سورة القصص : ٤٨] إلى قوله ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ ﴾ [سورة القصص : ٤٩] .

ص ١٨٣

وأمر الله هذين الرسولين بالجهاد على الدين . وشريعة محمد ﷺ أكمل ، فلهذا كان الجهاد في أمته أعظم منه في غيرهم .

قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٦] .

وقال تعالى (٢) : ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ [سورة محمد : ٤] .

وقال تعالى للمنافقين : ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبِكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْيُدِينَا ﴾ [سورة التوبة : ٥٢] .

(١) في الأصل : قيل .

(٢) في الأصل : قال .

فالجهاد للكفار أصلح من هلاكهم بعذاب سماءٍ من وجوه : أحدها : أن ذلك أعظم في (١) ثواب المؤمنين وأجرهم وعلو درجاتهم ، لما يفعلونه من الجهاد في سبيل الله ، لأن تكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله لله .

الثاني : أن ذلك أنفع للكفار أيضا ، فإنهم قد يؤمنون من الخوف ، ومن أسر منهم وسيم (٢) من الصغار يُسلم أيضا ، وهذا من معنى قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [سورة آل عمران : ١١٠] قال أبو هريرة : « وكنتم خير الناس للناس تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة » (٣) فصارت الأمة بذلك خير أمة أخرجت للناس ، وأفلح بذلك المقاتلون ، وهذا هو مقصود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا من معنى كون محمد ﷺ ما أرسل إلا رحمة للعالمين ، فهو رحمة في حق كل أحد بحسبه حتى المكذبين له ، هو في حقهم رحمة أعظم مما كان غيره .

ولهذا لما أرسل الله إليه ملك الجبال وعرض عليه أن يقلب عليهم الأخشيين قال : « لا ، استأني بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له » (٤) .

(١) في الأصل : من .

(٢) في الأصل : وستى .

(٣) ورد هذا الأثر في : البخارى ٣٧/٦ - ٣٨ (كتاب التفسير ، سورة آل عمران ، باب كنتم خير أمة أخرجت للناس) ونصه فيه : « .. عن أبي هريرة رضى الله عنه : كنتم خير أمة أخرجت للناس . قال : خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام » . وانظر تفسير ابن كثير للآية ٧٧/٢ (ط . دار الشعب) .

(٤) هذه العبارة بمعنى جزء من حديث ورد في البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها ونصه في : البخارى ١١٥/٤ (كتاب بدء الخلق ، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء ...) عن عائشة : « ... أنها قالت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت =

الوجه الثالث : أن ذلك أعظم عزة للإيمان وأهله ، وأكثر لهم ، فهو يوجب من علو الإيمان وكثرة أهله ما لا يحصل بدون ذلك ، وأمر المنافقين والفجار بالمعروف ونهيهم عن المنكر هو من تمام الجهاد ، وكذلك إقامة الحدود .

ظ ١٨٣

ومعلوم أن في الجهاد وإقامة / الحدود من إتلاف النفوس والأطراف والأموال ما فيه ، فلو بلغت هذه النفوس [النصر] ^(١) بالدعاء ونحوه من غير جهاد ، لكان ^(٢) ذلك من جنس نصر ^(٣) الله للأنبياء المتقدمين من أمهم لما أهلك نفوسهم وأموالهم .

وأما النصر بالجهاد وإقامة الحدود فذلك من جنس نصر الله لما يختص به رسوله ، وإن كان محمد ﷺ وأمه منصورين بالنوعين جميعا ، لكن يُشرع في الجهاد باليد ما لا يشرع في الدعاء ^(٤) .

وأما الأصل الثاني : فإن التنعم [إما] ^(٥) بالأمور الدنيوية ، وإما بالأمور الدنيوية .

فأما الدنيوية فهي الحسية : مثل الأكل والشرب والنكاح واللباس وما يتبع ذلك ، والنفسية : وهي الرياسة والسلطان .

فأما الأولى ، فالمؤمن والكافر والمنافق مشتركون في جنسها ، ثم يُعلم أن

= رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . فناداني ملك الجبال ، فسلم عليّ ، ثم قال : يا محمد ، فقال : ذلك فما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشيين . فقال النبي ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا . والحديث في : مسلم ١٤٢٠/٣ - ١٤٢١ (كتاب الجهاد ، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين) .

(١) زدت كلمة « النصر » ، ليستقيم الكلام .

(٢) في الأصل : لكن ، وهو تحريف .

(٣) في الأصل : انتصار .

(٤) في الأصل : في الدعاء في الجهاد باليد ، ويبدو أن عبارة « في الجهاد باليد » المكررة زائدة .

(٥) زدت « إما » ليستقيم الكلام .

الأصل الثاني :
التنعم إما بالأمور
الدنيوية وإما
بالأمور الدنيوية
١ - الدنيوية

التنعم بها ليس هو حقيقة واحدة مستوية في بنى آدم ، بل هم متفاوتون في قدرها ووصفها تفاوتاً عظيماً .

فإن من الناس من يتنعم بنوع من الأطعمة والأشربة الذى يتأذى بها غيره ، إما لاعتياده ببلده ، وإما لموافقته مزاجه ، وإما لغير ذلك (١) .

ومن الناس من يتنعم بنوع من المناكح لا يحبها غيره ، كمن سكن البلاد الجنوبية فإنه يتنعم بنكاح السمر ، ومن سكن البلاد الشمالية فإنه (٢) يتنعم بنكاح البيض .

وكذلك اللباس والمسكن ، فإن أقواماً يتنعمون من البرد بما يتأذى به غيرهم ، وأقواماً يتنعمون [من المساكن] (٣) بما يتأذى به غيرهم ، بحسب العادة والطباع .

وكذلك الأزمنة ، فإنه [فى] الشتاء (٤) يتنعم الإنسان بالحر ، وفى الصيف يتنعم بالبرد .

وأصل ذلك أن التنعم فى الدنيا بحسب الحاجة إليها والانتفاع بها ، فكل ما كانت الحاجة أقوى والمنفعة أكثر كان التنعم واللذة أكمل ، والله قد أباح للمؤمنين الطيبات .

فالذين يقتصدون فى المآكل نعيمهم بها أكثر من نعيم المسرفين (٥) فيها ، فإن أولئك إذا أدمنوها وألفوها لا يبقى لهذا عندهم كبير لذة ، مع أنهم قد لا يصبرون عنها ، وتكثر (٦) أمراضهم بسببها .

(١) فى الأصل : وإما لغير الله ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبتته .

(٢) فى الأصل : فإن .

(٣) زدت عبارة « من المساكن » ليستقيم الكلام .

(٤) فى الأصل : فإن الشتاء .

(٥) فى الأصل : المشرفين ، وهو تحريف .

(٦) فى الأصل : وتكثر .

وأما الدين (١) فجماعه شيان : تصديق الخبر ، وطاعة الأمر .

ومعلوم أن التنعم بالخبر بحسب شرفه وصدقه ، والمؤمن معه من الخير الصادق عن الله وعن مخلوقاته ما ليس مع غيره ، فهو من أعظم الناس نعيما بذلك ، بخلاف من يكثر في أخبارهم الكذب .

وأما طاعة الأمر ، فإن من كان ما يؤمر به صلاحا / وعدلا ونافعا يكون تنعمه به أعظم من تنعم (٢) من يؤمر بما ليس بصلاح ولا عدل ولا نافع .

وهذا من الفرق بين الحق والباطل ، فإن الله سبحانه يقول في كتابه : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ [سورة محمد : ١ - ٣] .

وقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [سورة النور : ٣٩] .

وتفصيل ذلك أن الحق نوعان : حق موجود ، وحق مقصود . وكل منهما ملازم للآخر .

فالحق الموجود هو الثابت في نفسه ، فيكون العلم به حقا ، والخبر عنه حقا .
والحق المقصود هو النافع ، الذي إذا قصده الحى انتفع به ، وحصل له النعيم .

(١) يقصد ابن تيمية ، وأما الدينية ، وسبق أن ذكر أن التنعم إما بالأمر الدنيوية وإما بالأمر الدينية ، وتكلم فيما سبق على الأمر الدنيوية ، وهو يتكلم هنا على الأمر الدينية .

(٢) في الأصل : نعيم .

فصل

ومما يُظهر الأمر ما ابتلى الله به عباده في الدنيا من السراء والضراء ، وقال سبحانه : ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ . وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ . كَلَّا ﴾ [سورة الفجر : ١٥ - ١٧] .

يقول الله سبحانه ليس الأمر كذلك ، ليس إذا ما ابتلاه فأكرمه ونعمه يكون ذلك إكراما مطلقا ، وليس إذا [ما] قدر ^(١) عليه رزقه يكون ذلك إهانة ، بل هو ابتلاء في الموضوعين ، وهو الاختبار والامتحان ، فإن شَكَرَ الله على الرخاء ، وصبر على الشدة ، كان كل واحد من الحالين خيرا له ^(٢) ، كما قال النبي ﷺ : « لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سرء فشكر كان خيرا ^(٣) له ، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا ^(٤) له » ^(٥) . وإن لم يشكر ولم يصبر كان كل ^(٥) واحد من الحالين شرًا له .

(١) في الأصل : إذا بقدر ، وهو تحريف .

(٢) في الأصل : خير له ، وهو خطأ .

(٣) في الأصل : خير ، وهو خطأ .

(٤) الحديث عن صهيب رضى الله عنه في : مسلم ٢٢٩٥/٤ (كتاب الزهد ، باب المؤمن أمره كله خير) ولفظه فيه : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سرء شكر الحديث . وهو في المسند ٣٣٢/٤ ، ٣٣٣ ، ١٥/٦ ، وأول الحديث في الموضوعين الأولين : « وعجبت من أمر (لأمر) المؤمن وفي الموضوع الأخير : عجبت من قضاء الله للمؤمن ، على أن القسم الأول من كلام ابن تيمية جاء في حديث آخر عن أنس رضى الله عنه في المسند (ط : الحلبي) ١١٧/٣ ولفظه : « عجبت للمؤمن إن الله لم يقض قضاء إلا كان خيرا له » ، ١٨٤/٣ ولفظه : « عجبت للمؤمن إن الله لا يقضى للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له » ، وقال الألباني عن الحديث في « سلسلة الأحاديث الصحيحة » ٢٨/٤ : إنه صحيح .

(٥) في الأصل : كان على ، وهو تحريف .

تنازع الناس فيما
ينال الكافر في الدنيا
من التَّعَمُّ ، هل هو
نعمة في حقه أم لا ؟

وقد تنازع الناس فيما ينال الكافر في الدنيا من التَّعَمُّ ، هل هو نعمة في حقه أم لا ؟ على قولين . وكان (١) أصل النزاع بينهم هو القدرة .

والقدرية الذين / يقولون : لم يرد الله لكل أحد إلا خيرا له بخلقه وأمره ، وإنما العبد هو الذي أراد لنفسه الشر بمعصيته ، وبترك (٢) طاعته التي يستعملها بدون مشيئة الله وقدرته أراد لنفسه الشر .

وهؤلاء يقولون : ما تُعَمُّ به الكافر فهو نعمة تامة ، كما تُعَمُّ به المؤمن سواءً ، إذ عندهم ليس لله نعمة خص بها المؤمن دون الكافر أصلا ، بل هما في (٣) النعم الدينية سواءً ، وهو ما بيَّنه (٤) من أدلة الشرع والعقل ، وما خلقه من القدرة والألطف ، ولكن أحدهما اهتدى بنفسه بغير نعمة أخرى خاصة من الله ، والآخر ضل بنفسه من غير خذلان يخصه من الله . وكذلك النعم الدنيوية هي في حقيهما (٥) على السواء .

والذين ناظروا هؤلاء من أهل الإثبات ربما زادوا في المناظرة نوعا من الباطل ، وإن كانوا في الأكثر على الحق . فكثيرا ما يرد مناظر المبتدع باطلا عظيما بباطل دونه .

ولهذا كان أئمة السنة ينهون عن ذلك ، ويأمرون بالاقتصاد ولزوم السنة المحضة ، وأن لا يُرد باطل بباطل (٦) .

(١) في الأصل : وكل . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٢) في الأصل : ونزل . ولعل ما أثبتته هو الصواب .

(٣) في الأصل : من . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٤) أى ما بيَّنه الله تعالى لهم .

(٥) في الأصل : في حقيها ، وهو تحريف .

(٦) في الأصل : وأن لا يرد بباطل بباطل ، وهو تحريف .

فقال كثير من هؤلاء : ليس لله على الكافر نعمة دنيوية ، كما ليس له عليه نعمة دينية تخصه (١) ، إذ اللذة المستعقبة ألما أعظم منها ليست بنعمة ، كالطعام المسموم ، وكمن أعطى غيره أموالا ليطمئن ثم يقتله أو يعذبه .

قالوا : والكافر كانت هذه النعم سببا في عذابه وعقابه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُمَلِّئُ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾ [سورة آل عمران : ١٧٨] .

وقال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنِنَا نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ٤٤] .

وقال تعالى : ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [سورة القلم : ٤٤ ، ٤٥] .

وخالفهم آخرون من أهل الإثبات للقدر أيضا ، فقالوا : بل لله على الكافر نعم دنيوية .

والقولان في عامة أهل الإثبات من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم .

قال هؤلاء : والقرآن قد دل على امتنانه على الكفار بنعمه ، ومطالبته إياهم بشكرها ، فكيف يقال ليست نعماً ؟ / قال تعالى (٢) : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا

(١) في الأصل : تخصهم ، وهو تحريف .

(٢) في أعلى هذه الصفحة إلى اليسار كتب : « الخامس » .

نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا ﴿ [سورة إبراهيم : ٢٨ ، ٢٩] إلى قوله . ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْإِنْتَهَارَ ﴿ [سورة إبراهيم : ٣٢] إلى قوله : ﴿ وَإِنْ تَعْلَمُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿ [سورة إبراهيم : ٣٤] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿ [سورة الإنسان : ٣] ، وكيف يكون كفورا من لم ينعم عليه بنعمه ؟

فالمراد لازم قول هؤلاء : أن الكفار لم يجب عليهم شكر الله إذ لم يكن قد أنعم عليهم عندهم . وهذا القول يُعلم فسادَه بالاضطرار من دين الإسلام ، فإن الله ذم الإنسان بكونه كفورا غير شكور ، إذ يقول : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿ [سورة العاديات : ٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُوفِرُ . وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴿ [سورة هود : ٩ ، ١٠] .

وقد قال صالح عليه السلام لقومه : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿ [سورة الأعراف : ٧٤] .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ﴿ [سورة إبراهيم : ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا

رَعْدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴿ [سورة النحل : ١١٢] .

[وقال] ^(١) الأولون : قد قال تعالى : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿

(١) زدت « وقال » ليستقيم الكلام .

والكفار لم يدخلوا في هذا العموم ، فعلم أنهم خارجون عن النعمة . وقال (١) تعالى في خطابه للمؤمنين : ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [سورة طه : ٨١] وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً ﴾ [سورة آل عمران ١٠٣] ، ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ ﴾ [سورة المائدة : ٧] ، وقال تعالى : ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٧٢] .

وأما الكفار فخطبوا بها من جهة / ما هي تنعم ولذة وسرور ، ولم تسم (٢) في حقهم نعمة على الخصوص ، وإنما تسمى نعمة باعتبار أنها نعمة في حق عموم بنى آدم ، لأن المؤمن سعد بها في الدنيا والآخرة ، والكافر يُنعم بها في الدنيا . وذلك أن كفر الكافر نعمة في حق المؤمنين ، فإنه لولا وجود الكفر والفسوق والعصيان لم يحصل [جهاد المؤمنين للكفار وأمرهم الفساق والعصاة بالمعروف ونهيم إياهم عن المنكر] (٣) ، ولولا وجود شياطين الإنس والجن لم يحصل للمؤمنين من بعض هذه الأمور ومعاداتها ومجاهداتها ومخالفة الهوى فيها ما ينالون به أعلى الدرجات وأعظم (٤) الثواب .

والإنسان فيه قوة الحب والبغض ، وسعادته في أن يحب ما يحبه الله ، ويبغض ما يبغضه الله ، فإن لم يكن في العالم ما يبغضه ويجاهد أصحابه لم يتم إيمانه وجهاده ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَلُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [سورة الحجرات : ١٥] .

(١) في الأصل : قال .

(٢) في الأصل : ولم يسم .

(٣) ما بين المعقوفين زده ليستقيم الكلام .

(٤) في الأصل : وعظم .

قالوا : ولو كانت هذه اللذات نعماً مطلقة لكانت نعمة الله على أعدائه في الدنيا أعظم من نعمته على أوليائه . قالوا : ونعمة الله التي بدلوها كفراً هي إنزال الكتاب وإرسال الرسول ، حيث كفروا بها وجحدوا أنها حق ، كما قال عليه السلام (١) : « ألا [لا] (٢) فخر إني (٣) من قريش » (٤) .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَوْمًا كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ [سورة النحل : ١١٢] ، هم الذين كفروا بما أنزل الله من الكتاب والرسول ، وتلك نعمة الله المعظمة . وقال تعالى : ﴿ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٤٤] .

رأى ابن تيمية

وحقيقة الأمر أن هذه الأمور فيها من التنعم باللذة والسرور في الدنيا ما لا نزاع فيه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ [سورة غافر : ٧٥] ، وقال تعالى : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ

(١) في الأصل : كما قال على عليه السلام ، وهو تحريف .

(٢) زدت « لا » ليستقيم الكلام .

(٣) في الأصل : إن ، وهو تحريف .

(٤) لم أجد حديثاً بهذا اللفظ ، ولكن جاءت أحاديث كثيرة فيها النص على أن النبي ﷺ من قريش ، منها الحديث الذي جاء في صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع (كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبي ﷺ) ، يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفاني من بنى هاشم » . وأورد هذا الحديث الترمذي في سننه ٢٤٤/٥ - ٢٤٥ (كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ : باب ما جاء في فضل النبي ﷺ) كما أورد أحاديث أخرى بنفس المعنى في نفس الباب . وأورد الهيثمي في مجمع الزوائد ٢١٤/٨ - ٢١٩ (كتاب علامات النبوة ، باب في كرامة أصله ﷺ) عدة أحاديث تنص على أن النبي ﷺ كان من قريش .

الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴿ [سورة الأحقاف : ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ
أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمُ قَلِيلًا ﴾ [سورة المزمل : ١١] ، وقال تعالى : ﴿ ذَرَهُمْ يَا كُلُّوا
وَيَتِمَّتْ عُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ ﴾ [سورة الحجر : ٣] ، / وقال تعالى : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [سورة الحديد : ٢٠] ، وهذا أمر محسوس .

ص ١٨٦

لكن الكلام في أمرين : أحدهما : هل هي نعمة أم لا ؟ والثاني : أن جنس
تنعم المؤمن في الدنيا بالإيمان وما يتبعه : هل هو مثل تنعم الكافر ، أو دونه ،
أو فوقه ؟ وهذه هي المسألة المقدمة .

فأما الأول فيقال : اللذات في أنفسها ليست نفس فعل العبد ، بل قد
تحدث عن فعله مع سبب آخر ، كسائر المتولدات التي يخلقها الله تعالى بأسباب
منها فعل العبد .

لكن اللذات تارة تكون بمعصية من ترك مأمور ، أو فعل محظور ، كاللذة
الحاصلة بالزنا ، وبموافقة [الفساق] ^(١) ، وبظلم الناس ، وبالشرك ، والقول على الله
بغير علم . فهنا المعصية هي سبب للعذاب الزائد على لذة الفعل . لكن ألم
العذاب قد يتقدم ، وقد يتأخر ، وهي تشبه أكل الطعام الطيب الذي فيه من
السموم ما يُمرض أو يقتل . ثم ذلك العذاب يمكن دفعه بالتوبة وفعل حسنات
أخر ، لكن يقال : تلك اللذة الحاصلة بالمعصية لا تكون معادلة ^(٢) لها ما في
التوبة عنها والأعمال الصالحة من المشقة والألم . ولهذا قيل : ترك الذنب أمر من
التماس التوبة ، وقيل : رب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا .

(١) زدت كلمة « الفساق » ليستقيم الكلام .

(٢) في الأصل : معاومة ، ولعل الصواب ما أثبتته .

لكن فعل التوبة والحسنات الماحية قد يُوجب من الثواب أعظم من ثواب ترك الذنب أولاً ، فيكون ألم التائب أشد من التارك إذا استويا من جميع الوجوه ، وثوابه أكثر . وكذلك لما (١) يكفر الله به الخطايا من المصائب مرارة تزيد (٢) على حلاوة المعاصي .

وتارة تكون اللذات بغير معصية من العبد ، لكن عليه أن يطيع الله فيها ، فيتجنب (٣) فيها ترك مأموره وفعل محظوره (٤) ، كما يؤتاه العبد من المال والسلطان ، ومن المآكل والمناكح التي ليست بمحرمة .

والله سبحانه أمر مع أكل الطيبات بالشكر ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٧٢] وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها » (٥) . وفي الأثر : « الطاعم الشاكر كالصائم الصابر » رواه ابن ماجة عن النبي ﷺ (٦) .

(١) في الأصل : ما . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٢) في الأصل : يزيد .

(٣) في الأصل : فيعصيه ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٤) في الأصل : ونقل محضوره ، وهو تحريف .

(٥) الحديث عن أنس بن مالك رضى الله عنه - مع اختلاف يسير في الألفاظ - في : مسلم ٢٠٩٥/٤ (كتاب الذكر والدعاء ، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب) ؛ سنن الترمذى ١٧٢/٣ (كتاب الأطعمة ، باب في الحمد على الطعام إذا فرغ منه) ؛ المسند (ط . الحلبي) ١٠٠/٣ ،

(٦) جاءت عبارات هذا الحديث عنواناً لأحد أبواب كتاب الأطعمة في البخارى ٨٢٧/٧ (كتاب الأطعمة ، باب الطاعم الشاكر مثل الصائم الصابر) وقال البخارى بعد ذلك : « فيه عن أبي هريرة عن =

وقد قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ [سورة التكاثر : ٨] .

ولما ضاف النبي ﷺ أبا الهيثم بن التيهان وجلسوا في الظل ، وأطعمهم

فاكهة ولحما ، وسقاهم ماء باردا ، قال : « هذا من / النعيم الذي تسألون

ط ١٨٦

عنه » (١) .

والسؤال عنه لطلب شكره ، لا لإثم فيه . فإلله تعالى يطلب من عباده شكر

نعمه ، وعليه (٢) أن لا يستعين بطاعته على معصيته ، فإذا ترك ما وجب عليه في (٣)

= النبي ﷺ ، وشرح ابن حجر هذا الكلام في فتح الباري ٥٨٢/٩ - ٥٨٣ فقال : « هذا الحديث من الأحاديث المعلقة التي لم تقع في هذا الكتاب موصولة ، وقد أخرجه المصنف في « التاريخ » والحاكم في « المستدرک » من رواية سليمان بن بلال ولفظه : « إن للطاعم الشاكر من الأجر مثل ما للصائم الصابر » . ونص ابن حجر بعد ذلك على أن الحديث أخرجه من طرق مختلفة ابن ماجه وابن خزيمة والترمذي وابن حبان . والحديث في : سنن ابن ماجه ٥٦١/١ (كتاب الصيام ، باب فيمن قال : الطاعم الشاكر كالصائم الصابر) عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » وعن سنان بن سفة الأسلمي رضي الله عنه ولفظه : « الطاعم الشاكر له مثل أحر الصائم الصابر » .

(١) هذا جزء من حديث طويل عن أبي هريرة رضي الله عنه في : مسلم ١٦٠٩/٣ - ١٦١٠ (كتاب

الأشربة ، باب جواز استباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك) وفي حديثه أن المضيف هو

« الأنصاري » أو « رجل من الأنصار » . والحديث في : سنن الترمذي ١٣/٤ - ١٤ (كتاب الزهد ، باب

ما جاء في معيشة أصحاب النبي ﷺ) . وأورد المنذرى الحديث في الترغيب والترهيب ١٦٦/٥ - ١٦٧

وقال : « رواه مالك بلاغا باختصار ومسلم ، واللفظ له والترمذي بزيادة ، والأنصاري المبهم هو أبو الهيثم بن

التيهاني بفتح المثناة فوق وكسر المثناة تحت وتشديدها ، كذا جاء مصرحاً به في الموطأ والترمذي ، وفي مسند أبي

يعلى ومعجم الطبراني من حديث ابن عباس أنه أبو الهيثم ، وكذا في المعجم أيضا من حديث ابن عمر . وقد

رويت هذه القصة من حديث جماعة من الصحابة مصرح في أكثرها بأنه أبو الهيثم ، وجاء في معجم الطبراني

الغدير والأوسط وصحيح ابن حبان من حديث ابن عباس وغيره أنه أبو أيوب الأنصاري . والظاهر أن هذه

القصة اتفقت مرة مع أبي الهيثم ، ومرة مع أبي أيوب ، والله أعلم » .

(٢) أي وعلى العبد .

(٣) في الأصل : من .

نعمته من حق ، واستعان بها على محرم ، صار فعله بها وتركه لما فيها سببا للعذاب أيضا ، فالعذاب استحققه - بترك المأمور وفعل المحذور - على النعمة التي هي من فعل الله تعالى ، وإن كان فعله وتركه بقضاء الله وقدره : بعلمه ومشيئته وقدرته وخلقه .

فإن حقيقة الأمر أنه نعم العبد تنعيما ، وكان ذلك التنعيم سببا لتعذيبه أيضا ، فقد اجتمع في حقه تنعيم وتعذيب ، ولكن التعذيب إنما كان بسبب معصيته ، حيث لم يؤد حق النعمة ، ولم يتق الله فيها .

وعلى هذا ، فهذه التنعيمات هي نعمة من وجه دون وجه ، فليست من النعم المطلقة ، ولا هي خارجة عن جنس النعم مطلقها ومقيدها . فباعتبار ما فيها من التنعم يصلح أن يُطلب حقها من الشكر وغيرها ، ويُنبى عن استعمالها في المعصية ، فنكون نعمة في باب الأمر والنهى ، والوعد والوعيد .

وباعتبار ^(١) أن صاحبها يترك فيها المأمور ويفعل فيها المحذور الذي يزيد عذابه على نعمها كانت وبالا عليه ، وكان أن لا يكون ذلك من حقه خيرا له من أن يكون ، فليست نعمة في حقه في باب القضاء والقدر ، والخلق والمشيئة العامة ، وإن كان ذلك يكون نعمة في حق عموم الخلق والمؤمنين ، وعلى هذا يظهر ما تقدم من خيرات الله ^(٢) ، فإن ذلك استدراج ، ومكر ، وإملاء .

وهذا الذى ذكرناه من ثبوت الإنعام بها من وجه ، وسلبه من وجه آخر ، مثل ما ذكر الله في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ

(١) في الأصل : وباعتبارها ، ورأيت أن " بها " زيادة من الناسخ .

(٢) في الأصل : ما يقدم من خير الله . ولعل الصواب ما أثبتته .

فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَن . وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ . كَلَّا ﴿ [سورة الفجر : ١٥ - ١٧] ، فإنه قد أخبر أنه أكرمه ، وأنكر قول المبتلى : رَبِّي أَكْرَمَن ، واللفظ الذى أخبر الله به مثل اللفظ الذى أنكره الله من كلام المبتلى ، لكن المعنى مختلف . فإن المبتلى اعتقد أن هذه كرامة ^(١) مطلقة ، وهى النعمة : التى يقصد بها [أن] ^(٢) النَّعْمَ إِكْرَامًا له ^(٣) ، والإنعام بنعمة لا يكون سببا لعذاب أعظم منها ، وليس الأمر كذلك ، بل الله تعالى ابتلاه بها ابتلاءً ، ليتبين هل يطيعه فيها أم يعصيه ، مع علمه بما سيكون من الأمرين ، لكن العلم بما سيكون شئ ، وكون الشئ / والعلم به شئ .

ص ١٨٧

وأما قوله تعالى : ﴿ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ﴾ فإنه تكريم بما فيه من اللذات ، ولهذا قرنه بقوله : (وَنَعَّمَهُ) ، ولهذا كانت ^(٤) خوارق العادات التى تسميها العامة « كرامة » ليست عند أهل التحقيق كرامة مطلقا ، بل فى الحقيقة الكرامة هى : لزوم الاستقامة ، وهى طاعة الله ، وإنما هى مما يبتلى الله به عبده ، فإن أطاعه بها رفعه ^(٥) ، وإن عصاه بها خفضه ^(٦) ، وإن كانت من آثار طاعة أخرى ، كما قال تعالى : ﴿ وَاللَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا . لِنُقَاتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ [سورة الجن : ١٦ ، ١٧] .

(١) فى الأصل : هذا اكرامه . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٢) زدت « أن » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : إكرام عليه .

(٤) فى الأصل : كان .

(٥) فى الأصل : رفعة .

(٦) فى الأصل : حفظة .

وإذا كان في النعمة والكرامة هذان الوجهان (١) ، فهي من باب الأمر والشرع نعمة [يجب] (٢) الشكر عليها ، وفي باب الحقيقة القدرية لم تكن (٣) لهذا الفاجر بها إلا فتنة ومحنة استوجب بمعصية الله فيها العذاب ، وهي في ظاهر الأمر قبل أن يعرف حقيقة الباطن ابتلاء وامتحان ، يمكن أن تكون (٤) من أسباب سعادته ، ويمكن أن تكون من أسباب شقاوته ، وظهر بها جانب الابتلاء بالمر ، فإن الله يبتلي بالحللو والمر ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٣٥] ، وقال : ﴿ وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجَعُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٦٨] .

فمن ابتلاه الله بالمر : بالبأساء والضراء والبأس ، وقدر عليه رزقه ، فليس ذلك إهانة له ، بل هو ابتلاء . فإن أطاع الله في ذلك كان سعيدا ، وإن عصاه في ذلك كان شقيا ، كما كان مثل ذلك (٥) سبباً للسعادة في حق الأنبياء والمؤمنين ، وكان شقاءً وسبباً للشقاء في حق الكفار والفجار .

وقال تعالى : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ [سورة البقرة : ١٧٧] وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا ﴾ [سورة البقرة : ٢١٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى

(١) في الأصل : هذين الوجهين ، وهو خطأ .

(٢) زدت « يجب » ليستقيم الكلام .

(٣) في الأصل : يكن ، وهو تحريف .

(٤) في الأصل : يكون .

(٥) في الأصل : كما كان ذلك مثل ذلك .

التَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابِ عَظِيمٍ ﴿
 [سورة التوبة : ١٠١] وقال تعالى : ﴿ وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ
 الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [سورة السجدة : ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ
 بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ٧٦] .

وكما أن الحسنات ، وهي المسار^(١) الظاهرة التي يبتلى بها العبد ، تكون عن
 طاعات فعلها العبد ، فكذلك السيئات ، وهي المكارة التي يُبتلى بها العبد ، تكون
 عن معاصي فعلها العبد . كما قال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ
 وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ﴾ [سورة النساء : ٧٩] .

وقال تعالى : ﴿ أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ
 هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [سورة آل عمران : ١٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ
 كَثِيرٍ ﴾ [سورة الشورى : ٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ
 يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ﴾ [سورة النساء : ٦٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ
 كَفُورٌ ﴾ [سورة الشورى : ٤٨] .

ثم تلك المسار ، التي هي من ثواب طاعته ، إذا عصى الله فيها كانت
 / سببا لعذابه ، والمكارة التي هي عقوبة معصيته إذا أطاع الله فيها كانت سببا

(١) فوق كلمة « المسار » كتب في الأصل : « كذا » . والمقصود بها الأمور السارة .

لسعادته ، فتدبر هذا لتعلم أن الأعمال بخواتيمها ، وأن ما ظاهره نعمة هو لذة عاجلة قد تكون سببا للعذاب ، وما ظاهره عذاب وهو ألم^(١) عاجل قد يكون^(٢) سببا للنعم . وما هو طاعة - فيما يرى الناس - قد يكون سببا لهلاك العبد برجوعه عن الطاعة ، إذا ابتلى في هذه^(٣) الطاعة ، وما هو معصية - فيما يرى الناس - قد يكون سببا لسعادة العبد بتوبته منه ، وتصبره على المصيبة ، التي [هي]^(٤) عقوبة ذلك الذنب .

فالأمر والنهي يتعلق بالشيء الحاصل ، فيؤمر العبد بالطاعة مطلقا ، وينهى عن المعصية مطلقا ، ويؤمر بالشكر على كل ما يتنعم به .

وأما القضاء والقدر ، وهو^(٥) علم الله وكتابه ، وما طابق ذلك من مشيئته وخلقه ، فهو باعتبار الحقيقة الآجلة ، فالأعمال بخواتيمها ، والمنعم عليهم في الحقيقة هم الذين يموتون على الإيمان .

وقد يُذكر تنازع الناس في هذا الباب :

فالمثبتة للقضاء والقدر من متكلمة أهل الإثبات وغيرهم يلاحظون القدر من علم الله وكتابه ومشيئته وخلقه ، وقد يعرضون عمّا جاء به الأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، وعن الحكمة العامة ، وما في تفصيل ذلك من الحكم الخاصة .

(١) في الأصل : المر . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبتته ، أو يكون : مر .

(٢) في الأصل : تكون .

(٣) في الأصل : في بره ، وهو تحريف .

(٤) زدت « هي » ليستقيم الكلام .

(٥) في الأصل : هو .

وأما من لم يلاحظ إلا الأمر والنهي والوعد والوعيد فقط من القدرية ومن ضاهاهم في حاله ، فقد كفر بما وجب عليه الإيمان به من خلق الله وكتابه ومشيئته ، وتديبه لعباده المؤمنين الذين سبقت لهم منه الحجة بتدبير (١) خاص ، ومن قضائه على الكفار بما هو فيه عدل سبحانه ، كما في الحديث المرفوع : « ماضٍ فينا أمرك ، عدلٌ فينا قضاؤك » (٢) ، ولا يظلم ربك أحدا .

وإذا عُرف أن كل واحد من الابتلاء بالسراء والضراء قد يكون في باطن الأمر مصلحة للعبد أو مفسدة له ، وأنه إن أطاع الله بذلك كان مصلحة له ، وإن عصاه كان مفسدة له - تبيّن أن الناس أربعة أقسام : منهم من يكون صلاحه على السراء ، ومنهم من يكون صلاحه على الضراء ، ومنهم من يصلح على هذا وهذا ، ومنهم من لا يصلح على واحد منهما .

(١) في الأصل : بتدبير .

(٢) لم أجد الحديث بهذا اللفظ ، ولكن جاء الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في المسند مرتين (ط . المعارف) ٥/٢٦٧ - ٢٦٨ ، ٦/١٥٣ - ١٥٤ ، ونصه في الموضوع الأول « عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أصاب أحدا قط همٌّ ولا حزنٌ فقال : اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ في حكمك ، عدلٌ في قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو أنزلته في كتابك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهب همي ، إلا أذهب الله همّه وحزنه ، وأبدله مكانه فرجا » . قال : فقيل : يا رسول الله ألا تتعلمها ؟ فقال : « بلى ، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها » .

وصحح الشيخ أحمد شاكر الحديث وأشار إلى وجوده في مجمع الزوائد ١٠/١٣٦ وفي المستدرک للحاكم ١/٥٠٩ - ٥١٠ . وانظر بقية ما ذكره الشيخ أحمد شاكر عن الحديث .

وأول الحديث في الموضوع الثاني ٦/١٥٣ - ١٥٤ : « ما قال عبد قط إذا أصابه همٌّ وحزنٌ إلخ وذكر الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٣٦ - ١٣٧ الحديث بمعناه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وأوله : « من أصابه همٌّ أو حزنٌ الحديث وقال عنه : « رواه الطبراني وفيه من لم أعرفه » ونقل الناشر في الهامش تعليق ابن حجر : « قلت : هذا الحديث أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي من رواية عبد الجليل بهذا الإسناد ، فلا وجه لاستدراكه - ابن حجر » .

والإنسان الواحد قد تجتمع له هذه الأحوال الأربعة في أوقات متعددة ،
أو في وقت واحد باعتبارها (١) أنواع يبتلى بها .

وقد جاء في الحديث المرفوع : « إن من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى ،
ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته
لأفسده ذلك ، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا السقم ، ولو أصححته لأفسده
ذلك ، وذلك أنى أدبر عبادى ، إني بهم خبير بصير » (٢) .

فكما أن التعم العاجل ليس بنعمة في / الحقيقة ، قد يكون في الحقيقة بلاء وشرا
باعتبار (٣) المعصية فيه . والطاعة المتقدمة قد تكون حابطة وسببا للشر باعتبار
ما يعقبها (٤) من ردة وفتنة (٥) ، فكذلك التألم العاجل قد يكون (٦) في الحقيقة
خيرا أو نعمة ، والمعصية المتقدمة قد تكون سببا للخير باعتبار التوبة والصبر على
ما تعقبه من مصيبة (٧) ، لكن تتبدل (٨) الطاعة والمعصية .

وهذا يقتضى أن العبد محتاج في كل وقت إلى الاستعانة بالله على طاعته ،
وتثبيت قلبه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(١) في الأصل : باغيار .

(٢) لم أجد هذا الحديث .

(٣) في الأصل : فاعتبار ، وهو تحريف .

(٤) في الأصل : ما يتعقبه ، وهو تحريف .

(٥) في الأصل : وفتنته ، وهو تحريف .

(٦) في الأصل : تكون .

(٧) في الأصل : محبة ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٨) في الأصل : تبدل . ولعل الصواب ما أثبتته .

وذلك أن الإنسان ^(١) هو كما وصفه الله بقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن أَدْقْنَا
الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ • وَلَئِن أَدْقْنَاهُ نَعْمَاءً بَعْدَ
ضُرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴾ [سورة هود : ٩ ، ١٠] .
وقال تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ
كَبِيرٌ ﴾ [سورة هود : ١١] .

فأخبر أنه عند الضراء بعد السراء ، ييأس من زوالها في المستقبل ، ويكفر
بما ^(٢) أنعم الله به عليه قبلها ، وعند النعماء بعد الضراء يأمن من عود
[الضراء] ^(٣) في المستقبل ، وينسى ما كان فيه بقوله : ﴿ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي
إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴾ [سورة هود : ١٠] : على غيره ، يفخر عليهم بنعمة الله عليه .
وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا • إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا • وَإِذَا مَسَّهُ
الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [سورة المعارج : ١٩ - ٢١] فأخبر أنه جزوع عند الشر لا يصبر عليه ،
منوع عند الخير يبخل به .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [سورة إبراهيم : ٣٤] ، وقال تعالى :
﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ [سورة العاديات : ٦] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا
جَهُولًا ﴾ [سورة الأحزاب : ٧٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ [سورة الإسراء :
١٠٠] ، وقال : ﴿ وَإِنَّ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَبُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ [سورة فصلت : ٤٩] ، وقال تعالى :
﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ [سورة الإسراء : ٦٧] .

(١) في الأصل : الاثنين ، وهو تحريف ، ولعل الصواب ما أثبتته .

(٢) في الأصل : ما .

(٣) زدت كلمة « الضراء » لتستقيم العبارة .

وقد وصف المؤمنين بأنهم صابرون في البأساء والضراء وحين البأس ، حال المؤمن عندهما والصابرون في النعماء أيضا بقوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [سورة هود : ١١] والصبير في السراء قد يكون أشد ، ولهذا قال من قال من الصحابة : « ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر » .

وكان النبي ﷺ يستعيز بالله من فتنة الفقر وشر فتنة الغنى ^(١) . وقال لأصحابه : « والله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخاف أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوا فيها كما تنافسوا فيها ، وتهلككم كما أهلكتهم » ^(٢) .

(١) أورد ابن الأثير الجزرى في « جامع الأصول » ١٢٢/٥ (ط . السنة المحمدية ، القاهرة ١٣٧٠ / ١٩٥٠) عن عائشة رضى الله عنها أن النبي ﷺ كان يقول : « اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهزم والمغمم ، ومن فتنة القبر وعذاب القبر ، ومن فتنة النار وعذاب النار ، ومن شر فتنة الغنى ، ومن شر فتنة الفقر الحديث ، وقال ابن الأثير إن الحديث رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى ، وذكر أن فى رواية أبى داود : أن رسول الله ﷺ كان يدعو بهؤلاء الكلمات : « اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار وعذاب القبر ، ومن شر الغنى والفقر » .

(٢) الحديث عن عمرو بن عمرو بن عوف رضى الله عنه ونصه فى : البخارى ٩٠/٨ (كتاب الرقاق ، باب ما يُحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتى بجزيرتها ، وكان رسول الله ﷺ هو صالح أهل البحرين وأمر عليهم العلاء بن الحضرمى ، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين ، فسمعت الأنصار بقدومه ، فوافته صلاة الصبح مع رسول الله ﷺ ، فلما انصرف تعرضوا له ، فتبسم حين رآهم ، وقال : « أظنكم سمعتم بقدوم أبى عبيدة وأنه جاء بشيء ؟ » قالوا : أجل يا رسول الله . قال : « فأبشروا وأملوا ما يسركم ، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكنى أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، وتهلككم كما أهلقتهم » . وجاء الحديث عنه أيضا فى : البخارى ٩٦/٤ - ٩٧ (كتاب الجزية ، باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب) ، ٨٤/٥ - ٨٥ (كتاب المغازى ، باب حدثنى خليفة حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى) ؛ مسلم ٢٢٧٣/٤ - ٢٢٧٤ (كتاب الزهد والرقائق ، الباب الأول) ؛ سنن الترمذى ٥٦/٤ (كتاب صفة القيامة ، باب حدثنا أبو حصين عبد الله بن أحمد بن يونس) ؛ سنن ابن ماجه ١٣٢٤/٢ - ١٣٢٥ (كتاب الفتن ، باب فتنة المال) ؛ المسند (ط . الحلبي) ١٣٧/٤ ، ٣٢٧ .

فمن لم يتصف بحقيقة الإيمان هو إما قادر وإما عاجز . فإن كان قادراً أظهر ما في نفسه بحسب قدرته من : الفواحش ، والإثم ، والبغى ، والإشراك بالله ، والقول عليه بغير علم ، ومن ترك القسط ، وترك إقامة الوجه عند كل / مسجد ، ودعاء الله مخلصاً له الدين ، ثم يكون شرهم بحسب كل منهم ، من حيث نفوسهم وقدرتهم ^(١) ، فإن العبد لا يفعل إلا بقدره وإرادته ، فمن كان أقدر وأفجر كان أمره أشد ، كفرعون وأمثاله من الجبارين المتكبرين ، لا يصبرون عن أهوائهم ، ولا يتقون الله .

ظ ١٨٨

وأما المؤمن فإنه مع قدرته يفعل ما أمر الله به من البر والتقوى ، دون ما نهى عنه من الإثم والعدوان .

ثم أولئك الذين لم يتصفوا بحقيقة الإيمان - بل فيهم من الفجور كفر أو نفاق أو فسوق ما فيهم - إذا كانوا عاجزين عن إرادتهم ، لا يقدرّون على أهوائهم بنوع من أنواع القدرة ، تجدهم أذل الناس وأطوع الناس لمن ^(٢) يستعملهم في أغراضهم ، وأجزع الناس لما أصابهم ، ذلك أنه ليس في قلوبهم من الإيمان ما يعتاضون به ، وتستغنى به نفوسهم ، ويصبرون به عمّا لا يصلح لهم .

وهذه حال الأمم البعيدين عن العلم والإيمان ، كالترك التتار [والعرب] ^(٣) في جاهليتهم ، فإنهم أعز الناس إذا قدروا ، وأذل الناس إذا قهروا .

(١) في الأصل : بحسب أمر من حيث نفوسهم وقدرتهم . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٢) في الأصل : من .

(٣) زدت كلمة « والعرب » لتستقيم العبارة .

وأما المؤمنون ، فكما قال تعالى لهم وقد غلبوا : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا
وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٣٩] ، فهم الأعْلون إذا كانوا
مؤمنين ولو غلبوا .

وقال كعب بن زهير ^(١) في صفة الصحابة :

ليسوا مفارِخَ إن نَأَلَتْ رِمَاحُهُمْ يوماً وليسوا مجازيعاً إذا نِيلُوا ^(٢)

ولهذا كان المشروع في حق كل ذى إرادة فاسدة من الفواحش والظلم
والشرك والقول بلا علم - أحد أمرين : إما إصلاح إرادته ، وإما منع قدرته ، فإنه إذا
اجتمعت القدرة مع إرادته الفاسدة حصل الشر .

وأما ذو الإرادة الصالحة فتؤيد قدرته حتى يتمكن من فعل الصالحات ،
وذو القدرة الذى لا يمكن سلب قدرته يُسعى في إصلاح إرادته بحسب الإمكان .
فالمقصود تقوية الإرادة الصالحة والقدرة عليها بحسب الإمكان ، وتضعيف
الإرادة الفاسدة والقدرة معها بحسب الإمكان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وهذا مما يظهر به حسن حال المؤمن وترجيحه في النعيم واللذة على الكافر في
الدنيا قبل الآخرة ، وإن كانت الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر .
والمؤمن أرجح في النعيم
واللذة من الكافر في
الدنيا قبل الآخرة
وإن كانت الدنيا سجن
المؤمن وجنة الكافر

(١) في الأصل : ابن مالك ، والتصويب في هامش الأصل : « صوابه ابن زهير » .

(٢) البيت في شرح ديوان كعب بن زهير ، صنعة أبى الحسن بن الحسين السكرى ، ص ٢٥ ،
ط . دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٠/١٣٦٩ ولكنه فيه :

لا يفرحون إذا نالت رماحهم قوما وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا

وأورد ابن تيمية البيت في كتاب « الاستقامة » ٢٧٤/٢ (وانظرت ٢) .

فأما ما وُعد به المؤمن بعد الموت من كرامة الله [فإنه] ^(١) تكون الدنيا ^(٢) بالنسبة إليه سجنا ، وما للكافر بعد الموت من عذاب الله [فإنه] ^(٣) تكون الدنيا جنة ^(٤) بالنسبة إلى ذلك .

وذلك أن الكافر صاحب الإرادة الفاسدة إما عاجز وإما قادر ، فإن كان عاجزاً تعارضت إرادته [وقدرته] حتى لا يمكنه الجمع بينهما ، [وإن كان قادراً أقبل على الشهوات وأسرف في] التذاذه بها ولا يمكنه تركها ^(٥) .

/ ولهذا تجد القوم ^(٦) من الظالمين أعظم الناس فجوراً وفساداً ^(٧) وطلباً لما يروّحون به أنفسهم من مسموع ومنظور ومشموم ومأكول ومشروب ، ومع هذا فلا تطمئن ^(٨) قلوبهم بشيء من ذلك ، هذا فيما ينالونه ^(٩) من اللذة ، وأما

ص ١٨٩

(١) زدت « فإنه » ليستقيم الكلام .

(٢) في الأصل : تكون في الدنيا .

(٣) زدت « فإنه » ليستقيم الكلام .

(٤) في الأصل : تكون في الدنيا جنته .

(٥) في الأصل اضطربت السطور الأخيرة وجاء الكلام فيها ناقصاً محرفاً هكذا : « وذلك أن الكافر صاحب الإرادة الفاسدة إما قادر وإما عاجز (وتحتها علامة التقديم والتأخير) فإن كان قادراً تعارضت إرادته حتى لا يمكنه الجمع بينهما وسهاون حتى يقلد التذاذه بها أو يعدم ولا يمكنه تركها » . ولعل ما أثبتته هو أقرب شيء إلى الصواب إن شاء الله .

(٦) في الأصل : القول ، وهو تحريف .

(٧) في الأصل : صخو وبلا ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٨) في الأصل : بتطمين ، وهو تحريف .

(٩) في الأصل : يتاولونه ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبتته .

ما يخافونه من الأعداء ، فهم أعظم الناس خوفاً ، ولا عيشة لخائف . وأما العاجز منهم فهو في عذاب عظيم ، لا يزال في أسف على ما فاته وعلى ما أصابه .

وأما المؤمن فهو مع قدرته له من الإرادة الصالحة والعلوم النافعة ما يوجب طمأنينة قلبه وانسراح صدره بما يفعله من الأعمال الصالحة ، وله من الطمأنينة وقرة العين ما لا يمكن وصفه ، وهو مع عجزه أيضاً [له] ^(١) من أنواع الإيرادات الصالحة والعلوم النافعة التي يتنعم بها ما لا يمكن وصفه .

وكل هذا محسوس مجرب ، وإنما يقع غلط أكثر الناس أنه قد أحس بظاهري لذات أهل البر
 من لذات أهل الفجور وذاقها ، ولم يذق لذات أهل البر ولم يخبرها ، ولكن أكثر
 الناس جهال ، كما لا يسمعون ولا يعقلون ، وهذا الجهل لعدم شهود حقيقة الإيمان
 ووجود حلاوته وذوق طعمه ، انضم إليه أيضاً جهل كثير من المتكلمين في العلم
 بحقيقة ما في أمر [الله] ^(٢) من المصلحة والمنفعة ، وما في خلقه أيضاً لعبده المؤمن
 من المنفعة والمصلحة ، فاجتمع الجهل ^(٣) بما أخبر الله به من خلقه وأمره ،
 وما أشهده عباده من [حقيقة الإيمان] ووجود [حلاوته] ^(٤) مع ما في النفوس
 من الظلم ، مانعاً للنفوس من عظيم نعمة الله وكرامته ورضوانه ، موقعاً لها في بأسه
 وعذابه وسخطه .

(١) زدت « له » ليستقيم الكلام .

(٢) زدت لفظ الجلالة لتستقيم العبارة .

(٣) في الأصل : فاجتمع أهل الجهل ، وهو خطأ .

(٤) في الأصل العبارات محرفة مضطربة هكذا : « وما أشهده عباده من موجوده بمكان هذا

الجهل » ولعل الصواب ما أثبتته .

وذلك أن الناس لما خاضوا في مسائل القدر ، ولم يخلق الله ويأمر ، ونحو ذلك ، بغير هدى من الله ، فرّقوا دينهم وكانوا شيعا .

لما خاض الناس
في مسائل القدر
ابتدع طوائف منهم
مقالات مخالفة
للكتاب والسنة :
بدع القدرية

فزعم فريق أنه لا يخلق أحدا من الأشخاص إلا لأجل مصلحة المخلوق / ولا يأمره إلا لأن أمره مصلحة له أيضا ، وإنما العبد هو الذى صرف عن نفسه المصلحة وفعل المفسدة ^(١) بغير قدرة الرب وبغير مشيئته ، وهم إنما قصدوا بها تنزيه الرب عن الظلم والعيب ، ووصفه بالحكمة والعدل والإحسان ، لكن سلبوه علمه ^(٢) وقدرته وكتابتة ^(٣) وخلقها ، ونفوا ^(٤) مشيئته وعمومها .

فقال قوم منهم : إنه لا يعلم ولا يكتب ما يكون من العباد حتى يفعلوه ^(٥) .

وقال آخرون : بل علم ذلك وعلم أنهم لا يطيعونه ، ولا يفعلون إلا ما يضرهم ، ومع هذا فقصد تعريفهم بالخلق والأمر للمنفعة الخالصة الدائمة .

فقال لهم الناس : من علم أن مقصوده من الخير لا يكون ، وقد سعى في حصوله بمنتهى قدرته ، كان من أجهل الفاعلين وأسفهم ، فنزهوه عن قليل من السفه بالتزام ما هو أكثر منه ، وزعموا أنه لا يقدر إلا على ما فعل بهم ، فسلبوه قدرته .

(١) في الأصل : « وإنما العبد هو الذى صرف عن نفسه مصلحة وفعل مفسد مشقة » وهى عبارات محرفة ، ولعل الصواب ما أثبتته .

(٢) في الأصل : عمله ، وهو تحريف ، واحسب أن الصواب ما أثبتته .

(٣) في الأصل : وكتابه ، وهو تحريف ، ولعل الصواب ما أثبتته .

(٤) في الأصل : ونقود ، وهو تحريف ، وأرجو أن يكون الصواب ما أثبتته .

(٥) في الأصل : حتى فعلوه ، وهو خطأ .

بدع طائفة من
أهل الإنبات

فرد على هؤلاء طائفة من أهل الإنبات ، فأثبتوا عموم قدرته وعموم مشيئته وخلقه وعلمه القديم ، وكل هذا حسن موافق للكتاب والسنة ، وهو مع تمام الإيمان القدر : بعلم الله القديم ، ومشيئته ، وخلقه ، وقدرته على كل شيء ، لكن ضموا إلى ذلك أشياء ليست من السنة .

فإنه من السنة أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وألا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ، وأنه يأمر العباد بطاعته ، ومع هذا يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، كما قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة يونس : ٢٥] .

فزعموا مع ذلك أنه يخلق الخلق لا لحكمة في خلقهم ، ولا لرحمته لهم ، بل قد يكون خلقهم ليضرهم ^(١) كلهم ، وهذا عندهم حكمة ، فلم ينزهه عما نزه [عنه] ^(٢) نفسه من الظلم ، حيث أخبر أنه إنما يجزي الناس بأعمالهم ، وأنه لا يزر وازرة وزر أخرى ، وأنه من يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما .

بل زعموا أن كل مقدور عليه فليس بظلم ، مثل تعذيب الأنبياء والمرسلين ، وتكريم الكفار والمنافقين ، وغير ذلك مما نزه الله نفسه عنه ، فلم يكن الظلم الذي نزه الله نفسه عنه حقيقة عند هؤلاء ، إذ كل ما يمكن ويقدر عليه فليس بظلم . فقوله تعالى : ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [سورة غافر : ٣١] / عندهم : لا يريد ^(٣) ما لا يكون ممكنا مقدورا عليه ، وهو عندهم ^(٤) لا يقدر

ص ١٩٠

(١) في الأصل : لنصرهم ، وهو تحريف ، وأرجو أن يكون الصواب ما أثبتته .

(٢) زدت « عنه » ليستقيم الكلام .

(٣) في الأصل : عندهم فقوله قوله لا يريد . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٤) في الأصل : وهو عندهم عليه وهو عندهم ولعل الصواب ما أثبتته .

على الظلم حتى يكون تاركا له ، وزعموا أنه قد يأمر العباد بما لا يكون مصلحة لهم ولا لواحد منهم ، لا يكون الأمر مصلحة ، ولا يكون فعل المأمور به مصلحة ، بل قد يأمرهم بما إن فعلوه ^(١) كان مضرة لهم ، وإن لم يفعلوه عاقبهم [به] ^(٢) ، فيكون العبد فيما يأمره به بين ضررين : ضرر إن أطاع ، وضرر إن عصى . ومن كان كذلك كان أمره للعباد مضرة لهم ، لا مصلحة لهم .

وقالوا : يأمر بما يشاء ، وأنكروا أن يكون في الأحكام الشرعية من العلل المناسبة للأحكام من جلب المنافع ودفع المضار ما تبقى [الأحكام] الشرعية ^(٣) ممكنة به ، حتى كان منهم من دفع علة الأحكام بالكلية ، ومنهم من قال : العلل مجرد علامات ودلالات على الحكم ، لأنها أمور تناسب الحكم وتلائمه ، وهو يجوزون مع هذا ألا يكون للعبد ثواب ومنفعة في فعل المأمور به ، لكن لما جاءت الشريعة بالوعد قالوا ^(٤) هو موعود بالثواب الذي وُعد به ، وربما قالوا : إنه في الآخرة فقط ، فإن الفعل المأمور به قد ^(٥) لا يكون [فيه] ^(٦) مصلحة للعباد ولا منفعة لهم بحال ، ولا يكون فيه ^(٧) تنعم لهم ولا لذة بحال ، بل قد يكون مضرة لهم ومفسدة في حظههم ، ليس فيه ما ينفعهم ^(٨) ، ومعلوم أنه إذا اعتقد المرء

(١) في الأصل : بما به إن فعلوه .

(٢) زدت « به » لتستقيم العبارة .

(٣) في الأصل : ما هي الشرعية . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٤) في الأصل : قال .

(٥) في الأصل : فقد .

(٦) زدت « فيه » لتستقيم العبارة .

(٧) في الأصل كأن العبارة : فلا يكون لله ، ولعل الصواب ما أثبتته .

(٨) في الأصل كأنها : يؤلمهم ، ولعل الصواب ما أثبتته .

[أن] (١) طاعة الله ورسوله فيما أمره [به] (٢) قد لا يكون [فيها] (٣) مصلحة له ولا منفعة ، ولا فيها تنعم ولا لذة (٤) ولا راحة ، بل يكون [فيها] (٥) مفسدة له ومضرة عليه ، وليس فيها إلا ألمه (٦) وعذابه - كان هذا من أعظم الصوارف له عن فعل ما أمر الله به ورسوله ، ثم إن كان ضعيف الإيمان بالوعيد والوعد ترك الدين بالكلية ، وإن كان مؤمنا بالوعيد صارت دواعيه مترددة بين هذا العذاب وذلك العذاب ، وإن كان مؤمنا بوعد الآخرة فقط اعتقد أنه لا تكون له (٧) في الدنيا مصلحة ولا منفعة (٨) ، بل [لا] (٩) تكون المصلحة والمنفعة في الدنيا إلا لمن كفر أو فسق وعصى .

وهذا أيضا وإن كان / هو غاية حال هؤلاء ، فهو مما يصرف النفوس عن طاعة الله ورسوله ، ويبقى العبد المؤمن متردد الدواعي بين هذا وهذا . وهو لا يخلو من أمرين : إما أن يرجح جانب الطاعة التي يستشعر أنه ليس فيها طول عمره له مصلحة ولا منفعة ولا لذة ، بل عذاب وألم ، بل مفسدة ومضرة ، وهذا لا يكاد يصبر عليه أحد .

(١) زدت « أن » ليستقيم الكلام .

(٢) في الأصل : فيما أمره ، ولعل الصواب ما أثبتته .

(٣) زدت « فيها » ليستقيم الكلام .

(٤) في الأصل : لعذبه ، وهو تحريف ، ولعل الصواب ما أثبتته .

(٥) زدت « فيها » ليستقيم الكلام .

(٦) في الأصل كأنها : ليس فيها إله ، ولعل الصواب ما أثبتته .

(٧) في الأصل : في الآخرة فقط ثم فرح أنه يكون له ، ولعل الصواب ما أثبتته .

(٨) في الأصل : مصلحة بلا منفعة ، ولعل الصواب ما أثبتته .

(٩) زدت « لا » ليستقيم الكلام .

وإما أن يرجع جانب المعصية تارة أو تارات أو غالبا ، ثم إن أحسن أحواله مع ذلك أن ينوى التوبة قبيل موته .

ولا ريب إن كان ما قاله هؤلاء حقا فصاحب هذه الحال أكيس وأعقل ممن مَحَضَّ طاعة الله طول عمره ، إذ أن هذا (١) سلم من عذاب ذلك المطيع في الدنيا ، ثم إنه بالتوبة أحبط عنه العقاب ، وأبدل الله سيئاته بالحسنات ، فصارت جميع سيئاته حسنات ، فصار ثوابه في الآخرة قد يكون أعظم وأعظم من ثواب ذلك المطيع الذي مَحَضَّ الطاعة ، ولو كان ثوابه دون ثواب ذلك (٢) لم يكن التفاضل بينهم إلا كتفاضل أهل الدرجات في الجنة ، وهذا مما يختاره أكثر الناس على مكابدة العذاب والشقاء والبلاء بطول العمر ، إذ هو أمر لا يصبر عليه أحد ، فإن مصابرة العذاب ستين أو سبعين سنة بلا مصلحة ولا منفعة ولا لذة أمر ليس هو من جِبِلَّةِ الأحياء ، إذا جَوَّزُوا أن لا يكون في شيء من طاعة الله مصلحة ولا منفعة طول عمره .

وهؤلاء يجعلون العباد مع الله بمنزلة الأجراء مع المستأجرين ، كأن الله استأجرهم طول مقامهم في الدنيا ليعملوا ما لا ينتفعون به ، ولا فيه لربهم منفعة ، ليعوضهم مع ذلك بعد الموت بأجرتهم ، وفي هذا من تشبيه الله (٣) بالعاجز الجاهل السفیه ما يجب تنزيه الله عنه ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

(١) في الأصل : إذا أهدانا ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٢) في الأصل : ولو كان ثوابه دون ذلك ثواب ذلك . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٣) في الأصل : أمر السنة لله ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبتته .

والحق الذى يجب اعتقاده أن الله سبحانه إنما أرسل رسوله رحمة للعالمين ، المقالة الصحيحة لأهل السنة والجماعة ص ١٩١

وأن إرسال الرسل وإنزال الكتب / رحمة عامة للخلق أعظم من إنزال المطر وإطعام البذر ، وإن يحصل بهذه الرحمة ضرر لبعض النفوس (١) .

ثم إنه سبحانه - كما قال قتادة وغيره من السلف : لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليه ، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلا منه (٢) ، بل أمرهم بما فيه صلاحهم ، ونهاهم عما فيه فسادهم .

وفى الحديث الصحيح ، حديث أبى ذر عن النبى ﷺ : « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد يسألونى فأعطيت كل إنسان منهم مسأله ما نقص ذلك من ملكى شيئا إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخيط غمسة واحدة ، يا عبادى إنما هى أعمالكم ترد عليكم ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (٣) .

(١) فى الأصل : وأن يحصل بهذه الرحمة نصر (بدون نقط) وبعض النفوس ، ولعل الصواب ما أثبتته .

(٢) فى الأصل : بخلافه ، ولعل الصواب ما أثبتته .

(٣) الحديث عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه فى : مسلم ١٩٩٤/٤ (كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم) ، وسبق هذا الحديث فى المجموعة الأولى ، ص ١٤٨ وعلقت عليه هناك (ت ١) .

وقال تعالى في وصف النبي الأمي : ﴿ يَا مُرْتَمٍ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ
وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [سورة الأعراف : ١٥٧] .

وقال تعالى لما ذكر (١) الوضوء : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ
وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٦] .
فأخبر أنه لا يريد أن يجعل علينا من حرج فيما أمرنا به ، وهذه نكرة مؤكدة بحرف
« مِنْ » (٢) ، فهي تنفي كل حرج ، وأخبر أنه إنما يريد تطهيرنا وإتمام نعمته علينا .

وقال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ
وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [سورة الحج : ٧٨] ، فقد
أخبر أنه ما جعل علينا في الدين من حرج نفيًا عامًا مؤكدًا ، فمن اعتقد أن فيما
أمر الله به مثقال ذرة من حرج فقد كذب الله ورسوله ، فكيف بمن اعتقد
[أن] (٣) المأمور به قد يكون فسادًا وضررًا لا منفعة فيه ولا مصلحة لنا ، ولهذا
[لما] (٤) لم يكن فيما أمر الله ورسوله حرج علينا ، لم يكن الحرج من ذلك
إلا من النفاق ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا
شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [سورة
النساء : ٦٥] .

ظ ١٩١

(١) في الأصل : لما ذكروا .

(٢) في الأصل : وهذه بكرة مور كده بحترف من . وفوق حرف « من » كتب « كذا » . وأرجو

أن يكون الصواب ما أثبتته .

(٣) زدت « أن » ليستقيم الكلام .

(٤) زدت « لما » لتستقيم العبارة .

وقال الله تعالى فيما أمر به من الصيام : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [سورة البقرة : ١٨٥] ، فإذا كان لا يريد فيما أمرنا به ما يعسر علينا ، فكيف يريد ما يكون ضررا وفسادا لنا بما أمرنا به إذا أظعنناه فيه ؟

الإيمان والطاعة خير من
الكفر والمعصية للعبد
في الدنيا والآخرة

ثم إنه يكون قد أخبر أن الإيمان والطاعة خير من الكفر والمعصية للعبد في الدنيا والآخرة ، وإن كان لجهله يظن أن ذلك خير له ^(١) في الدنيا ، كما يقوله هؤلاء الذين فيهم جهل ونفاق ، الذين قد يقولون : إن المأمور به قد لا يكون فيه للعبد مصلحة ولا منفعة طول عمره ، بل يكون ذلك في المنهى عنه ، فقال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة :

• [٢١٦]

وقال تعالى عن الذين اتبعوا : ﴿ مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ ﴾ إلى قوله ﴿ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرُّوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] فأخبر أنهم يعلمون أن هذه الأمور لا تنفع ^(٢) بعد الموت ، بل لا يكون لصاحبها نصيب في الآخرة ، وإنما طلبوا بها منفعة الدنيا ، وقد يسمون ذلك العقل المعيشي ، أي العقل الذي يعيش به الإنسان في الدنيا عيشة طيبة ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٣] ، فأخبر أن أوليائه ^(٣) الذين آمنوا وكانوا يتقون ، ينهبهم ^(٤) على

(١) في الأصل : خيرا له ، وهو خطأ .

(٢) في الأصل : لا ينفع .

(٣) في الأصل : أوليائه ، وهو خطأ .

(٤) في الأصل : يهبهم ، وهو تحريف .

[أن في] (١) ذلك ما هو خير لهم مما طلبوه في الدنيا لو كانوا يعلمون ، فيحصل لهم في الآخرة (٢) من الخير الذي هو المنفعة ودفع المضرة ما هو أعظم مما يحصلوه / بذلك من خير الدنيا . ص ١٩٢

كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٥٦] ، ثم قال : ﴿ وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [سورة يوسف : ٥٧] . وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . فَأَنآهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٤٧ ، ١٤٨] (٣) . وقال عن إبراهيم : ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [سورة النحل : ١٢٢] .

وقد قال تعالى ما يبين به أن فعل المكروه من المأمور خير من تركه في الدنيا أيضا . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا . وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا . وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ [سورة النساء : ٦٦ - ٦٨] .

(١) زدت عبارة « أن في » ليستقيم الكلام .

(٢) في الأصل : في الدنيا ، وهو خطأ . وأجوا أن يكون الصواب ما أثبتته .

(٣) سقطت كلمة « الكافرين » من الأصل .

وهذا في سياق حال ﴿ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [سورة النساء : ٦٠] ، وهؤلاء منافقون من أهل الكتاب .

والمشركون حالهم أيضا شبيهه (١) بحال الذين نبذوا كتاب الله وراءهم ظهريا كأنهم لا يعلمون : ﴿ وَاتَّبِعُوا مَا نَتَلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] ، فإن أولئك عدلوا عما في كتاب الله إلى اتباع الجبت ، والطاغوت ، والسحر ، والشيطان . وهذه حال الذين أوتوا نصيبا من الكتاب الذين يؤمنون بالجبت والطاغوت ، وحال الذين يتحاكمون إلى الطاغوت من المظهرين [للإيمان] (٢) بالله ورسله فيها من حال هؤلاء .

والطاغوت كل معظم ومتعظم بغير طاعة الله ورسوله ، من إنسان أو شيطان أو شيء من الأوثان .

وهذه حال كثير ممن يشبه اليهود من المتفقهة والمتكلمة وغيرهم ممن فيه نوع نفاق من هذه الأمة ، الذين يؤمنون بما خالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من أنواع الجبت والطاغوت ، والذين يريدون أن يتحاكموا إلى غير كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا . فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ

ظ ١٩٢

(١) في الأصل : شبههم ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٢) زدت كلمة « للإيمان » لتستقيم العبارة .

ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿ [سورة النساء: ٦١ ، ٦٢] (١)
 أى هؤلاء لم يقصدوا ما فعلوه من العدل عن طاعة الله ورسوله إلى اتباع ما اتبعوه من الطاغوت إلا لما ظنوه من جلب منفعة لهم ودفع مضرة عنهم ، مثل طلب علم وتحقيق ، كما يوجد في صنف المتكلمة ، ومثل طلب أذواق ومواجيد ، كما يوجد في صنف المتعبدة ، ومثل طلب شهوات ظاهرة وباطنة ، كما يوجد في صنف الذين يريدون العلو ، والذين يتبعون شهوات الغنى (٢) .

قال تعالى : ﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [سورة النساء : ٦٠] أى ضلوا عن مطلوبهم الذى هو جلب المنفعة ودفع المضرة ، فإن ذلك إنما هو فى طاعة الله ورسوله دون اتباع الطاغوت ، فإذا عاقبهم الله بنقيض مقصودهم فى الدنيا فأصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، قالوا : ما أردنا بما فعلناه (٣) إلا إحسانا : أى أردنا الإحسان إلى نفوسنا لا ظلمها ، وتوفيقا : أو جمعا بين هذا وهذا ، لتجتمع الحقائق والمصالح .

قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [سورة النساء : ٦٣] من الاعتقادات الفاسدة والإرادات الفاسدة : الظن وما تهوى الأنفس ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ [سورة النساء : ٦٣] .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا ﴾

(١) فى الأصل جاءت آيتا سورة النساء ناقصتين محرفتين .

(٢) فى الأصل : الغنى ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : ما أردنا إلا بما فعلناه ، وهو خطأ .

رَّحِيمًا ﴿ [سورة النساء : ٦٤] فدعاهم سبحانه بعد ما فعلوه من النفاق إلى التوبة ، وهذا من كمال رحمته بعباده ، يأمرهم قبل المعصية بالطاعة ، وبعد المعصية بالاستغفار ، وهو رحيم بهم في كلا الأمرين : بأمره لهم بالطاعة أولا برحمته ، وأمرهم بالاستغفار من رحمته ، فهو سبحانه رحيم بالمؤمنين الذين أطاعوه أولا ، والذين استغفروه ثانيا .

فإذا كان رحيمًا بمن يطيعه ، والرحمة توجب إيصال ^(١) ما ينفعهم إليهم ، ودفع ما يضرهم عنهم ، فكيف يكون المأمور به مشتتلا على ضررهم دون منفعتهم ؟

معنى الجيء إلى
الرسول ﷺ بعد مماته

وقوله : (فجاءوك) : الجيء إليه في حضوره معلوم كالدعاء إليه ، وأما في مغيبه ومماته ^(٢) فالجيء إليه كالدعاء إليه والرد إليه . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ ﴾ [سورة النساء : ٦١] وقال تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [سورة النساء : ٥٩] / وهو الرد والجيء إلى ما بُعث به من الكتاب والحكمة ، وكذلك الجيء إليه ^(٣) لمن ظلم نفسه هو الرجوع إلى ما أمره به ، فإذا رجع إلى ما أمره به فإن الجأى إلى الشيء في حياته ممن ظلم نفسه يجيء إليه داخلا في طاعته ، راجعا عن معصيته ، كذلك في مغيبه ومماته .

واستغفار الله موجود في كل مكان وزمان ، وأما استغفار الرسول فإنه أيضا

(١) في الأصل : أفعال ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٢) في الأصل : وماته ، وهو تحريف .

(٣) في الأصل : المحية إليه ، وهو تحريف . والإشارة هنا إلى قوله تعالى : (ولو أنهم إذ ظلموا

أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله ...) الآية .

يتناول الناس في مغيبه وبعد مماته ، فإنه أمر بأن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، وهو مطيع لله (١) فيما أمره به . والتائب داخل في الإيمان ، إذ المعصية تنقص (٢) الإيمان ، والتوبة من المعصية تزيد في الإيمان بقدرها ، فيكون له من استغفار-النبى ﷺ بقدر ذلك .

فأما مجيء الإنسان إلى [الرسول ﷺ] (٣) عند قبره ، وقوله : استغفر لى ، أو سل لى ربك ، أو ادعو لى ، أو قوله في مغيبه : يا رسول الله ادع لى ، أو استغفر لى ، أو سل لى ربك كذا وكذا ، فهذا لا أصل له (٤) ، ولم يأمر الله بذلك ، ولا فعله واحد من سلف الأمة المعروفين في القرون الثلاثة ، ولا كان ذلك معروفا بينهم ، ولو كان هذا مما يستحب لكان السلف يفعلون ذلك ، ولكان ذلك معروفا فيهم ، بل مشهورا بينهم ، ومنقولا عنهم . فإن مثل هذا إذا كان طريقا إلى غفران السيئات وقضاء الحاجات ، [لكان] (٥) مما تتوفر (٦) الهمم والدواعى على فعله وعلى نقله ، لا سيما فيمن كانوا أحرص الناس على الخير ، فإذا لم يعرف أنهم كانوا يفعلون ذلك ، ولا نقله أحد عنهم ، [علم] (٧) أنه لم يكن مما يستحب ويؤمر به .

(١) في الأصل : الله .

(٢) في الأصل : ينقص .

(٣) ما بين المعقوفين زدته ليستقيم الكلام .

(٤) في الأصل : فهذا الأصل له ، وهو تحريف .

(٥) زدت « لكان » ليستقيم الكلام .

(٦) في الأصل : يتوفر .

(٧) زدت كلمة « علم » لتستقيم العبارة .

بل المنقول الثابت عنه ما أمر الله به النبي ﷺ من نهيه عن اتخاذ قبره عيداً ووثناً ، وعن اتخاذ القبور مساجد (١) .

وأما ما ذكره بعض الفقهاء من حكاية العتبي عن الأعرابي الذي أتى قبر النبي ﷺ وقال : « يا خير البرية : إن الله يقول : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ الآية [سورة النساء : ٦٤] ، وإني قد جئت » (٢) وأنه رأى النبي ﷺ في المنام وأمره أن يبشر الأعرابي (٣) - فهذه الحكاية ونحوها مما يذكر في قبر النبي ﷺ وقبر غيره

ظ ١٩٣

(١) وردت أحاديث كثيرة نبى فيها النبي ﷺ عن اتخاذ قبره عيداً ووثناً ، وعن اتخاذ القبور مساجد ، منها عن أبي هريرة رضي الله عنه قوله ﷺ : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قبري عيداً ، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم » وهو في : سنن أبي داود ٢٩٣/٢ (كتاب المناسك ، باب زيارة القبور) ؛ المسند (ط . الحلبي) ٣٦٧/٢ .

ومنها عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم حديث النبي ﷺ : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وهو في : البخاري ٩١/١ (كتاب الصلاة ، باب حدثنا أبو ايمان) ؛ مسلم ٣٧٧/١ (كتاب المساجد ، باب النبي عن بناء المساجد على القبور) .

ومنها حديث : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وهو في الموطأ ١٧٢/١ (كتاب قصر الصلاة في السفر ، باب جامع الصلاة) عن عطاء ابن يسار ؛ المسند (ط . المعارف) ٨٦/١٣ - ٨٩ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) في الأصل كتب فوق كلمة « جئت » : « كذا » .

(٣) قال ابن كثير في تفسير آية ٦٤ من سورة النساء : « وقد ذكر جماعة منهم الشيخ أبو منصور الدباغ في كتابه « الشامل » الحكاية المشهورة عن العتبي قال : كنت جالسا عند قبر النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال : السلام عليك يا رسول الله ، سمعت الله يقول : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً) وقد جئتك مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي ، ثم أنشأ يقول :

يا خير من دُفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي ، فغلبتني عيني فرأيت النبي ﷺ في النوم ، فقال : يا عتبي الحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له » .

من الصالحين ، فيقع مثلهما لمن في إيمانه ضعف ، وهو جاهل بقدر الرسول وبما أمر به ، فإن لم يُعَف [عن] مثل هذا ^(١) لحاجته ، وإلا اضطرب إيمانه ، وعظم نفاقه ، فيكون في ذلك بمنزلة المؤلففة بالعطاء في حياة النبي ﷺ ، كما قال : « إني لأتألف ^(٢) رجالا بما في قلوبهم من الهلع والجزع ، وأكُلُّ رجالا إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير » ^(٣) ، مع أن أخذ ذلك المال مكروه لهم ، فهذه أيضا مثل هذه الحاجات .

وأما المشروع الذي وردت به سنته فهو دعاء المسلم ربه ، متوسلا به ، لا دعاؤه ^(٤) في مماته ومغيبه ، وهو أن يفعل ^(٥) كما في الحديث الذي رواه الترمذى وصححه أن النبي ﷺ علم رجلا أن يقول : « اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بنبيك محمد ، نبي الرحمة ، يا محمد يا نبي الله : إني أتوسل بك إلى ربي في حاجتي

(١) في الأصل كأنها : فإن لم يسعف مثل هذا . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٢) في الأصل : لأتلف (بدون نقط) ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبتته . ولفظ الحديث : إني لأعطي ...

(٣) الحديث عن عمرو بن تغلب بن رضى الله عنه ونصه في البخارى : « حدثنا عمرو بن تغلب أن رسول الله ﷺ أتى بمال أو سبي فقسمه فأعطى رجالا وترك رجالا ، فبلغه أن الذين ترك عتبا ، فحمد الله ثم أثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد فوالله إني لأعطي الرجل وأدع الرجل ، والذي أدع أحب إلي من الذى أعطى ، ولكن أعطى أقواما لما رأى في قلوبهم من الجزع والهلع ، وأكُلُّ أقواما إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير ، فبهم عمرو بن تغلب » فوالله ما أحب أن لى بكلمة رسول الله ﷺ حُمِرَ النَّعَم » .

والحديث في : البخارى ١٠/٢ - ١١ (كتاب الجمعة ، باب من قال في الخطبة بعد الثناء : أما بعد) ، ١٥٦/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : إن الإنسان خلق هلوعا) ؛ المسند (ط . الحلبي) ٦٩/٥ .

(٤) في الأصل : لا دعاه .

(٥) في الأصل بعد عبارة « أن يفعل » كرر الناسخ عبارة : « ولا دعاه في مماته ومغيبه » .

ليقضيهما ، اللهم شفّعه فيّ » (١) . وذلك أن الله يقول : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٥] وقال تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ [سورة السجدة : ٤] ، ثم قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [سورة النساء : ٦٥] .

فأقسم بنفسه على أنه نفى إيمان من لم يجمع أمرين : تحكيمه فيما شجر بينهم ، ثم أن لا يجد في نفسه حرجا . وهذا يوجب أنه ليس في أمره ونهيه ما يوجب الحرج لمن امتثل ذلك ، فإن حكمه لا بد فيه من أمر ونهى ، وإن كان فيه إباحة أيضا ، فلو كان المأمور به والمنهى عنه مضرّة للعبد ومفسدة ، وألما بلا لذة راجحة ، لم يكن العبد ملوما على وجود الحرج فيما هو مضرّة له ومفسدة .

ولهذا لم يتنازع العلماء أن الرضا بما أمر الله به ورسوله واجب محجب ، لا يجوز كراهة ذلك وسخطه ، وأن محبة ذلك واجبة ، بحيث يبغض ما أبغضه الله ، على المؤمن أن يحب ما أحب الله ويبغض ما أبغضه الله ويرضى بما قدره الله

(١) الحديث عن عثمان بن حنيف رضى الله عنه في : سنن ابن ماجة ١/٤٤١ - ٤٤٢ (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب ما جاء في صلاة الحاجة) ونص الحديث : عن عثمان بن حنيف أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال : ادع الله لى أن يعافينى . فقال : « إن شئت أخرت لك وهو خير ، وإن شئت دعوت » . فقال : ادعه . فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ، ويصلى ركعتين ، ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بمحمد نبي الرحمة ، يا محمد إنى قد توجهت بك إلى ربي في حاجتى هذه لتقضى . اللهم شفّعه فيّ » . وقال ابن ماجة : « قال أبو إسحاق : هذا حديث صحيح » . وذكر الحديث الترمذى في سننه (تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى للمباركفورى ، تحقيق محمد عبد الرحمن عثمان ، ط . المدينة المنورة) ١٠/٣٢ - ٣٣ . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبى جعفر ، وهو غير الخطمى » . وقال المباركفوزى في شرحه : « وأخرجه النسائى وزاد فى آخره : فرجع وقد كشف الله عن بصره . وأخرجه أيضا ابن ماجة وابن خزيمة فى صحيحه والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين ، وزاد فيه : فدعا بهذا الدعاء ، فقام وقد أبصر . وأخرجه الطبرانى » .

ويسخط ما أسخطه الله من المحذور ، ويجب ما أحبه ، ويرضى ما رضىه الله من المأمور .

وإنما تنازعا في الرضا بما يقدره الحق من الألم بالمرض والفقر . فقيل : هو واجب ، وقيل هو مستحب وهو أرجح . والقولان في أصحاب الإمام أحمد وغيرهم . وأما الصبر على ذلك فلا نزاع أنه واجب .

وقد قال تعالى في الأول : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَّمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٥٨ ، ٥٩] .

فجعل من المنافقين من سخط فيما منعه الله إياه ورسوله ، وحضهم (١) بأن يرضوا بما آتاهم الله ورسوله . والذي آتاه الله ورسوله يتناول ما أباحه دون ما حظره ، / ويدخل [في] (٢) المباح العام ما أوجبه وما أحبه . ص ١٩٤

وإذا كان الصبر على الضراء ونحو ذلك مما أوجبه الله وأحبه ، كما أوجب الشكر على النعماء وأحبه ، كان كل من الصبر والشكر مما يجب محبته وعمله (٣) . فيكون ما قُدر للمؤمن من سراء معها شكر وضرء معها صبر خيراً له ، كما قال النبي ﷺ : « لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، أن أصابته سراء فشكر كان خيراً له ، وإن أصابته ضرء فصبر كان

(١) في الأصل : وخصهم ، وهو تحريف .

(٢) زدت « في » ليستقيم الكلام .

(٣) في الأصل : وعلمه .

خيرا له « (١) . وإذا كان خيرا فالخير هو المنفعة والمصلحة الذى فيه النعيم واللذة كما تقدم .

فيكون كل مقدر قُدر للعبد إذا عمل فيه بطاعة الله ورسوله خيرا له ، وإنما يكون شره لمن عمل بمعصية (٢) الله ورسوله ، ومثل ذلك فهو - بحسبه (٣) ونيته - بلاء (٤) قد يعمل فيه بطاعة الله ، وقد يعمل فيه بمعصية الله ، فلا يوصف بواحد (٥) من الأمرين .

فصل

جميع الحركات ناشئة
عن الإرادة والاختيار

وإذا كان كل حركة فى الوجود فلا تخلو من أن تكون إرادية أو طبيعية أو قسرية ، وتبين أن الطبيعية والقسرية فرع (٦) وتبع للإرادية - فثبت أن جميع الحركات ناشئة عن الإرادة والاختيار ، وذلك يبطل أن يضاف خلق شيء من المخلوقات إلى الطبع الذى فى الأجسام ، مثل (٧) أن يكون الخالق للأجنة فى الأرحام هو طبع ، أو الخالق (٨) للنبات هو طبع ، لأن الطبع لا يكون مبدءاً لحركة

(١) مضى الحديث من قبل فى هذه المجموعة قبل صفحات (ص : ٥٤) .

(٢) فى الأصل : معصية .

(٣) فى الأصل : يجه .

(٤) فى الأصل : وبلاء .

(٥) فى الأصل : بأحد .

(٦) فى الأصل : نوع ، ولعل الصواب ما أثبتته .

(٧) فى الأصل : قيل ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبتته .

(٨) فى الأصل : أو خالق .

[الجسم] ^(١) وانتقال أصله ، إلا إذا أُخرج عن طبعه بغير طبعه ، كما يُجمع بين الأجسام بالمتزوج والتحليل ، فتنتقل عن مراكزها ومحالها المخالف لمقتضى طبعها ^(٢) ، وعند التحقيق يعود الطبع إلى أنه ليس فيها سبب للحركة عن حالها وسكونها ، فيكون الطبع بمنزلة السكون وعدم الحركة ، أو أمراً ^(٣) وجودياً منافياً للحركة ، فالحركة الواردة عليها مخالفة له ^(٤) ، والطبع جمود ^(٥) ، وهى [تنتقل] ^(٦) عن إرادة وحركة ، فعلم بطلان إصابة شيء من الحوادث العرضية ^(٧) عن مجرد الطبع الذى فى الموات ، فكيف بالحوادث الجوهرية !؟

والإرادة والاختيار مستلزمة للحياة والعلم ، كما أن الحياة أيضاً مستلزمة للعلم والإرادة ، بل وللإرادة والحركة ، كما قرر ذلك عثمان بن سعيد ^(٨) وغيره من أئمة السنة .

(١) زدت كلمة « الجسم » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : فينتقل عن مراكزها ومحالها المخالف ليقضى طبعها ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٣) فى الأصل : أو أمر ، وهو خطأ .

(٤) أى للطبع .

(٥) فى الأصل الكلمة غير واضحة ، وكأنها : جسمه ، ولعل الصواب ما أثبتته .

(٦) زدت كلمة « تنتقل » ليستقيم الكلام .

(٧) فى الأصل : الفرضية ، وهو تحريف .

(٨) يقول ابن تيمية فى كتاب « الاستقامة » ٧٠/١ ، ٧١ (ط . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بتحقيقى ، الرياض ، ١٤٠٣ / ١٩٨٣) : « وكذلك لفظ الحركة أثبتته طوائف من أهل السنة والحديث ، وهو الذى ذكره حرب بن إسماعيل الكرماني فى السنة التى حكاها عن الشيوخ الذين أدركهم وكذلك هو الذى ذكره عثمان بن سعيد الدارمي فى نقضه على بشر المريسي ، وذكر =

وكما أن الحركة مستلزمة للإرادة والحياة ، فالحياة أيضا مستلزمة للحركة والإرادة ، ولهذا كان أعظم آية في القرآن : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٥] . فالاسم الحى مستلزم لصفاته وأفعاله ، وهو من أعظم / البراهين العقلية على ثبوت صفات الكمال ، والمصحح لها ، والمستلزم ثبوتها ونفى نقيضها ، كالعلم والكلام والسمع والبصر وغير ذلك ، كما هو مبين في موضعه .

فصل

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَادِمِينَ . وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلَؤَالِي الَّذِينَ اقْتَسَمُوا بِاللَّهِ جِهَدًا أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَاصْبِرُوا خَاسِرِينَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ

= أن ذلك مذهب أهل السنة » ويقول الدارمي في كتابه « رد الإمام الدارمي عثمان بن سعيد على بشر المريسي العنيد » ص ١٩ ، بتحقيق محمد حامد الفقى ، ط . أنصار السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٣٥٨ : « وأما دعواك : أن تفسير « القيوم » الذى لا يزول عن مكانه فلا يتحرك . فلا يقبل مثل هذا التفسير إلا بأثر صحيح ، مأثور عن رسول الله ﷺ ، أو عن بعض أصحابه أو التابعين . لأن الحى القيوم يفعل ما يشاء ، ويتحرك إذا شاء ، وينزل ويرتفع إذا شاء ؛ ويقبض ويسط ، ويقوم ويجلس إذا شاء ، لأن أمانة ما بين الحى والميت المتحرك . كل حى متحرك لا محالة ، وكل ميت غير متحرك لا محالة . »

يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ
آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْعَالِيُونَ ﴿ [سورة المائدة : ٥١ - ٥٦] .

وأصل الموالاتة هي المحبة ، كما أن أصل المعاداة البغض ، فإن التحاب يوجب
التقارب والاتفاق . والتباغض يوجب التباعد والاختلاف ، وقد قيل : المولى من
الْوَلِيِّ : وهو القرب ، وهذا يلي هذا ، أى هو يقرب منه (١) .

أصل الموالاتة الحب
وأصل المعاداة البغض

والعَدُوُّ من العُدُوِّ وهو البعد (٢) ، ومنه العُدُوَّة (٣) . والشئ إذا ولى
الشئ ودنا منه وقرب إليه اتصل به ، كما أنه إذا عُدِّي عنه ، ونأى عنه ، وبعد منه ،
كان ماضيا عنه (٤) .

فأولياء الله ضد أعدائه ، يقربهم منه ويدنيهم إليه ، ويتولاهم ويتولونه ، ويحبهم
ويرحمهم ، ويكون عليهم منه صلاة ، وأعداؤه (٥) يبعدهم ويلعنهم ، وهو إبعاد منه ومن
رحمته ، ويبغضهم ويغضب عليهم ، وهذا شأن المتولين والمتعادين (٦) . فالصلاة ضد
اللعنة ، والرحمة والرضوان ضد الغضب ، والسخط والعذاب ضد النعيم .

قال تعالى في حق الصابرين : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٥٧] (٧) .

ص ١٩٥

(١) في « لسان العرب » : « والْوَلِيُّ : القرب والدنو ويقال : تباعدنا بعد وُلِّي ، ويقال منه .
وَلِيَّهُ يَلِيهِ ، بالكسر فيهما ، وهو شاذ وكل مما يليك : أى مما يقاربك » .

(٢) في الأصل : وهو البعد منه ، والظاهر أن « منه » زيادة من الناسخ . وفي اللسان « العُدُوَّة :
بعد الدار ، والعُدَاءُ البعد » وفيه أيضا : وطالت عُدُوؤهم أى تباعدهم وتفرقهم » .

(٣) في اللسان : « العُدُوَّة : المكان المتباعد » وهى عدوة الوادى .

(٤) في اللسان : « العِدَى : التباعد . وقوم عِدَى إذا كانوا متباعدين لا أرحام بينهم ولا حلف .
وقومٌ عِدَى إذا كانوا حربا والعُدُوُّ : ضد الصديق قال الجوهري : العُدُوُّ ضد الوَلِيِّ » .

(٥) في الأصل : وأعدائه ، وهو خطأ .

(٦) في الأصل : المتولين والمتعادين .

(٧) في أعلى ص ١٩٥ من الأصل إلى اليسار كتب « السادس » .

وقال تعالى في حق المنافقين : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [سورة الفتح : ٦] .

وقال تعالى في حق المجاهدين : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ
وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ [سورة التوبة : ٢١] .

وقال تعالى في قاتل المؤمن متعمدا : ﴿ فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ
اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء : ٩٣] .

والمتلاعنان يقول الرجل في الخامسة : ﴿ أَنْ لَعَنَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنْ
الْكَاذِبِينَ ﴾ [سورة النور : ٧] وذلك يكون قاذفا . وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ
الْمُحْصَنَاتِ الْعَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾
[سورة النور : ٢٣] ، وتقول المرأة في الخامسة : ﴿ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنْ
الصَّادِقِينَ ﴾ [سورة النور : ٩] ، لأنه إذا كان صادقا كانت زانية فاستحقت الغضب
الذى هو ضد الرحمة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ
مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ ﴾ [سورة النور : ٢] ، فنبه عن الرأفة بهما في دين الله .

والمؤمن يغار ، والله يغار ، وغيره الله أعظم ، كما قد استفاض عن النبي
ﷺ في الصحيح من غير وجه أنه قال : « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك
حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » (١) .

(١) الحديث - مع اختلاف يسير في الألفاظ - عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه في :
البخارى ٥٧/٦ (كتاب التفسير ، تفسير سورة الأنعام ، باب ولا تقرّبوا الفواحش) ، ٣٥/٧ (كتاب
النكاح ، باب الغيرة) ، ١٢٠/٩ (كتاب التوحيد ، باب قوله الله تعالى : ويحذر كم الله نفسه) ، ١٢٣/٩ =

وفي بعض (١) الأحاديث الصحاح: « لا أحد أُغَيَّرَ من الله أن يزيى عبده أو تزنى أمته » (٢) وفي بعضها « إن الله يغار ، وَغَيَّرْتَهُ أَنْ يَأْتِيَ الْعَبْدَ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ » (٣) .

والغَيِّرةُ فيها من البغض والغضب ما يدفع به [الإنسان] (٤) ما غار منه ، فالزنا وإن كان صادرا عن الشهوة والمحبة منهما ، أو من أحدهما ، فإن ذلك مقابل [بضرورة التنزه عن الفواحش ، والتورع عن المحرمات] (٥) . فأمر الله أن

= (كتاب التوحيد ، باب لا شخص أغير من الله) ؛ مسلم ٢١١٣/٤ - ٢١١٤ (كتاب التوبة ، باب غيرة الله تعالى) ؛ سنن الترمذى ٢٠٠/٥ - ٢٠١ (كتاب الدعوات ، باب حدثنا محمد بن بشار) ؛ المسند (ط . المعارف) ٢١٩/٥ - ٢٢٠ ، ٥٦/٦ - ٥٧ ، ٥٩ ؛ سنن الدارمى ١٤٩/٢ (كتاب النكاح ، باب في الغيرة) .

(١) في الأصل : وبعض .

(٢) الحديث عن عائشة رضى الله عنها في : البخارى ٣٥/٧ (كتاب النكاح ، باب الغيرة) ولفظه فيه : « يا أمة محمد ما أحد أغير من الله أن يرى عبده أو أمته يزيى . يا أمة محمد ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » . وجاء الحديث عنها رضى الله عنها مطولا وأوله : خسفت الشمس في عهد رسول الله الحديث ومنه : فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ثم قال : يا أمة محمد والله ما من أحد أغير الحديث ، وهو مع اختلاف يسير في الألفاظ في : البخارى ٣٤/٢ (كتاب الكسوف ، باب الصدقة في الكسوف) ؛ مسلم ٦١٨/٢ (كتاب الكسوف ، باب صلاة الكسوف) ؛ سنن النسائى ١٠٨/٣ (كتاب الكسوف ، باب نوع آخر منه (من صلاة الكسوف) ؛ المسند (ط . الحلبي) ١٦٤/٦ .

(٣) الحديث عن أنى هريرة رضى الله عنه في : البخارى ٣٥/٧ (كتاب النكاح ، باب الغيرة) ؛ مسلم ٢١١٤/٤ (كتاب التوبة ، باب غيرة الله تعالى ، وتحريم الفواحش) ؛ سنن الترمذى ٤١٧/٢ (كتاب الرضاع ، باب ما جاء في الغيرة) ؛ المسند (ط . الحلبي) ٣٤٣/٢ ، ٥٣٩ .

(٤) زدت كلمة « الإنسان » لتستقيم العبارة .

(٥) في الأصل : مقابل بصدق . ولعل ما أثبتته من كلام زدته بين المعقوفين يستقيم به العبارة .

لا تأخذنا (١) بهما رافة في دين الله ، فهانا عن أن تكون (٢) منا رافة تدفع العذاب عنهما ، فضلا عن أن يكون محبة لذلك الفعل . ولهذا أخبرنا به بأنه لا يجب ذلك أصلا ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٨] ، وما لا يأمر به لا أمر إيجاب ولا أمر استحباب لا يحبه ، قال لوط عليه السلام : ﴿ إِنِّي لَعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ [سورة الشعراء : ١٦٨] والقلبي : بغضه وهجره (٣) ، والأنبياء أولياء الله ، / يحبون ما يحب الله ويبغضون ما يبغض .

ظ ١٩٥

وربما قيل : القلي أشد البغض ، فالله سبحانه يبغض ذلك ، وهو سبحانه يبغض كل ما نهى عنه ، كما أنه يجب كل ما أمر به . بل العيرة مستلزمة لقوة البغض ، إذ كل من يغار يبغض ما غار منه ، وليس كل من يبغض شيئا يغار منه ، فالغيرة أحض وأقوى .

ولا ريب أن المرأة المزوجة الزانية استحقت الغضب لشيئين : لأجل ما في الزنا من التحريم . ولأنها (٤) اعتدت فيه على الزوج فأفسدت فراشه . ولهذا كان للزوج (٥) إذا قذف امرأته ولم يأت بأربعة شهداء : أن (٦) يلاعنها ، لما له في ذلك من الحق ، ولأنه مظلوم إذا كان صادقا ، وعليه في زناها من الضرر ما يحتاج إلى

(١) في الأصل : يأخذنا .

(٢) في الأصل : يكون .

(٣) أى بغض العمل وهجره .

(٤) في الأصل : ولهذا . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٥) في الأصل : الزوج ، ولعل الصواب ما أثبتته .

(٦) في الأصل : أى . ولعل الصواب ما أثبتته .

دفعه بما شرعه الله ، كالمقذوف الذى له أن يستوفى حد القذف من القاذف الذى ظلمه فى عرضه ، فكذلك الزوج له أن يستوفى حد الفاحشة من البغى الظالمة له ، المعتدية عليه . كما قال النبي ﷺ فى حق الرجل على امرأته « وأن لا يوطنن فرشكم من تكرهونه » (١) ، فلهذا كان له أن يقذفها ابتداءً ، [وقذفها] (٢) إما مباح له وإما واجب عليه إذا احتاج إليه لنفى النسب ، ويضطرها بذلك إلى أحد أمرين : إما أن تعترف (٣) فيقام عليها الحد ، فيكون قد استوفى حقه ، وتطهرت هى أيضا من الجزاء لها والنكاح [فى الآخرة] (٤) بما (٥) حصل ، وإما أن تبوء بغضب الله عليها وعقابه فى الآخرة الذى هو أعظم من عقاب الدنيا ، فإن الزوج مظلوم معها ، والمظلوم له استيفاء حقه إما فى الدنيا وإما فى الآخرة (٦) ، قال الله تعالى :

(١) فى الأصل : من يكرهونه ، وهذه العبارة جزء من حديث جاء عن عمرو بن الأحوص رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ٤١٥/٢ (كتاب الرضاع ، باب ما جاء فى حق المرأة على زوجها) وأوله : عن سليمان بن عمرو بن الأحوص قال حدثنى أبى أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ فذكر فى الحديث قصة فقال : « ألا واستوصوا بالنساء خيرا فأما حقكم على نساءكم فلا يوطنن فرشكم من تكرهون الحديث وقال عنه الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » ، وهو فى : سنن ابن ماجه ٥٩٤/١ (كتاب النكاح ، باب حق المرأة على الزوج) . وجاءت هذه العبارة أيضا ضمن حديث مطول عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه ورد فى كتب السنن ، وهو فى : سنن ابن ماجه ١٠٢٢/٢ - ١٠٢٧ (كتاب المناسك ، باب حجة رسول الله ﷺ) ؛ سنن الدارمى ٤٤/٢ - ٤٩ (كتاب المناسك ، باب فى سنة الحاج) كما جاءت نفس العبارة فى حديث ثالث عن أبى حرة الرقاشى عن عمه رضى الله عنه فى المسند (ط . الحلبي) ٧٢/٥ - ٧٣ .

(٢) زدت « وقذفها » ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : يعترف .

(٤) زدت عبارة « فى الآخرة » ليستقيم الكلام .

(٥) فى الأصل : ما .

(٦) بعد كلمة الآخرة توجد فى الأصل عبارة « بخلاف الزوج » وهى عبارة مقحمة وبجذفها

يستقيم الكلام .

﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ ﴾ [سورة النساء : ١٤٨]
 [بخلاف غير الزوج] (١) فإنه ليس له حق الافتراء ، فليس له قذفها ، ولا أن
 يلاعن إذا قذفها ، لأنه غير محتاج إلى ذلك [مثل] (٢) الزوج ، ولا هو مظلوم في
 فراشها ، لكن يحصل بالفاحشة من ظلم غير الزوج ما لا يحتاج إلى اللعان ، فإن
 في الفاحشة إلحاق عار بالأهل ، والعار يحصل بمقدمات الفاحشة .

فإذا لم تكن الفاحشة معلومة بإقرار ولا بينة كان عقوبة ما ظهر منها كافية
 في استيفاء الحق ، مثل الخلوة والنظر ونحو ذلك من الأسباب التي نهى الله عنها ،
 وهذا من محاسن الشريعة .

وكذلك كثيرا ما يقترن بالفواحش من ظلم غير الزانيين ، فإنه إذا حصل
 بينهما محبة ومودة فاحشة كان ذلك موجبا لتعاونهما على أغراضهما ، فيبقى (٣)
 كل منهما يعين الآخر على أغراضه التي يكون (٤) فيها ظلم الناس ، فيحصل
 العدوان والظلم للناس بسبب اشتراكهما / في القبيح ، وتعاونهما (٥) بذلك على
 الظلم ، كما جرت العادة في البغي من النساء والصبيان أن خدنه أو المسافح به
 يحصل له منه من الإكرام والعطاء والنصر والمعاونة ما يوجب استطالة ذلك الفاجر
 بترك حقوق الخلق والعدوان عليهم .

ص ١٩٦

(١) زدت عبارة « بخلاف غير الزوج » ليستقيم الكلام ، والمقصود سبحانه من أهل الزوجة
 أو أهل الزوج مثلا .

(٢) زدت كلمة « مثل » لتستقيم العبارة .

(٣) في الأصل : بقى .

(٤) في الأصل : تكون .

(٥) في الأصل : ويعاونهما .

وأيضاً [فإن] محبته له قد تحمل (١) الطالب الراغب على أخذ أموال الناس بغير حق ليعطيه ذلك (٢) ، وتحمله أيضاً على ترك حقوق الناس وقطيعة رحمه (٣) لأجل ذلك الشخص ، فإنه لا يمكن الجمع بين الأمرين . ويحمله أيضاً على الانتصار له بالعدوان .

ففي الجملة المحبة توجب موافقة المحب للمحجوب . فإذا كانت المحبة فاسدة لا يحبها الله ولا يرضاها ، إذا لم يتعد ضررها للآخرين ، تكون العقوبة لهما حقاً لله ، لكن هي في الغالب ، بل في اللازم ، يتعدى ضررها إلى الناس ؛ فإن كل واحد من الشخصين عليه حقوق للناس ، وهو يُنهى عن العدوان عليهم ، فإذا تحابا وتعاونوا لم يتمكن كل منهما من القيام بحقوق الناس ، واحتاج إلى أن يعتدى عليهم .

ولا ينبغي للإنسان أن يعتبر بظاهر ما يُقال : إن الإنسان إذا فعل فاحشة فإن الإثم عليه خاصة ، وليس ذلك بظلم للغير (٤) ، فإن ذلك إنما هو في الفاحشة المحضة ، مثل الزنا المحض (٥) ، الذي لم يتعلق به حق الغير ، فأما زنا الزوجة ففيه ظلم بالاتفاق كما بيناه .

وكذلك أخية والعشق الفاسد ؛ فإن هذا أعظم ضرراً من الزنا مرة واحدة ،

(١) في الأصل : أيضاً محبته له قد يحمل ، ولعل الصواب ما أثبتته .

(٢) في الأصل : ليطيعه ذلك ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبتته .

(٣) في الأصل : ويطيعه رحمه ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبتته .

(٤) في الأصل : الغير . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٥) في الأصل : المحض ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبتته .

فإن الرجل إذا زنا مرة أو مرتين حصل غرضه ، وكذلك المرأة ، ثم إنه قد يكون يعوّض (١) من أحدهما للآخر وقد لا يكون ، فربما كان فيه ظلم للغير .

وأما المحبة والعشق ، فإن ذلك مستلزم للعدوان على غيرهما في العادة ، فإن المحبة توجب أن يُعطى المحبوب من المنافع والأموال ما يوجب حرمان الغير والعدوان عليه ، ويوجب من الانتصار للمحبيب والدفع عنه ما فيه أيضا ترك حق الغير والعدوان عليه . ألا ترى أن الرجل إذا أحب غير امرأته ، أو المرأة [إذا] (٢) أحبت غير زوجها ، قصر كل منهما في حقوق الآخر واعتدى عليه . بل إذا أحب الرجل امرأة أو صبيا قصر في حقوق أهله وأصدقائه ممن (٣) له عليه حق ، بل وظلمهم أيضا ، كما يظلم غيرهم لأجله؟! وهذا سوى ما في ذلك من حق الله الذي يوجب غليظ عقابه . وإن كان الرجل العاقل قد يقوم / من الحقوق بما يمكن ، ويدع الظلم بحسب الإمكان ، إلا أن هذا مظنة وسبب لذلك ، وهذا مما يوجب تحيّر الرجل وتردده وتلومه إلى الحق تارة وإلى الباطل أخرى ، وهذا مرض عظيم ، كما ذكر الله تعالى ذلك في قوله : ﴿ فَيَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٢] . وأما ما في ذلك من ظلم كل منهما لنفسه ولخديته فذاك ظاهر ، لكنهما (٤) ظلما أنفسهما ، فهما الظالمان المظلومان . وأما الغير فظلماه بغير رضاه ولا اختياره .

ظ ١٩٦

وكذلك ما تفضى إليه هذه المحبة الباطلة من ظلم كل منهما للآخر ، إما بقتله ، وإما بتعذيبه بغير الحق ، وإما منعه من الاتصال بالناس ، وفعل ما يختار

(١) في الأصل : ثم إنه كان يعوض . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٢) زدت « إذا » ليستقيم الكلام .

(٣) في الأصل : من .

(٤) في الأصل : يمكنهما .

من مصلحة وغيرها . ففيها هذه المفاصد كلها وأكبر منها ، لكن ذلك ظلم منهما لأنفسهما مبدؤه (١) المحبة الفاسدة .

ولهذا أمر سبحانه أن لا تأخذنا (٢) بهما رأفة في دين الله ، فإن الرأفة والرحمة توجب أن توصل للمرحوم (٣) ما ينفعه ، وتدفع عنه ما يضره ، وإذا رأف بهما أحد (٤) لأجل ما [في] (٥) قلوبهما من الشهوة والمحبة وغير ذلك ، وترك عذابهما (٦) ، كان ذلك جالبا لما يضرهما ودافعا لما ينفعهما ، فإن ذلك مرض في قلوبهما . والمريض (٧) الذى يشتهي ما يضره ليس دواؤه (٨) إعطائه (٩) المشتبه الضار ، بل دواؤه (١٠) الحمية وإن آلمته ، وإعطاؤه (١١) ما ينفعه ، وتعويضه عن ذلك الضار بما أمر مما لا يضر .

فهكذا أهل الشهوات الفاسدة ، وإن أضرت قلوبهم نار الشهوة ليس رحمتهم والرأفة بهم تمكينهم (١٢) من ذلك ، أو ترك عذابهم ، فإن ذلك يزيد

(١) فى الأصل : مبدأه .

(٢) فى الأصل : يأخذ .

(٣) فى الأصل : المرحوم .

(٤) فى الأصل : دب ، وهو تحريف ، ولعل الصواب ما أثبتته .

(٥) زدت « فى » ليستقيم الكلام .

(٦) فى الأصل : عذابها .

(٧) فى الأصل : والمرض . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٨) فى الأصل : دواه .

(٩) فى الأصل : أعطاه .

(١٠) فى الأصل : دواه .

(١١) فى الأصل : وأعطاه .

(١٢) فى الأصل : تمكينهم .

بلاءهم^(١) وعذابهم ، والحرارة التي في قلوبهم مثل حرارة المحموم ، متى مُكِّن المحموم مما يضره ازداد مرضه ، أو انتقل إلى مرض شر منه .

فهذه حال أهل الشهوات ، بل تُدفع تلك الشهوة الحلوة بضدها ، والمنع من موجباتها ، ومقابلتها بالضد من العذاب المؤلم ونحوه الذي^(٢) يخرج المحبة من القلب كما قيل :

فإني رأيت الحب في القلب والأذى إذا اجتماعا لم يلبث الحب يذهب

فإذا كان يحصل بالحبة ونيل الشهوة أمر مما يزيد ألمه على لذتها انكفّت النفس . وكذلك إذا حصل بدله أمر لذيد أطيب منه اغتاضت النفس . فاللذيد يُترك لما يرجح عليه من لذيد وأليم ، كما أن الأليم محتمل لما يرجح عليه من لذيد وأليم . وإذا تكافئا تقابلا ، فلم يغلب أحدهما الآخر ، بل تبقى الأمور على ما هو عليه إذا استوت الدواعي والصوارف ، / واحتمال الأليم وفوت اللذيد وإن كان فيه مرارة ، فذلك يُدفع به ما هو أمر منه ، ويُجلب به ما هو أرجح منه من الحلو .

ص ١٩٧

ولكن هذا من محبة بنى آدم وفتنتهم التي لا بد منها ، وهي مخالفة الأهواء ، فلا تقوم مصلحة أحد من بنى آدم بدون ذلك أبدا ، لا مصلحة دينه ولا مصلحة دينه ، كما قال إبراهيم الحري^(٣) : « أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم ، ولا بد من الصبر في جميع الأمور ، قال تعالى : ﴿ وَالْعَصْرُ . إِنَّ

(١) في الأصل : بلادهم ، وهو تحريف .

(٢) في الأصل : التي .

(٣) أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق بن بشير بن عبد الله البغدادي الحري ، من أعلام المحدثين ومن الزهاد ، ولد سنة ١٩٨ وتوفي سنة ٢٢٥ . انظر ترجمته وأقواله في : طبقات الحنابلة ١/٨٦ - ٩٣ ؛ تاريخ بغداد ٦/٢٧ - ٤٠ ؛ صفة الصفوة ٢/٢٢٨ - ٢٣٢ ؛ الأعلام ١/٢٤ - ٢٥ .

الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ
وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿ [سورة العصر : ١ - ٣] . »

فلا بد من التواصي بالحق والصبر ، إذ أهل الفساد والباطل لا يقوم باطلهم
إلا بصبر عليه أيضا ، لكن المؤمنون يتواصون بالحق والصبر ، وأولئك يتواصون (١)
بالصبر على باطلهم ، كما قال قائلهم (٢) : ﴿ أَنْ آمَسُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ
هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ [سورة ص : ٦] .

فالتواصي بالحق بدون الصبر ، كما يفعله الذين يقولون آمنا بالله فإذا أُوذِيَ
أحدهم في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ، والذين يعبدون الله على حرف ، فإن
أصاب أحدهم خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا
والآخرة .

والتواصي بالصبر بدون الحق ، كقول الذين قالوا : أن امشوا واصبروا على
آهتكم ، كلاهما موجب للخسران . / وإنما نجا (٣) من الخسران الذين آمنوا
وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، وهذا موجود في كل من خرج
عن هؤلاء من أهل الشهوات الفاسدة ، وأهل الشبهات الفاسدة ، أهل الفجور ،
وأهل البدع .

ظ ١٩٧

وما ذكرناه من أن المحبة الفاسدة توجب ظلم المتحايين (٤) لأنفسهما

(١) في الأصل : يتواصو .

(٢) في الأصل : كما قال تعالى قائلهم ، وهو تحريف .

(٣) في الأصل نجوا .

(٤) في الأصل : المعانين . وهو تحريف ، ولعل الصواب ما أثبتته .

ولغيرهما موجود في كل محبة يبغضها الله ، كمحبة الأنداد والشركاء من دونه ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] وقال تعالى : ﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [سورة البقرة : ٩٣] وكمحبة أهل الشهوات لجنس ^(١) الفواحش ، ومحبة أهل الظلم ، والقائلين على الله ما لا يعلمون ، فإن المحبة توجب تعاون المتحائين واتفاقهما ، فلا بد أن يبغضا ويعاديا ^(٢) من يبغض ذلك منهما ويخالفهم فيه .

ومعلوم أن كل مؤمن فإنه يبغض ما يبغضه الله ، ويحب ما يحبه الله ؛ فلا بد أن يكون التحاب الذي يبغضه الله موجبا لنوع بغض المؤمنين بحسبه .

فصل

قد كتبت في غير هذا الموضع أن الناس وإن تنازعوا في العلم : هل هو صفة انفعالية تابعة للمعلوم ، كما قد يطلقه كثير من أهل الكلام ؟ أو هو صفة فعلية مؤثرة في المعلوم ، كما يقوله طوائف من المتفلسفة ؟

فإن الصواب أنه ينقسم إلى النوعين جميعا . فمنه ما هو تابع للمعلوم غير مؤثر فيه بحال ، وهو العلم النظري القولي الخبري المحض ، كعلمنا بما لا تأثير لنا في وجوده ، كالعلم بالخالق سبحانه وتعالى وملائكته وكتبه وأنبيائه وسائر مخلوقاته . ومنه ما هو فعلي ^(٣) له تأثير في المعلوم ، كعلمنا بأفعالنا الاختيارية ^(٤) وما يترتب عليها / من حصول منفعة ودفعة مضرة .

(١) في الأصل : في جنس ، ولعل الصواب ما أثبتته .

(٢) في الأصل : وتعاوننا ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٣) في الأصل : فعل .

(٤) في الأصل : الاختياره .

وهذا التقسيم ثابت في علم الله تعالى ، فإنه يعلم نفسه ويعلم مخلوقاته أيضا . والأول علم بوجود ، والثاني علم بمقصود .

لكن العلم بالموجود المستغنى عن أفعالنا يتبع العلم به حبه تارة وبغضه أخرى ، فيكون العلم به سببا لأفعال لنا متعلقة به ، فيكون هذا العلم الانفعالي فعليا مؤثرا من هذا الوجه ، وعلمنا بالحسنات والسيئات التي في أفعال غيرنا من هذا الوجه .

وعلم الرب سبحانه بأفعال عباده الصالحة والسيئة مستلزم أيضا حبه للحسنات وبغضه للسيئات . والعلم بالمقصود من أفعالنا ، وإن كان مؤثرا في المعلوم ، وهو سبب في حصوله ، فلا يكون إلا بعد علم بأمر موجودة أوجب قصدا أو اختيارا^(١) لتلك الأفعال ، فإن الفعل الاختياري يتبع الإرادة ، والإرادة تتبع المراد ، فلا بد أن يتصور الفاعل المراد قبل قصد الفعل الذي هو سبب إليه ، كما يقال : آخر الفكرة أول العمل^(٢) ، وتسمى العلة الغائية . [فلا بد من تصور] ذلك المراد^(٣) ، وأن يكون ما يترتب على الفعل من لذة تجلب منفعة وتدفع^(٤) مضرة ، فاللذة مشروطة بالإحساس باللذيد ، والإنسان لا يفعل ابتداءً لطلب لذيد إلا أن يكون قد أحسّه قبل ذلك فأحبه واشتهاه واشتاق إليه ، وذلك علم بأمر موجود تابع للمعلوم ، تبعه علم بأمر مقصود تابع للعلم . وإن كانت اللذة

علم الرب بأفعال عباده الصالحة والسيئة يستلزم حبه للحسنات وبغضه للسيئات

(١) في الأصل : أو إخبارا ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبتته .

(٢) في الأصل : أول الفكر آخر العمل ، وهو خطأ ، وأرجو أن يكون الصواب ما أثبتته .

(٣) في الأصل : الغائية وذلك المراد . ووجدت أن العبارة غير مستقيمة ، ولعل ما أثبتته

يستقيم به الكلام .

(٤) في الأصل : ودفع .

قد تحصل ابتداءً لا عن شوق ، كمن يذوق الشيء الطيب الذى لم يكن يعرفه فيحبه بعد ذلك ، لكن هذا لم يتقدم منه طلب وفعل في حصول هذا المحبوب ، بخلاف من ذاقه ابتداءً فأحبه ، ثم سعى في تحصيل نظائر ما حصل له ابتداءً .

فقد تبين أن كلاً من العلمين : الفعلى والانفعالى مستلزم للآخر ، وكذلك علم الرب سبحانه / وتعالى بنفسه مستلزم لعلمه بصفاته وأفعاله ومفعولاته ، وهو سبحانه يحمد نفسه ويثنى عليها ، فلا نحصى ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وعلمه (١) بأفعاله ومفعولاته مستلزم لعلمه بنفسه ، وعلمه بال مخلوقات وأفعالها يتبعه حبه وبغضه ، وأمره ونهيه ، وعلمه بما يفعله بعباده من ثواب وعقاب وغير ذلك تابع لعلمه بما هي عليه ، وقد تكلمنا على نحو هذا في غير هذا الموضوع .

وإنما المقصود في هذا المكان أن هذا التقسيم الوارد في العلم يرد نحوه في الإرادة والمحبة ونحو ذلك .

فإن الإرادة والمحبة تنقسم أيضاً إلى فعلية مؤثرة في المراد المحبوب ، وهى إرادة الفعل وحبه [وإن كان المراد المحبوب تابعا مفعولا معدوما] (٢) ، وقد ظن بعض الناس أن الإرادة والمحبة ليست إلا هذا النوع ، حتى قال : لا تتعلق الإرادة والمحبة إلا بالمعلوم دون الموجود ، وبالمحدث دون القديم ، وهذا قول طوائف من أهل الكلام . وأكثر هؤلاء هم أكثر القائلين بأن العلم لا يكون إلا انفعاليا (٣) ،

(١) فى الأصل : وعلم .

(٢) ما بين المعقوفين زدته ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : إلا غالبا ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبتته .

فيجعلون العلم لا يتعلق في الحقيقة إلا بمعلوم متبوع كالموجود ، ويجعلون الإرادة لا تتعلق إلا بمراد تابع كالمفعول المعدوم .

وتنقسم إلى انفعالية تابعة للمراد المحبوب ليست مؤثرة في وجوده أصلا ، بل يكون المحبوب المراد موجودا بدون الإرادة ، وإنما يجب المحب ذلك الموجود ويريده ، ويقال في كثير من أنواع ذلك : يهواه ويعشقه ، ونحو ذلك من العبارات .

وهذا القسم في الحقيقة هو الأصل في القسم الأول ، كما قد تكلمنا عليه في بعض القواعد المتقدمة من سنين (١) ، وذكرنا أن العلم - والإرادة - إنما يتعلق أولا بالموجود ، وأن تعلقه بالمعدوم تابع لتعلقه بالموجود ، وذكرنا أن الإنسان لا يجب الشيء ويريده حتى يكون له به شعور أو إحساس أو معرفة ونحو ذلك ، ويكون مع ذلك بنفسه إليه ميل (٢) وفيها له حب ، وكل واحد من هاتين الفرقتين في (٣) فطرته وجبلته المعرفة والمحبة ، ولهذا كان كل / مولود يولد على الفطرة : فطرة الإسلام ، وهي عبادة الله وحده ، وأصل ذلك معرفته ومحبته . والنفس لا تحس العدم (٤) المحض ، وإنما تعرف العدم بنوع من القياس المقدر على الوجود ، كما يقدر في نفسه جبل ياقوت وبحر زئبق ، فنزل ذلك مما علمه من الجبل ومن الياقوت ، ثم ينفي (٥)

ص ١٩٩

(١) بعد كلمة « السنين » توجد عبارة غير واضحة كأنها « المستلزمة الاعتراف » والكلام يستقيم بدونها .

(٢) في الأصل : مثل .

(٣) في الأصل : هو في .

(٤) في الأصل : القدم ، وهو تحريف .

(٥) في الأصل : يبقى ، وهو تحريف ، والسياق يدل على صواب ما أثبتته .

ذلك المقدر في ذهنه أن يكون موجودا في الخارج ، وهو لم يحكم على نفيه حتى صار موجودا في نفسه وجودا تقديريا (١) .

فإذا كان الحب يتبع الإحساس ، والإحساس لا يكون إلا بوجود ما ، [فإن ما] (٢) يُحب لا يكون إلا بوجود . وأيضا فإن الإحساس لا يكون أولا إلا الموجود ، فكذلك الحب في نفسه لا يكون إلا الموجود أو محبوب (٣) ، وإن كان يجب وجود المعلوم [فهو] (٤) لا شيء ، وما ليس بشيء لا يكون محبوبا ، وإن كان يجب وجود المعلوم ويريده (٥) ، فلا بد أن يكون قبل ذلك قد ذاقه والتذ به موجودا حتى أحبه بعد ذلك ، أو ذاق والتذ (٦) بنظيره أو بما (٧) يشبهه كما ذلك في العلم ، وهذا مذكور في غير هذا الموضع .

ولا يرد على هذا ما يوجد من بكاء الصبي حين يولد قبل أن يذوق طعم اللبن ، فإذا ذاق اللبن التذ به وسكن ، فإن الصبي قبل ذوقه اللبن لم يكن يحبه ويشتهي ، ولكن يجد ألم الجوع فيبكي من ذلك الألم . فلما ذاق اللبن ووجد لذته ، وأنه أذهب ألم الجوع أحبه من حينئذ ، ومن حينئذ صار يشتهي ويحبه . وهكذا كل

(١) في الأصل : تقديرا ، ولعل الصواب ما أثبتته .

(٢) زدت « فإن ما » ليستقيم الكلام .

(٣) في الأصل : موجودا ومحبوبا . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٤) زدت « فهو » ليستقيم الكلام .

(٥) في الأصل : ويراد . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبتته .

(٦) في الأصل : واليد ، وهو تحريف .

(٧) في الأصل : أو لما .

من جاع فإنه لا يشتهي شيئا معيناً إلا أن يكون ذاقه قبل ذلك ، ولكن يجد طلباً لما يزيل به ألم الجوع ، ولهذا إذا حضر عنده ما قد ذاقه قبل ذلك ، وما لم يذقه قبل ذلك ، اشتاق إلى الأول وأحبه ، وكان شوقه إلى الثاني ومحبه إياه مشروطاً بذوقه إياه وسماع وصفه ممن يخبره ، [فإن سماع الوصف] ^(١) يورث المحبة والشوق كما يورث العلم ، كما قيل :

والأذن تعشق قبل العين أحياناً

لكون النفس ذاقت طعم الحب لما هو من نظير لذلك أو شبيهه به ولو من وجه بعيد ، فكما أن الشيء لا يتصور إلا [بعد] الحس به ^(٢) ، أو بما فيه شبهه به من بعض / الوجوه ، فكذلك لا يجب كذلك .

ظ ١٩٩

ولهذا ضُربت الأمثال للتعريف والترغيب والترهيب ، فإن الأمور الغائبة عن المشاهدة والإحساس لا تُعرف وتُحب وتبغض إلا بنوع من التمثيل والقياس ، سواء كان الغائب أكمل في الصفات المطلوبة ^(٣) المشتركة ، كالموعود به من أمر الجنة والنار ، وكما يصف به الرب نفسه سبحانه وتعالى ، أو ما كان دون ذلك ، كما مثل من الأمور بما هو أكمل منه .

الأمور الغائبة لا تعرف
ولا تحب وتبغض إلا
بنوع من القياس والتمثيل

ومن هنا ضل من ضل من الصابئة المتفلسفة ، ومن أضلوه من أهل الملل ، حيث ظنوا أن ما وصف الله به الجنة والنار إنما هي أمثال مضرورية لتفهيم المعاد الروحاني من غير أن تكون حقائق . وضل من رد عليهم من نفاة أهل الكلام . كما

(١) زدت عبارة « فإن سماع الوصف » ليستقيم الكلام .

(٢) في الأصل : إلا الحسن به . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٣) كتب في الأصل فوق كلمة « المطلوبة » : « كذا » .

أصاب الفريقين مثل ذلك في أمر النفس الناطقة ، حيث تقابلوا (١) بالنفس والإثبات ، وحيث اتفق الفريقان على مثل هذا الضلال في صفات ذى الجلال ، فخاصوا في باب الإيمان بالله واليوم الآخر خوفا ليس هذا موضع بسط الكلام فيه ، وإن كان كل ذى مقالة فلا بد أن تكون في مقالته (٢) شبهة من الحق ، ولولا ذلك لما راجت واشتبهت .

وإن كانت الإرادة والمحبة تنقسم إلى متبوعة للمراد تكون له كالسبب الفاعل ، وإلى تابعة للمراد يكون هو لها كالسبب الفاعل ، وتكون (٣) عنه كالسبب المفعول ، وهذا هو الأصل .

وإذا (٤) عُلم أن جميع حركات العالم صادرة عن محبة وإرادة ، ولا بد للمحبة والإرادة من سبب فاعل يكون هو المحبوب المراد - عُلم بذلك أنه لا بد لجميع الحركات من إله يكون المعبود المقصود المراد المحبوب لها (٥) ، وأنها دالة على الإله الحق من هذا الوجه ، وأنه لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، وهذا غير هذا الوجه الذى دلت منه على ربوبيته . وقد بسطنا الكلام على ذلك في مواضع متعددة ، إذ هو أجل العلم الإلهي (٦) وأشرفه . وإنما كان المقصود هنا التنبيه على أن الإرادة نوعان كالعلم ، والله أعلم .

(١) في الأصل : تقاتلوا . ولعل الصواب ما أثبتته .

(٢) في الأصل العبارة محرفة هكذا : وإن كان حال ذى مقاله فلا بد من مقالته في ، وأرجو أن يكون الصواب ما أثبتته .

(٣) في الأصل : ويكون .

(٤) في الأصل : وقد ، وهو تحريف .

(٥) في الأصل : بها .

(٦) في الأصل : إذ هو احد العلم الالهي ، وهو تحريف .

فهرس الأحاديث النبوية والقدسية والآثار

رقم المسلسل	الحديث	الصحابى الراوى	الصفحة
١	الآن ياعمر (انظر : لا ياعمر حتى أكون ...)	عبد الله بن هشام	١٢ - ١٣ ، ٥٧ ، ١٠٤
٢	أجعلتنى لله ندا ، بل ماشاء الله وحده	ابن عباس	٨٩
٣	إذا أحب الله العبد نادى فى السماء..	أبو هريرة	١١٢
٤	إذا حدثكم أهل الكنب	أبو نملة الأنصارى	٥٤
٥	أصدق الأسماء الحارث وهمام	أبو وهب الجشمى	١٥
٦	أفضل الذكر لا إله إلا الله	جابر بن عبد الله	١٣
٧	أفضل الصدقة جهد من مقل يسره إلى فقير	عبدالله بن حُبيشى	٩٥
٨	ألا فخر إني من قریش	لم أجده	١٦١
٩	أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا..	أبو هريرة وبمعناه عن عدد من الصحابة	١١
١٠	إن بالمدينة لرجالا ما سرتهم مسيرا...	أنس بن مالك	٩٦ - ٩٧
١١	إن حيك إياها أدخلك الجنة	عائشة ، أنس	٧١
١٢	إن الخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها	أبو هريرة	١١٦
١٣	إن الشرك فى هذه الأمة أخفى من ديب النمل	أبو موسى الأشعري	٦٨ ، ٩٩ ، ١٠٠
١٤	إن الشيطان قال : أهلكت بنى آدم بالذنوب وأهلكونى ...	لم أجده	١٠٠

رقم المسلسل	الحديث	الصحابى الراوى	الصفحة
١٥	إن الشيطان ينتصب عرشه على البحر	جابر بن عبد الله	١٠٦
١٦	إن القرآن نزل على سبعة أحرف	عمر بن الخطاب	٤٢
١٧	إن كل أحد يحب أن تؤتى مآدبته	أثر عن ابن مسعود	٦١
١٨	إن الله أتخذنى خليلًا	جندب بن عبد الله	٥٣
١٩	إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة	أنس بن مالك	١٦٣
٢٠	إن الله يغار ...	أبو هريرة	٢٠٠
٢١	إن من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى	لم أجده	١٧١
٢٢	أنا أبرأ إلى كل خليل من خلته	ابن مسعود	٧٠
٢٣	أنا أغنى الشركاء عن الشرك	أبو هريرة	١٠٣
٢٤	الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل	سعد بن أبى وقاص	١٥٠
٢٥	إنما الأعمال بالنيات	عمر بن الخطاب	١٥
٢٦	إنما الطاعة فى المعروف	على بن أبى طالب	١٢٨
٢٧	إني أسألك وأتوسل إليك بنبيك محمد	عثمان بن حنيف	١٩٢ - ١٩٣
٢٨	إني قد أقررت لك بالسمع والطاعة	أثر عن عبد الله بن عمر	١٢٨
٢٩	إني لأتألف رجلا بما فى قلوبهم من الهلع والجزع	عمرو بن تغلب	١٩٢
٣٠	وثق عرى الإيمان الحب فى الله	البراء بن عازب	١٠٢
٣١	أى الذنب أعظم؟ أن تجعل لله نداً .	ابن مسعود	٧٤ ، ٧٥
٣٢	تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار	أبو هريرة	٧٥
٣٣	ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان	أنس بن مالك	١٢ ، ٥٧ ، ٦٩
٣٤	الجهاد سنام العمل	أبو هريرة	٩٥
٣٥	حلف المطيبين		١٢٦
٣٦	رب أشعت أغبر ، ذى طمرين	أبو هريرة	٩٧
٣٧	سجود الشمس تحت العرش	أبو ذر الغفارى	٢٦
٣٨	شارب الخمر كعابد وثن	أبو هريرة	٨١

رقم المسلسل	الحديث	الصحابي الراوى	الصفحة
٣٩	الطاعم الشاكر كالصائم الصابر	أثر عن أبى هريرة	١٦٣
٤٠	على المرء المسلم السمع والطاعة	ابن عمر	١٢٨
٤١	عليك السمع والطاعة ، في عسرك ويسرك	أبو هريرة	١٢٨
٤٢	فيما استطعتم	جماعة من الصحابة	١٢٩
٤٣	كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء	أثر عن عائشة	١٠٨
٤٤	كل أمتى معافى إلا الجاهرين	أبو هريرة	١١٦
٤٥	كل مولود يولد على الفطرة	أبو هريرة	٨٦ ، ٤٤
٤٦	كلاهما محسن	ابن مسعود وأبى بن كعب	٤٢
٤٧	لا أحد أغير من الله أن يزيى عبده	عائشة	٢٠٠
٤٨	لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش	ابن مسعود	١٩٩
٤٩	لا استأنى بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم	عائشة	١٥٢
٥٠	لا إيمان لمن لا أمانة له	أنس	٣٦
٥١	لا بأس بالرقى	عوف بن مالك	
		الأشجعي	٤٨
٥٢	لا بأس به إنما يريدون به الصلاح	سعيد بن المسيب	٤٩
٥٣	لا تجعلوا بيوتكم قبورا	أبو هريرة	١٩١
٥٤	لا تلغنه فإنه يحب الله ورسوله	عمر بن الخطاب	٧٣ - ٧٢
			١٣٦
٥٥	لا حلف في الإسلام	جبير بن مطعم	١٢٥
٥٦	لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق	النواس بن سميان	١٢٨ - ٨٨
٥٧	لا ياعمر حتى أكون أحب إليك من نفسك ، ولفظه في البخارى لا والذي نفسى بيده حتى ...	عبد الله بن هشام	١٣ - ١٢ ، ١٠٤ ، ٥٧

رقم المسلسل	الحديث	الصحاح الراوى	الصفحة
٥٨	لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن	أبو هريرة	٧٣ ، ٩١ ، ١٠٥
٥٩	لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان	صهيب	١٥٦ ، ١٩٤ ، ١٩٥
٦٠	لقد شهدت حلفا مع عمومتى فى دار عبد الله بن جدعان	بمعناه عن جبير بن مطعم	١٢٤
٦١	اللهم إنى أعوذ بك من الكسل والهزم	عائشة	١٧٣
٦٢	لو عمل الناس كلهم بهذه الآية لوسعتهم	أبو ذر الغفارى	١٤٦
٦٣	لو كنت متخذنا من أهل الأرض خليلا	ابن مسعود	٥٣ ، ٧٠
٦٤	ليهنك العلم أبا المنذر	أبى بن كعب	١٣
٦٥	ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست فى كتاب الله	عائشة	١٢٩
٦٦	ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد...	كعب بن مالك	٩٩
٦٧	ماض فىنا أمرك ، عدل فىنا قضاؤك	ابن مسعود	١٧٠
٦٨	مر على قوم يلعبون بالشطرنج	أثر عن على	٨١
٦٩	المسلمون على شرطهم	عمرو بن عوف المزنى عن أبيه عن جده	١٣٠
٧٠	من ابتلى من هذه القاذورات بشيء فليستتر	زيد بن أسلم	١١٦
٧١	من أحب الله وأبغض الله وأعطى الله	أبو أمامة ، سهل بن معاذ الجهنى	٦٩ - ٧٠ ، ١٠٢
٧٢	من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل	جابر بن عبد الله	٤٨
٧٣	من أطاعنى فقد أطاع الله	أبو هريرة	٣٧
٧٤	من ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة	أبو هريرة	١١٦
٧٥	من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو	أبو هريرة	٩٣

رقم المسلسل	الحديث	الصحاحى الراوى	الصفحة
٧٦	من نذر أن يطيع الله فليطعه	عائشة	١٢٩ - ١٣٠
٧٧	من يرد الله به خيرا	ابن عباس وأبو هريرة	
		ومعاوية	٣٨
٧٨	هذا من النعيم الذى تسألون عنه	أبو هريرة	١٦٣
٧٩	وأن لا يوطنن فرشكم من تكرهونه	عمرو بن الأحوص	٢٠٢
٨٠	وكنتم خير الناس للناس	أثر عن أبى هريرة	١٥٢
٨١	والذى نفسى بيده لا يؤمن	أنس بن مالك	٥٧ ، ١٢
	أحدكم حتى أكون أحب إليه		١٠٣ ، ٩٠
٨٢	والله ما أفقر أخشى عليكم	عمرو بن عوف	١٧٣
٨٣	وهل تنصرون إلا بضعفائكم	سعد بن أبى وقاص	٩٧
٨٤	ياعبادى إني حرمت الظلم على نفسى	أبو ذر الغفارى	١٨٣
٨٥	يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال دينار من إيمان	جماعة من الصحابة	٦٦ - ٦٧
٨٦	يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا : أوله : بادروا بالأعمال	أبو هريرة	١٤٠
٨٧	يقول الله أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت	أبو هريرة	٦٣
٨٨	يقول الله : خلقت عبادى حنفاء	عياض بن حمار	٤٤
٨٩	يقول الله : ما ترددت عن شىء أنا فاعله . وأوله إن الله قال من عادى لى وليا	أبو هريرة وعائشة	٧١

محتويات الكتاب

الحب والإرادة أصل كل فعل وحركة في العالم	
والبغض والكراهية أصل كل ترك فيه	٧
الحبة التي أمر الله بها هي عبادته وحده لا شرك له	١٠
أهل الطبع المتفلسفة لا يشهدون الحكمة الغائبة من المخلوقات ...	٢٨
أهل الكلام ينكرون طبائع الموجودات وما فيها من	
القوى والأسباب	٢٩
الحبة والإرادة أصل كل دين	٣٢
معاني كلمة « الدين »	٣٢
لا بد لكل طائفة من بنى آدم من دين يجمعهم	٣٥
الدين هو التعاهد والتعاقد	٣٦
الدين الحق هو طاعة الله وعبادته	٣٧
كل دين سوى الإسلام باطل	٣٩
لا بد في كل دين من شيئين : العقيدة والشريعة أو المعبود والعبادة	
تنوع الناس في المعبود وفي العبادة	٤٠
ذم الله التفرق والاختلاف في الكتاب والسنة	٤٢
يقول بعض المتفلسفة إن المقصود بالدين مجرد يقول الدنيوية ...	٤٥
فصل	٤٩
الحب أصل كل عمل والتصديق بالحجة هو أصل الإيمان	٤٩
تأويل طوائف من المسلمين للمحبة تأويلات خاطئة	٥١
تنازع الناس في لفظ « العشق »	٥٢
منكرو لفظ العشق لهم من جهة اللفظ مأخذان ومن جهة المعنى	
مأخذان	٥٣

٥٣	المأخذ الأول من جهة اللفظ
٥٤	المأخذ الثاني
٥٦	المأخذ المعنوي : قيل إن العشق فساد في الحب والإرادة
٥٧	وقيل إن العشق فساد في الإدراك والتخيل والمعرفة
٦٠	فصل
٦٠	كل محبة وبغضة يتبعها لذة وألم
٦٠	الذات ثلاثة أجناس
٦٠	الأول : اللذة الحسية
٦٠	الثاني : اللذة الوهمية
٦١	الثالث : اللذة العقلية
		شرح الله من اللذات ما فيه صلاح حال الإنسان
٦٣	وجعل اللذة التامة في الآخرة
٦٤	غلط المتفلسفة ومن اتبعهم في أمر هذه اللذات
٦٥	ضل النصارى كذلك في أمر اللذات
٦٥	اليهود أعلم لكنهم غواة قساة
٦٦	تفصيل مقالة الفلاسفة في اللذة
٦٨	فصل
٦٨	حب الله أصل التوحيد العملى
٦٩	أصل الإشراف العملى بالله الإشراف في المحبة
٦٩	المؤمنون يحبون الله ويغضون الله
٧٢	محبة الله مستلزمة لمحبة ما يحبه من الواجبات
٧٢	الذنوب تنقص من محبة الله
٧٦	مراتب العشق
٧٦	ذكر الله العشق في القرآن عن المشركين
٧٧	المتولون للشيطان هم الذين يحبون ما يحبه
٧٩	عباد الله المخلصون ليس للشيطان عليهم سلطان
٨٠	العشاق يتولون الشيطان ويشركون به
٨٣	يوقع الشيطان العداوة والبغضاء بين المؤمنين بالعشق
٨٧	أصل العبادة المحبة والشرك فيها أصل الشرك

الفتنة جنس تحته أنواع من الشبهات والشهوات ٨٩

فصل ٩٠

حبة الله توجب المجاهدة في سبيله ٩٠

موادة عدو الله تنافي المحبة ٩٠

حبة الله ورسوله على درجتين : واجبة ومستحبة : ٩٢

المحبة الواجبة وهي حبة المقتصددين ٩٣

المحبة المستحبة وهي حبة السابقين ٩٣

ترك الجهاد لعدم المحبة التامة وهو دليل النفاق ٩٤

انقسام الناس اربعة أقسام : ٩٦

١ - قوم لهم قدرة وإدارة ومحبة غير مأمور بها ٩٧

٢ - قوم لهم إرادة صالحة ومحبة كاملة لله وقدرة كاملة ٩٧

٣ - قوم فيهم إرادة صالحة ومحبة قوية لكن قدرتهم ناقصة ٩٧

٤ - من قدرته وإرادته للحق قاصرة وفيه إرادة للباطل ٩٩

العبادة تجمع كمال المحبة وكمال الذل ٩٩

من أحب شيئاً كما يحب الله أو عظمه كما يعظم الله فقد أشرك .. ١٠٣

الإنسان لا يفعل الحرام إلا لضعف إيمانه ومحبته ١٠٥

تزيين الشيطان لكثير من الناس أنواعاً من الحرام ضاهوا بها الحلال

..... ١٠٨

موقف المؤمن من الشرور والخيرات وما يجب عليه حيالها ١٢٠

بنو آدم لا يمكن عيشهم إلا بالتعاقد والتحالف ١٢٢

التحالف يكون وفقاً لشرعية منزلة أو شرعية غير منزلة أو سياسية

..... ١٢٤

المسلمون على شروطهم إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً ... ١٣٢

فصل ١٣٧

المقصود الأول من كل عمل هو التمتع واللذة ١٣٧

النعيم التام في الدين الحق ١٣٨

من الخطأ الظن بأن نعيم الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور ١٣٩

المؤمن يطلب نعيم الدنيا والنعيم التام في الآخرة ١٤١

من الخطأ الاعتقاد أن الله ينصر الكفار في الدنيا ولا ينصر المؤمنين
١٤٢.....

ما سبق يتبين بأصلين : الأصل الأول : حصول النصر وغيره من

أنواع النعيم لا ينافي وقوع القتل أو الأذى ١٥٠.....

الأصل الثاني : التنعم إما بالأمر الدنيوية وإما بالأمر الدينية .. ١٥٤.....

١ - الدنيوية : ١٥٤.....

٢ - الدينية : ١٥٦.....

١٥٧..... **فصل**

تنازع الناس فيما ينال الكافر في الدنيا من التمتع ، هل هو نعمة في

حقه أم لا ؟ ١٥٨.....

رأى ابن تيمية ١٦٢.....

حال الإنسان عند السراء والضراء ١٧٣.....

حال المؤمن عندهما ١٧٤.....

المؤمن أرجح في النعيم واللذة من الكافر في الدنيا قبل الآخرة وإن

كانت الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ١٧٦.....

لذات أهل البر أعظم من لذات أهل الفجور ١٧٨.....

لما خاض الناس في مسائل القدر ابتدع طوائف مقالات مخالفة

للكتاب والسنة : ١٧٩.....

بدع القدرية : ١٧٩.....

بدع طائفة من أهل الإثبات ١٨٠.....

الرد عليهم ١٨٢.....

المقالة الصحيحة لأهل السنة والجماعة ١٨٤.....

رفع الله الحرج عن المؤمنين ١٨٥.....

الإيمان والطاعة خير من الكفر والمعصية للعبد في الدنيا والآخرة ١٨٦.....

معنى المجيء إلى الرسول ﷺ بعد مماته ١٩٠.....

على المؤمن أن يحب ما أحب الله ويغض ما أبغضه الله ويرضى بما

قدره الله ١٩٤.....

١٩٦..... **فصل**

جميع الحركات ناشئة عن الإرادة والاختيار ١٩٦.....

١٩٨.....	فصل
١٩٩.....	أصل الموالاتة الحب وأصل المعاداة البغض
٢١٠.....	فصل
٢١٠.....	تقسيم العمل إلى فعلى وانفعالى
	علم الرب بأفعال عباده الصالحة والسيئة يستلزم حبه للحسنات
٢١١.....	وبغضه للسيئات
٢١٢.....	الإرادة والمحبة ينقسمان أيضا إلى فعليتين وانفعاليتين
٢١٤.....	الحب يتبع الإحساس والإحساس يكون بوجوده لا بمجرد
	الأمر الغائبة لا تعرف ولا تحب ولا تبغض إلا بنوع من القياس والتمثيل
٢١٥.....	

رقم الايداع ٨٧ / ٨٥٦٣
الرقم الدولي ٦-٣٤-١٦٠٠-٩٧٧

طبع بدار المدينة المنورة للطبع والنشر
القاهرة ١١٤ ش مجلس الشعب ت ٣٩٠١٠٣٠